ذكريات محارب قديم

صفحات مجهولة من تاريخ البطولة المصرية



جمال السيد

ذكريات محارب قديم

صفحات مجهولة من تاريخ البطولة المصرية

جمال السيد

تعريف وإهداء

الحاضر لا ينبت من فراغ .

وما من حاضر مجيد ، الا وهو ثمرة ماض مجد .

وقد اوقد المحاربون القدماء الشعلة ، ثم اسلموها الى الأيدى الفتية التى رفعتها عاليا فى ٦ اكتوبر ، واضاءت بنورها طريق الأمل والعزة ، واحرقت بنارها حصون البغى والعدوان .

وحاضر مصر المجيد هو « ابطال اكتوبر » ، وماضيها هو « المحاربون القدماء » .

ومن ذكريات المحاربين القدماء ، يعرض هذا الكتاب ومضات تجمع بين الحقيقة والطرافة .

وفى الكثير من احداث هذه الذكريات كان للكاتب دور ، بالفعل او بالمشاركة او بالمشاهدة .

وليس من قصد الكاتب ان يؤرخ لفترة معينة ولا ان يسجل حدثا لذاته ، وانما قصده هو التعريف بالمحارب

المحترف ، من حيث هو انسان ، يؤدى دوره فى الدفاع عن الوطن والذود عن حياضه ، كما يعيش حياته بكل ما يعتمل فى النفس من مدركات ودوافع وانفعالات .

ويخطىء من يتمثل المحارب فى صورة الانسان العنيف الجاد دائما ، فليس الانسان ـ أى انسان ـ فى حقيقته كذلك ، وانما هو مزيج من العنف واللين ومن الجد والمرح . كما أنه ليس صحيحا أن الحرب كلها دماء فائرة وجراح فاغرة ، ففيها الكثير من مرح الانسان ومن طرائف الحياة .

ولقد اختار الكاتب من حياة المحاربين وجهها المرح وجوانبها الطريفة . ومن خلال هذه الطرافة راح يعرض هنا لقطات متناثرة ، سوف يتعرف القارىء من خلالها على المحارب المصرى .. عفريتا لا ريب فيه . فأى شىء يكون هذا الانسان الذى صمد للحرب منذ فجر التاريخ ، والذى طالما هزم الأعداء ودوخ الغزاة ، والذى عجز البغى والطغيان عن تطويعه واخضاعه لارادتهما ، والذى يطلق الضحكة مع الرصاصة ويصفع الظلم بالسخرية ويغلب اليأس بالنكتة وينتصر دائما على الظروف وعلى الخصوم ؟؟ .. أى شىء يكون الا عفريتا مصورا !؟!

ومن مجموع تلك اللقطات تتكون هذه الباقة ، التى يهديها الكاتب الى رفاق السلاح من محاربى الأمس وابطال اليوم ومقاتلى الغد ، ثم الى صديق عزيز اسمه ماجد .

جمال السيد

والله زمان

كان الرجل فى اجازة طويلة ..

وكان يتمشى فى سأم على شاطىء النيل ..
وفجأة تدفقت الدماء فى عروقه .
وكان ذلك حين سمع « البلاغ رقم ١ » ...
ودارت مباراة اكتوبر التاريخية .
وكان الرجل من قوم قد شاركوا فى اعداد الابطال لتلك المباراة .

وراح الابطال يفوزون بالأهداف واحدا بعد الآخر .
وانتهت المباراة بالنصر المبين .

واحتشدت الجماهير لتحية موكب الابطال .
واستولى الشباب على الصفوف الأمامية واستقر الكهول فى الصفوف الخلفية .

وجاء موكب الابطال ، ثم توقف أمام الكهول .

وللتو انتصبت قاماتهم ، واصطفقت اقدامهم ، ثم رفعوا أيديهم الى الجباه ، بينما راحت البسمات تلألأ فى الوجوه ، والدموع ترقرق فى العيون .

وفى خطوات ، كانت كأنشط ما يطيقه كهل ، أجهدته الحياة وأنهك الربو رئتيه ، تقدم الرجل الى الأبطال بباقة من الزهور .

وفى حب ووفاء تقبل الأبطال الباقة ورفعوا ايديهم بتحية العرفان .

ثم تابع الموكب مسيرته .

وبقى الكهول فى الصف الخلفى !!

وراح بعضهم يقول لبعض « والله زمان » . .

وكان الكهول هم المحاربون القدماء .

وكانت الباقة هى هذا الكتاب .

عم رياض وساغابو ..

ما ان يخطو الطالب الجديد تلك الخطوة الاولى التى تفصل ما بين الشارع والكلية الحربية حتى يجد نفسه فى عالم لم يكن يتصور له وجودا الا فى المريخ . فهنـاك يتلقفه عفاريت القسمين المتوسط والنهائى، ويرحبون به ترحيب الأسود بالغزلان . وما أن يلقى اليهم زميلهم الجديد بالتحية الشرعية « السلام عليكم ، حتى تدوى من حوله الصيحات « .. افتح صدرك .. ارفع رأسك .. أقف عدل» ثم تنهال عليه التعليقات « هـو ماله كـده زى الملبن .. يا أرض احرسى ما عليكى .. دابيمشى باليه خالص .. » . ويصعق الزميل الجديد من هذا الاستقبال الجهنمى ، ويقف فى جمود تمثال فرعونى اصيل ، فيصيح به واحد من حملة الشرائط « انتبـاه .. سريعا مارش » . وعندئذ فانه قد يراجع نفسه ويستدير نحو الشارع تأهبا للزوغان ، وقـد يكون شجاعا فيعلن عن هـذه الرغبة قائلا « لا يا عم أنا مش حالعب » . ولكنـه يفاجأ بزملائه الجـدد وهم يتدفقون من الباب ، فتعز عليـه كبرياؤه ، فيعود الى العفـاريت ويسلمهم قياده ... فيقف انتباه ويفرد صدره ويجرى سريعا مارش .. لكى يقع بعد خطوات فى يد الضابط النوبتجى . وتماما كما يحدث التعادل بين الحامض والقلوى يحدث تعادل مماثل فى

نفس الطالب الجديد ، حين يشاهد تلك الابتسامة العريضة التى ترتسم على وجه الضابط . وساعتها يقول الطالب لنفسه أن الكلية ليست بالجحيم الذى صورته له صيحات العفاريت ، وأن الحياة مع مثل هذا الوجه الباسم سوف تكون محتملة ، وقد تكون بهيجة. وقطعا يكون مثل هذا الطالب من الحاصلين على أقل الدرجات فى الشعر العربى ، والا لتذكر ساعتها بيتا معينا يقول :

واذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن ان الليث يبتسم .

ومن بين اللقطات التى تحفل بها مواقف اللقاء الأول بين الطالب والكلية نختار هنا لقطة طريفة .

وتبدأ هذه اللقطة بموكب من اعيان وشبان قرية من اقصى الريف .

وعلى باب الكلية الحربية راح هؤلاء يتدفقون من التاكسيات ويحيطون بطالب ، كان قادما للالتحاق بالكلية . وراح كبيرهم يصافحه وهو يقول « اوعى ياواد تكبر علينا لما تبجى لوا » ، وراح الباقون يعانقونه ويوصونه بأن يكون « واد ددع » وبأن يبيض وجوههم « بالشطارة والددعنة » ، ثم ناولوه سلة ضخمة . واستلفتت السلة نظر الضباط الذين كانوا يستقبلون الطلبة ، فاستوقفه واحد منهم وسأله « ايه ده ؟ » فأجابه « دى حاجة مش جد المجام .. علشان الاخوان » . فشخط فيه الضابط « ورينى فيها ايه » . فرفع الطالب غطاء السلة وراح يشد منها أوزيا مشويا!! وبكل بساطة راح الضابط يتشمم رائحة الأوزى الشهية . وببساطة أكثر اشار الى باب الكلية وصاح بالطالب « بره » . وحمل الطالب السلة وخرج بها وهو يحسب نفسه مطرودا من الكلية . وهناك استقبله اهله بنظرات الدهشة والوجوم ، وراح فصيح منهم يقول « موش جلت لكم الحادات دى ممنوعة ... كويس كده تضيعوا مستجبل الواد ؟ !!! . وقبل ان يمضى الطالب وأهله مع تفسيرهم

الخاطيء لتصرف الضابط ـ الذى لم يكن يقصد سوى طرد الأوزى فقط ـ لحق بهم عفريت من الطلبه (الصف ضباط) وتناول الطالب بيد والسلة بيد اخرى ومضى بهما الى آخر السور ، ثم عاد وحده ودخل من الباب ومضى الى آخر السور ، ومن هناك تناول السلة وناولها لعفريت ثان . ثم عاد ليستقبل الطالب من الباب بكل ترحاب وليحميه من عملية التدشين التى كان يقوم بها زملاؤه مع الطلبة المستجدين .

وبعيدا (فى ارض النجيلة) ، وبعد انتهاء مراسم استقبال وتوضيب المستجدين ، تربع صاحب الأوزى وراح يعزم على العفريت المنقذ وعلى عدد من العفاريت القدامى والمستجدين . ودار الهبر فى الاوزى المسكين حتى اصبح عظما بغير لحم .

اما اللقطة الثانية فهى تصور منظرا حدث بعد المنظر السابق بخمسين يوما فقد عاد يومها ٨٠٠ عفريت من اجازة المستجدين وهم يحملون من اطايب اللحوم والحلوى ما يفوق البيان . وعلى سبيل المثال فقد كان اقل رصيد دخل به أى عفريت هو « جوز فراخ محمر ورطلين بسبوسة » .. أما عن الغالبية العظمى من العفاريت فانها نهبت ارصدة البيوت الغذائية نهبا رهيبا كما افرغت جروبى من محتوياته . واذا كان العفاريت يومها قد حسبوا أن فى «آخر السور» متسع لتهريب تلك الممنوعات ، فان نفس ذلك الحساب كان قد دخل فى اعتبار الضابط العظيم والضابط النوبتجى . ولذا فانهما نصبا عددا مهولا من الكمائن والفخاخ . وفى تلك الكمائن والفخاخ وقعت الممنوعات جميعها ، ولم يفلت منها سوى عينات تذكارية من قطع الحلوى التى كانت مخبأة باحكام فى جيوب العفاريت .

وكانت تلك الليلة ليلة مهيبة على العفاريت من ناحية وبيضاء ناصعة على صنف آخر من العفاريت .. هم جنود الكلية . فقد استدعاهم الضابط العظيم وراح هو والضابط النوبتجى يوزعان

عليهم الغنائم ... ديوك رومى ، فراخ ، بط ، حمام ، ارانب ، كفتة ، كباب ، لحم محمر ، سجق ، روانى ، بسبوسة ، بقلاوة ، جاتوه ، مارون جلاسيه ، شيكولاتة الخ ....وكل ذلك كان بكميات « لا يصدكها عكل » !! . على أن بعض الجنود عزت عليهم أحزان العفاريت فراحوا يعطونهم مما أعطاهم الله . وقد راح ناسك من العفاريت يتناول من أحد الجنود الكرام هبرة مفتخرة من صدر ديك رومى ، وهو يقول « هذه بضاعتنا ردت الينا » .

المهم هو أن الكلية الحربية وقتها كانت تتميز بظاهرة معينة وهى ظاهرة « الجوع الأزلى » .. وليس ذلك بمعنى النقص فى كميات الطعام ، فقد كانت الكلية ــ وماتزال ــ تتميز بالكرم فى هذا المجال . وانما كان الجوع يلف ويدور حول مطعوم معين يضعه علماء الكيمياء الحيوية فى صف الكربوهيدرات ، ولكن طلبة الكلية يضعونه فى صف المقدسات ؛ وذلك هو السكر اللذيذ ... حتى أن طالبا معينا كاد أن يتقدم باقتراح انشاء نيشان جديد بكون اسمه « نيشان النياشين الأكبر لسكر القصب وليس لسكر البنجر » . والسكر ــ كما يقول العلماء ــ هو أكفأ مصادر الطاقة البشرية . واذا كان قارىء (أو قارئة) هذه الذكريات ممن يكتفون فى العادة بقدر معتدل من الفاكهة (أو المشروبات المحلاة بالسكر أو الحلويات) كل يوم ، فما ذلك الا لانهما لم يعانيا حياة الكلية بما تحفل به من طوابير (لا يقل متوسط السير والجرى فيها عن عشرة كيلومترات فى اليوم)، تضاف اليها بضع ساعات من الألعاب الرياضية ، ومنها السباحة .. التى كاد عفريت معين أن يروح فيها غريقا على يد اليوزباشى مصطفى لطفى . وكان ذلك عندما راح الأول يتفاخر على زملائه بأنه « يعوم زى الرصاص » ، فأخذه الأخير أخذ عزيز مقتدر الى جيث الجانب العميق من حمام السباحة ، وأصدر له أمرا من حرفين « نط » . وما من أحد يعرف مصطفى لطفى ، الا ويعرف أن أوامره كانت ــ ولعلها ماتزال ــ من طراز «ما قل ودل» ، كما أنها «كماكنتبروف»

.. بمعنى أنها غير قابلة للنقض أو الاستئناف . ونط العفريت بعد أن تشهد على روحه . وكأى سبيكة من الرصاص ، رقد على بلاط الحمام وراح يشرب عللا بعد نهل من مائه الطهور ، ثم راح يلفظ انفاسه ما قبل الأخيرة ... !! . ويقسم العفريت انه رأى ساعتها عزرائيل رأى العين وهو مرتد ثياب « يوزباشى » .. !! ولولا ان عددا من العفاريت قد بادروا بالهتاف « يافندم دا بيحموه فى كنكة » لخسر عالم العفاريت يومها عفريتا من خالص الرصاص . وبمنتهى الايجاز صاح مصطفى « اللى يحب النبى ينط » ، ثم قفز ببدلته الجبردين فى اليم .. وكذلك قفز عشرات العفاريت ، ثم غاصوا الى حيث هبط الغريق ، فلم يجدوا له أثرا !! لأنه كان قد انتفض من حلاوة الروح وراح يجرى على ارض الحمام ويحاول أن يتسلق التل الذى كان يفصل بينه وبين شاطىء النجاة . ولكن الوقود نفذ منه وهو على مرمى خطوة من هدفه . وقد عثر عليه عفريت ــ كان قد نزل خطأ من الجانب الآخر ــ فصعد به الى عالم النور والهواء . وهناك قام العفاريت باسعافه وهم يتصايحون « دا شرب مية الحمام كلها .. حانتمرن فين !! » . وخسر عزرائيل يومهـا ضحيته ، كما خسر مصطفى بدلته . أما العفريت فانه أصيب بعقدة نفسية جعلته يؤلف كتابا عن « الغواصات » ، ويترجم كتبـا عن حروب البحر ويكتب فى مجلة الهلال عشرات المقالات عنها .. مع انه لا يزال حتى الآن « يعوم زى الرصاص » ..

ونعود الى قضية « الجوع الأزلى » فنقول انهـا كانت تحير نطس العفاريت ، وان علاجا معينا لها كان قد ظهر على يد شخصية معينة ، كانت لها فى مجال الشيكولاتة ــ وهى قمة المنتجات السكرية ، كما يعرف كل اب اهمل تحديد نسله ــ صولات وجولات . وتلك هى شخصية « عم رياض » . وكان عم رياض من حيث مركزه الوظيفى مجرد ساع مدنى ذى ساق خشبية ، وكان عمله الرسمى هو تزويد

العفاريت بمستلزمات خطاباتهم ، من ظروف الى طوابع . وبالمناسبة فان خطابات الطلبة تستحق هنا اشارة الى محتوياتها ، التى لم تكن تخرج قط عن موضوعين ازليين . أولهما يمكن استظهاره من عبارة « وضرورى يا ماما تخلى بابا يبعت لى فلوس » ، أو ـ وتلك وصفة مجربة ـ « ولو سمحت حضرتك تبعث لى يا بابا عشرة جنيه علشان قنطرة التتك اتكسرت منى وطالبين منى ثمنها بالأمر » . وقبل ان يبدد القراء وقتهم فى العطف على ذلك الطالب (الذى بلغ من سوء حظه انه تسبب فى كسر قنطرة بحالها) نود ان نطمئنهم الى أن قنطرة التتك هى الاطار الحديدى الصغير الذى يحيط بزناد البندقية ، كما انها أبعد اجزاء البندقية عن التعرض للكسر !!.

اما الموضوع الثانى لخطابات العفاريت فهو موضوع يمكن تبينه على ضوء عبارات « واوعى تصدقى فيفى ، والله العظيم أنا ما بحبها ، وانما أحبك انتى بس » و « ما تنسيش يا سوسو تستنينى الساعة ٣ ١/٤ تمام يوم الخميس على باب جنينة الأسماك » وهنا نستلفت الأنظار الى أن موعد خروج الطلبة هو الثالثة تماما .. اما كيف كان الواحد منهم يقطع المسافة بين كوبرى القبة والزمالك فى ربع ساعة فقط فان ذلك يعد من أسرار المهنة .

ونعود الى عم رياض ، فنقول انه كان فى حقيقته اجل شأنا وأعلى سلطانا مما يدل عليه مظهره المتواضع . فقد كان « الأكل الملكى » ممنوعا فى الكلية .. فلا بوفيه ولا كانتين ، وحتى ما كان يتزود به الطالب من بسبوسة أو روانى (تكون الأم الحنون قد زودته بها) أو من علبة شيكولاته أو مارون جلاسيه (تكون سوسو قد اتحفته بها) .. حتى هذه الضروريات السكرية كانت ـ كما اشرنا من قبل ـ تتعرض للضبط والمصادرة على أيدى ضباط الكلية ، سواء فى طابور التمام ليلة الجمعة ، او فى حملات التفتيش على الدواليب ، التى كانت تبلغ اشدها فى ايام السبت . ولقد استطاع

عم رياض أن ينتفع من تلك المحنة السكرية خير انتفاع . فقد كان يخفي مستودعا كاملا للشيكولاتة فى ساقه الخشبية ومن جوف تلك الساق المباركة كان يستخرج قطعة الشيكولاتة النستلة ويضعها فى رشاقة تحت أنف العفريت الجائع فتجحظ عينا الاخير وتتلاحق أنفاسه ويقـول « حـرام عليك يا عم رياض .. نص ريال على شيكولاتاية بصاغ ! » فيرد عم رياض فى ثبـات القـائد المنتصر « بصاغ بيوزباشي .. ما تتعبش نفسك .. ما معاييش غيرها .. تدفع والا أبيعها لفلان .. دا حاجزها من يومين » . وفى فزع ولهفة يضرب العفريت الجائع يده تحت « فانلة ضرب النار » ، ويستخرج النصف ريال ويسلمه طائعا لعم رياض ، ثم يتناول قطعة الشيكولاتة ويطير بها الى السطح أو الى « أرض النجيلة » . ويا ويله ان لمحه عفريت آخر . وكم شهدت ممرات الكلية من مباريات سباق اوليمبية بين عفريت حاصل على النستلة وبين عفاريت زعم لهم عم رياض انه « خلاص جبرنا » . وهى مباريات كانت تنتهى أحيانا باصابات ناتجة عن لكمة « تحت الحزام » أو « هوك فى الذقن » .. ولم يحدث قط ان استطاع اى ضابط نوبتجى ان يحصل على تفسير مقنع لهذه الاصابات .

ومن تلك المقدمة ننتقل الى مسرحية كانت هى قمة ــ وخاتمة ــ احدى الدراميات السكرية .

فقد تولى منصب «كبير المعلمين» اميرالاى (عميد) ، كان قبلها مباشرة ملحقا عسكريا فى عاصمة أوروبية . وكان الرجل عصريا ومجددا ، فما أن تبين المحنة السكرية التى كان يعيشها العفاريت حتى وضع لها علاجا عصريا . ولكن خطأ معينا فى تطبيق ذلك العلاج كاد أن يضيع الجميع ــ الطلبة والضباط وكبير المعلمين ــ فى شربة مية !! ! ، كما أن ذلك الخطأ نزل فى نفس الوقت بردا وسلاما على قلب عم رياض .

فبعد طوابير مهلكة فى المشى والجرى وركوب الخيل ، وبعد وجبة أفطار ـ لم تكن فيها اربعة أطباق متتالية من العدس بكافية لتعويض كل عفريت عما فقده من السعرات الحرارية ـ ، نقول انه بعد الافطار راح الطلبة ذات يوم يتجهون الى فصول الدراسة فى تثاقل وهم يتبادلون عبارات « دا ايه الغلب الأزلى ده .. العدس كان شايط يا عالم » ، « يا مفترى دا أنت لسة مقربع قروانة بحالهـا . » ، « من جوعى .. معاكش حتة سكر .. لله يا محسنين . » ، « منين يا خـويا وانا لسه واخـد حبس خميس فى حتة البسبوسة اللى ضبطها قائد السرية فى الدولاب » ..

وفجأة تعطلت لغة الكلام وتوقفت مواكب العفاريت .

وتلك ظاهرة كان حدوثها مألوفا أثناء مرور اللواء قائد الكلية . ولكن وجه الغرابة هنا كان هو ان الصمت والسكون اللذين سادا وقتها لم يصدرا عن مرور القائد ، وانما عن خفقات هفهافة من النسائم الحلوة .. الحلوة فعلا وليس مجازا . ووقف الطلبة وهم يتشممون الجو ويحاولون تحديد مصدر تلك النسائم التى لا تصدر الا عن الجاتوه والبقلاوة وسائر أفانين السكر . وشيئا فشيئا راحت البوصلات الأنفية تشير الى مكان معين ، كان يقع على خط الحدود بين مكاتب الضباط وعنابر الطلبة . وللفور تحركت من عفاريت المقدمة داوريات استكشاف ، بينما وقفت باقى القوات العفاريتية وهى فى حالة الاستعداد القصوى . ولكن الداوريات لم تعد !! . وبدا للعفاريت ان الداوريات قد وقعت أسيرة فى أيدى الضباط ، فاقترح عفريت مسالم ان « نبعد عن الشر .. وناخدها من قصيرها ونروح على الفصول » . فكان رد القوات العفاريتية بالاجماع « فصول ايه يا كروديا .. دى ريحة جاتوه يا بعكوك أنته » . وبعد مشاورات سريعة قرر العفاريت أن يبعثوا بدواريات جديدة . وراحت الداوريات الجديدة ولم تعد ! . ثم دوى النفير معلنا ابتداء الحصة الأولى . ولكن العفاريت « استقتلوا » واتجهوا فى حشود

ميستيئسة الى خط الحدود. وما أن رأوا ما كان هناك حتى اندفعوا فى موجات عاصفة واجتاحوا خط الحدود وهم يضربون بأيديهم تحت « فانلات ضرب النار » ويستخرجون كل ما فى جيوبهم من العملات المعدنية وأوراق البنكنوت . فقد كانت هناك فترينات تكاد أن تنفجر من فرط ما كانت تكتظ به من روائع الجاتوه وبدائع البقلاوة. وكان البوفيه البانورامى الذى يضمها هو الابن الشرعى للروشتة التى كتبها كبير المعلمين .

ولو كان متعهد ذلك البوفيه على أقل قدر من الدراية بالنظام العسكرى ، لتحقق له فى ذلك اليوم (والأيام التالية) رصيد هائل من أوراق البنكنوت . ولكنه كان من الجهل بحيث راى ان يزود البوفيه باغراء اغريقى معين، كان وجوده مألوفا فى محلات الحلوى، ولكن ظهوره فى الكلية الحربية لم يكن يعنى شيئا أقل من انفجار ذرى رهيب ..

وكان ذلك الاغراء يقف من حول فيترينات الجاتوه على شكل بطاريات صاروخية من عيار « ذهبى الشعر شرقى السمات » (١) . يعنى ـ بالعربى الفصيح ـ كانت هناك عشر بائعات يونانيات ، تقول كل منهن للقمر « فز قوم من هنا ردور لك على شغلة تانية » .

ولعل ابلغ وصف للبائعات والطلبة والجاتوه وما حدث لهم كان هو القصيدة التى نظمها أحد العفاريت يومها والتى قال فيها :

أفى ارض مسكورة ترانا	أم المريخ يا ابنى يحتوينا
وفى كلية الحرب نمشى	أم الفردوس ذلك يا اخينا
أبعد عذاب طابور السوارى	ورقص فيه مثل البالرينا
وطابور البيادة حيث نجرى	ونفقد فيه سعراتا ثمينة

(١) يخطىء محمد عبد الوهاب حين ينطق « الشعر » بكسر الشين ، فى اغنية الجندول ، والصحيح هو الشين المفتوحة ، وبذلك يستقيم المعنى .

وبعد الصف ضباط ـ شنابا ـ ومنهم واحد ابن اللذينا
وبعد الحجز قشلاق وفيه ندور كما ندور كدا البوبينة
تجى لنا بنات العمم ينى فتصبح جنة تلك القمينة
ونلقط بسطة او رانديفونا من الحور النواعم من اثينا
وننسى العدس مطبوخا برز ونفلت من هراديم الطحينة
فلا والله لا نبغى بديلا بجاتوه تقدمه مازينا
ولا نخشى من الصاغ المشفى ولو حتى ادار الحبس فينا
ونحن هنا سنضحى ثم نمسى ونصبح فى البوفيه مخندقينا

والذى حدث فعلا كان قريبا مما ينذر به البيت الأخير . فقد مصف الهجوم العفاريتى بالفيترينات ، فخلا بعضها من محتوياته وسقط البعض الآخر على الأرض ، وراحت صيحات العفاريت تلاحق بنات الأغريق .. بعض الصيحات يطلب جاتوه ، وبعضها يطلب رانديفوه .. و « أهى كلها طلبات » . واستطاع عفريت خبيث أن « يقلبها يغمة » حين زعم لزملائه أن « جاتوه » معناها باليونانية هو « ساغابو » .. بينما هى فى حقيقتها تعنى « أنا هيمان .. » . والتوتجاوبت حفيدات كيلوباترا مع النداء الأخير ، ورحن يوزعن المواعيد مع الجاتوه بالعدل والقسطاس .

وفى خلال ذلك كان الضباط قد حضروا وراحوا يحاولون فض تلك الزفة التى لا تليق بوقار الكلية . ولكنهم عجزوا عن صد الامواج الزاحفة ، بالاضافة الى ان بعض الشبان منهم ما لبثوا ان انضموا الى العفاريت ، وراحوا يحاولون الحصول على ما تيسر من المواعيد .

وبينما كان ذلك المهرجان يدور على اشده ، كان عم رياض قد حضر وتبين الخطر الماثل على رزقه ، فراح يجرى بساقه الخشبية

فى سرعة صاروخية ، وفى ثوان كان قد ابلغ كبير المعلمين واركانحرب الكلية والقائد بتفاصيل المهرجان .

وظهر الثلاثة معا . . . القائد وعصاه تحت ابطه ، وكبير المعلمين « فى حالة ما يعلمها الا الله » ، واركانحرب وعيناه تقذفان بالشرر . وبظهور الثلاثة حدث شبه شلل فى أذرع العفاريت الملوحة فتجمدت فى الهواء وظلت هناك فى أشكال عجيبة . ولكن ذلك الشلل لم يدم طويلا فقد صاح عفريت فصيح « حمامة يا جدعان » ، وفى اقل من لمح البصر كانت ساحة المعركة قد خلت الا من القائد والضباط والبائعات والمتعهد الساذج وعم رياض .

وبعد سين وجيم كاد يضيع فيها كل مسؤول عن تسرب البنات الى الكلية تغلبت على القائد مشاعر الابوة (١) فنظر الى الموضوع من زاوية « ربنا أمر بالستر » ، وامر المتعهد بأن يلم عزاله ويتوكل . والتو لبس عم رياض مسوح الملائكة وراح يواسى المتعهد ويساعده فى جمع عزاله . اما كبير المعلمين فقد ساق البنات الى باب الكلية ثم أمر باغلاق البـــاب من خلفهن اغلاقا محكما وعاد وهو يتنفس الصعداء .

ومن يومها رفع عم رياض تسعيرة الشيكولاتة الى الضعف ، كما بلغت حوادث كسر قنطرة التتك أرقاما رهيبة . .

---

(١) كان رحمه الله قائدا حازما وابا صالحا . وكل العفاريت الذين تتلمذوا على يديه ما يزالون يذكرونه بكل خير . ولقد بارك الله له فى أبنائه الثلاثة فبلغ واحد منهم رتبة الفريق واثنان رتبة اللواء .

ماتش فى عكا



كان ذلك فى عام ١٩٤٥ . والمكان على وجه التحديد هو ملعب مدرسه المشاة البريطانية فى عكا (بفلسطين) . وكان احد الفريقين المتباريين مكونا من عتـــاولة الهوكى فى الامبراطورية التى كانت الشمس ـ وقتها ـ لا تغرب عن ممتلكاتها . أما الفريق الآخر فكان مكونا من طلبة الكلية الحربية المصرية . وكان الطلبة هناك فى دورة تدريبية ، أما سبب المباراة فكان هو «الكبرياء الوطنية» . وهاك التفاصيل .

فقد راح الطلبة منذ حلوا ضيوفا على المدرسة ، يتحدون زملائهم من ابناء جون بول فى كل شيء . وبغير أدنى مبالغة فان عفاريت مصر قد « شيبوا » الانجليز وسبقوهم فى التدريب والمناورات (١) وفى

---

(١) فى خلال احدى المناورات التقى العفاريت ببعض الثوار الفلسطينيين ـ قرب قرية صفد ـ وعقدوا معهم اتفاقا معينا . وتنفيذا لذلك الاتفاق راح العفاريت ينهبون مخزن الذخيرة نهبا منظما ، ثم يلقون بصناديق الذخيرة فى نقطة معينة قرب

قوة التحمل . ثم تحولوا الى الالعاب الرياضية فراحوا يتحدون الانجليز فى كرة القدم وكرة السلة والتنس والبنج بونج والسباحة وكرة الماء والمصارعة والملاكمة . حتى فى البوكر . . استطاع عفريت منهم أن يستولى على « الصولد » كله من أربعة انجليز كان على راسهم قائد ثانى المدرسة ، الذى بلغ من افلاسه ليلتها أنه كاد أن يلعب على « البايب » .

ولما كان من طبيعة الأمور ان « الحلو مايكملش » فان العفاريت وان كانوا قد تمكنوا من تخريب سمعة الامبراطورية فى كل الميادين والملاعب ، فانهم اضطروا الى الوقوف مكتوفى الأيدى امام ملعب واحد هو ملعب « الهوكى » . فلم يكن بينهم سوى ثلاثة يعرفون اقل من القليل عن لعبة « الهوكى » ، وواحد منهم فقط كان هو الذى تورط فى ممارستها فى نادى سبورتنج ، ثم خرج وهو يقسم الا يعود الى ساحة الهوكى بعد اذ نجاه الله منها .

ويوما بعد يوم تنبه الانجليز الى أن العفاريت يفقدون عفرتتهم ويسود بينهم صمت بليغ كلما جاءت سيرة الهوكى . ولم يستغرق الأولون وقتا طويلا فى الوصول الى سر ذلك الصمت . ومن ثم فقد تحرك وفد منهم ذات مساء الى العفاريت . . وبكل الأدب الانجليزى المعهود دعوهم الى مباراة فى الهوكى . . وكان الرد الذى تلقوه هو صيحة « يا نهار اسود !! . . هوكى ايه يا ولاد الـ . . »

وحين تساءل ميجور فضولى عن معنى تلك الصيحة راح عفريت أزعيل (١) يترجمها ترجمة حرفية !! فراى الانجليز انها نكتة رائعة وراحوا يقهقهون عجبا وطربا . .

تلال الجلامة ، حيث كان يلتقطها النوار . وعندما انتهت الدورة التدريبية كان مخزن الذخير قد اصبح قاعا صفصفا . ويعلم الله كيف استطاع الكوائر ماستر (ضابط الامداد) أن يفسر ذلك لقائد المدرسة . .

(١) مسحوب من لسانه . .

المهم هو ان العفاريت وجدوا ان كبريائهم الوطنية ستتعرض للخطر ان هم اعتذروا ، كما انها كانت — من الجانب الآخر — معرضة للخطر ان كسب الانجليز المباراة . وبعد موازنه سريعة بين الخطرين اختاروا الدخول فى المباراة ، بعد ان اكد احـدهم أنه يحمل حجابا يحتوى على اسرار شمهورشية مهولة . ولكى ينتقم قائد ثان المدرسة من ضياع مرتبه — فى الليلة التى كاد فيها أن يفقد البايب — فانه أصدر أمرا مشـددا لكل قوة المدرسـة بحضور المباراة ، وكانت تلك غلطة ندم عليها فيما بعد ..

وجاء وقت المباراة فنزل فريق العفاريت الى أرض الملعب وعلى راسه « صاحب الحجاب » . ومن مقاعد المتفرجين دوت صيحات العفاريت « تحيـا مصر » فرد عليهم ابناء جونبول « هيب هيب هورا » ، فهتف العفاريت « يا محنى ديل العصفورة والحربية هيه المنصورة » ، فأجاب الانجليز « جود سيف ذا كنج » أى « حفظ الله الملك » ، فقفز عفريت من مقعده صائحا « الفـاتحة يا جدعان » ، فانتفض الجدعان واقفين وراحوا يتلون الفاتحة فى خشـوع ، فاحترم ابنـاء جونبول ذلك الخشـوع وتوقفوا عن الهتاف . أما اللاعبون من العفاريت فكانوا يتبادلون عملية تسخين سيكولوجية على صورة « شد حيلك » و « اجمد يا اســد » و « أوعى تكون نسيت الحجاب » .

وقبل أن نتحدث عما جرى فى المباراة فانه يحسن بنـا ان نشير الى ظاهرة معينة كانت تتمركز فى القطاع الأيمن من مقاعد المتفرجين . فقد كان يحتل ذلك القطاع حشد كبير من الضباط والجنود الهنود .. وكان هؤلاء — فيما كان يبدو — متمسكين بصمت البراهمة ، وكان معظمهم منهمكا فى تدخين السجـائر بطريقة غريبة تتمثل فى احاطة السيجارة تماما براحة اليـد ثم شفط الانفاس من المزغل الموجود بين الابهام والسـبابة !!!! .

ونزل فريق الانجليز الى الملعب فراحت البيريهات الانجليزيةتتطاير

فى السماء ، وراحت الهتافات بكل لهجات الامبراطورية ترج الملعب رجا ، بينما راح القائد الثانى اياه يشير بعصاه القصيرة مشجعا وهو يجز على البايب . ونزل الحكم الى الملعب ثم توجه الى فريق العفاريت ، وكأى جنتلمان أصيل راح ينبه أحد العفاريت الى أنه يمسك بعصا الهوكى بالمقلوب !!! وبكل « لماضة » راح الاخير يحتج على ذلك التصحيح زاعما انه « دائما يلعب الهوكى كده » ، ثم عدل من وضع العصا وهو يقول للحكم « علشان خاطرك بس » .

وبدأت المباراة بضربه وجهها أحد العفاريت .. ليس الى الكرة وانما الى ركبة كابتن الفريق الانجليزى مباشرة . وفى صيحة داوية تهاوى الكابتن الى الأرض وهو يمسك بركبته ، التى تضخمت على الفور الى ثلاثة امثال حجمها . ومن مقاعد العفاريت دوت صيحات « تحيا مصر » « تسلم البطن اللى جابتك » . أما أبناء الامبراطورية فقد افزعتهم فرقعة عظام الكابتن ـ عندما كانت تلتقى بعصا الهوكى ـ فسكتوا عن الهتاف وراحوا ينظرون فى رهبة الى الكابتن وهو يخرج من الملعب متوكئا على ذراع أحد الجنود وقد علت وجهه صفرة بنرهيرية رهيبة .

وكان من العجيب أن الحكم لم يحتسب خطأ على فريق العفاريت بل صفر وصاح « كارى أون » .. يعنى « استمر » .

وجاءت الضربة العفاريتية الثانية فى الكرة فاندفع الفريقان وراءها ، ولحق بها انجليزى لا يقل طوله عن مترين فصوب عصاه نحوها . وقبل أن تصل العصا الى الكرة سبقتها عصا أخرى وقذفت بالكرة فى اتجاه مرمى الانجليز .. وكانت تلك العصا الأخرى قد جاءت وحدها ـ بغير لاعب ـ !! لأن احد العفاريت كان قد رأى ان يختصر الموقف فأرسل بالعصا على الأرض كما لو كان فى مباراة لقذف البلى . وبنفس الجنتلة صاح الحكم « كارى أون » . وهناك قرب مرمى الانجليز وقعت الكرة فى عصا عفريت ثالث فأودعها فى المرمى بكل بساطة . وحدث

ساعتها جنون فى مقاعد المتفرجين .. العفاريت يعانق بعضهم بعضا ويهتفون « ول يا ول » « ينصر دينك يا بو خليل » ، وابنــاء الامبراطورية يتفزعون ويتأوهون « أوه ... نو .. !! » ، والهنود يتخلون عن الحياة البراهماتى ويصيحون مشجعين « ايجبت .. ايجبت » ، والقائد الثانى يخلص أسنانه التى كانت قد انغرست فى خشب البايب . وزعق الحكم « كارى أون » ثم صفر فارتفعت عصا أحد العفاريت « هاى ستيك » ثم هوت لتلتقى هــذه المرة بالكرة ويقدم لاعب انجليزى من بعدها . وسقط الاخير وهو يسب بالانجليزية الفصحى . ثم خــرج من الملعب وهو يقفز على قدم واحدة وفى عينيه نظرة متعطشه للدماء . واحتسب الحكم ضربة جزاء على العفاريت ، ولكن حارس المرمى كان هو حامل الحجاب. وسواء كان السر هو فى الحظ أم فى محتويات الحجاب .. فان الكرة انطلقت من عصا اللاعب الانجليزى لتصطدم بعارضة المرمى وتعود الى قلب الملعب .

وبتفاصيل قريبة مما رويناه استمرت المبــاراة ، وانتهت بالتعادل ، مع سقوط معظم أفراد الفريق الانجليزى صرعى تحت وطأة العصى المصرية . ويذكر عفريت معين أنه راح يومها يعــانق واحدا من العفاريت ويتحفه بسيجارة « كرافن » على سـبيل التقدير للمهارة التى ابداها فى « ماتش الهوكى » فاذا بالعفريت ــ وكان صعيديا ظريفا ــ يتساءل فى سذاجة « هوكى ؟!! يا بوى !! دنا كنت فاكره ماتش تحطيب ! ! » .

معــارك المخـــدات ..

اذا كنت قريبا او صديقا لأحد العفاريت ـ ولا بد انك واحد منهما ـ واردت ان ترى ابتسامة الحنين كيف تكون ، فاسأله عن دوره فى « معركة المخدات » ، وكن على يقين من انه سوف يتحفك بمواقف وحـــكايات لا تقــل فى متعتهــا وطرافتها عن « انا وبابويا على نص اخويا » . وها هى عينة منها .

فمن التقاليد الثابتة فى الكليــة الحربيــة ان تخصص الليلة الختامية فى العام الدراسى « لمعركة المخدات » . وليس يرجع ذلك التخصيص الى قيادة معينة أو الى فترة معينة . فأيا كان قائد الكلية وأيا كان التاريخ ، وحتى فى عهود بعض القادة الجادين « زيادة عن اللزوم » والذين يصدرون الأوامر المشددة بمنع هذه المعركة ، فانها تنشب بكل مقدماتها وتفاصيلها ونتائجها ، كما لو كانت ظاهرة طبيعية لا يملك البشر ارادة معها . فهى آتية فى موعدها المرسوم ، بنفس الدقة التى تحافظ بها الشمس على موعد الشروق ، وبنفس الحتمية التى تتبخر بها مرتبات الموظفين فى اليوم السابق على يوم قبضها !!!

وقبل تلك الليلة بأسابيع تجرى الاستعدادات اللازمة للمعركة ، فترسم الخطط التكتيكية ويجرى حشد القوات وجمع المعلومات والتمهيد (بالحرب النفسية) لخلخلة اعصــاب العدو ، وابتكار

اساليب الخداع اللازمة لتحقيق المفاجأة . أما عن السلاح ، فانه من المتفق عليه تماما ان يكون منحصرا فى بند « المخدات » فقط .

وذات واحدة من تلك المعارك ــ فى الأربعينيات ــ رأى عفريت باشجاويش أن يودع عفاريت السرايا الأخرى «بالضربة القاضية»، فجاءت تلك الضربة القاضية فى ذقنه .. فعلا وليس مجازا . فقد استأجر « البورى » (النفير) من أحد البروجية ، ثم بعث بعفريت كان يجيد النفخ الى أرض الطابور . وهناك .. وفى تمام العاشرة مساء أطلق العفريت النافخ نوبة « الجمع » ، وكان من الطبيعى أن يبادر الطلبة بارتداء ملابسهم وان يتجمعوا فى أرض الطابور ، لأن نداءات النفير ــ كما يعرف الجميع ــ مقدسة . وكانت السرية الوحيدة التى لم تظهر هى سرية الباشجاويش . وما كادت صفوف السرايا الأخرى تنتظم فى أرض الطابور حتى راحت المخدات « طرز خدمة عمومية » تنهال بالعشرات من الممرات العليا . وكان العفريت الباشجاويش يتولى قيادة ذلك الهجوم ، كمثل « الفيلد مارشال » ــ حسب رأيه فى نفســـه ــ أو كمثـــل « الفيلد بوت » حسب رأى طالب ، كان الباشجاويش قد اصطاده وهو يقزقز اللب فى التمام ، فلهفه طابور زيادة بالخطوة السريعة فى عز الشمس .

وراح طلبة السرايا يجرون ويحتمون « بالجرات » من القذائف المتساقطة عليهم ، ولكن بعد أن أصيب معظمهم باصابات تتراوح بين « مخدة فى النافوخ » وبين « مخدة تحت الحزام » ، ولم يخل الأمر طبعا من اصابة مباشرة بمخدة مدرعة .. وهى اصابة غالبا ما كانت تنتهى بتمزيق المخدة على يد المصاب . وكانت واحدة من تلك المخدات المدرعة هى السبب فى « فقد » الفيلد مارشـــــال وفى تزيين ذقنه بثلاث من الغرز الفخمة ..

وقبل أن نروى تفاصيل ما حدث للفيلد مارشال نود أن نسجل هنا تصريحا ادلى به ــ فى أسى ــ للكاتب ، وقال فيــه « المصــيبة ماكانتشى فى الغرز ، انما كانت موقعها التكتيكى ... اخوك قعـــد

بعدها اسبوع موش قادر يتعامل مع صنف الوظاويظ الالافرانكه » .
ويقرر الكاتب ان اسى الفيلد مارشال كان له ما يبرره . فقد كان يجيد الغزل بكل اللغات الاوربية ، لدرجة انه كان شبه محتكر لوظووظات الدول الاسكندينافية وشبه جزيرة البلقان بالاضافة الى بنات السكسون والفرنجة ، وبذلك كان يضم أوربا من أطرافها .
وكان الذى حدث هو أن الفيلد مارشال كان قد وجه كل المخدات المدرعة (على شكل غلالة ساحقة) نحو مجموعة صغيرة ، كانت تحتشد فى الظلام الدامس فى الركن الشمالى الغربى من ارض الطابور .
وتماما كما كان — لسوء حظه — قد سمع عن نابليون وعن ميله الى تركيز النيران على المجموعات الصغيرة (لأنها تتكون فى العادة من الرتب القيادية) ، فانه ما كاد يلمح المجموعة حتى أمر بتركيز كل مخدات السرية عليها . ونزلت المخدات كالصواعق على المجموعة .
ومن تحت مخدة مدرعة ساحقة دوت صرخة تخلخلت لها ركب الباشجاويش وسريته . فقد كان الصوت الصارخ هو صوت « ضابط عظيم » . وكان ذلك الأخير هو عزرائيل الكلية . . . ليس من حيث امكانياته كضابط ، وانما من حيث انه كان على ندافته ملاكما شبه محترف . وقلما كان ذلك العزرائيل يلجأ الى لائحة الجزاءات فى التعامل مع الطلبة ، وانما هو كان يخير الطالب بين « حبس خميس وجمعة » وبين « الطلوع على الرنج » . وكان اختيار « الرنج »(١) حتما مقضيا ، لأنه ما من طالب يمكن أن يضع الفسحة الأسبوعية فى موضع المساومة ، اللهم الا طالب كان نصف عفريت وكان مقطوعا من شجرة وآتيا من قرية متطرفة من قرى الفيوم ، ولذا فانه استطاع أن يكون ثروة ضخمة .. فى نظير مبادلة العفاريت الآخرين على نوبتجيات « العنبر ، والحريق » ، وكانت خدماته من الرواج بحيث انه كان يضطر الى عقد المزادات عليها ، خصوصا فى موسم الربيع !!!! . القصد . . . صرخ « الضابط العظيم » صرخته

(١) هو حلقة الملاكمة والعياذ بالله ..

الفاجعة ، ثم صعد على السلالم وهو يقفز من بسطة الى بسطة حتى وصل الى حيث كان الفيلد مارشال يقف وقد اصفر منه الوجه وارتعشت منه الشرائط الاربعة . ولم يكن هناك اى مهرب من المواجهة التراجيدية بين الفيلد مارشال وعزرائيل .. فقد كانت سريته هي الوحيدة المتخلفة عن نوبة الجمع .. وكان هو باشجاويشها ثم أنه ـ وتلك كانت هي القاضية ـ كان يصدر أوامر الضرب باعلى صوته ، ويصيح معلنا عن اسمه .. على سبيل تسجيل انتصاره التاريخي فى معركة المخدات .

و « اتفضل على الرنج ياباتشاويش » و « وربنا العزيز ما كنت اعرف أن حضرتك هناك » و « قسما برب العزة ان ما طلعت لاحبسك .. أسبوع بحاله » . وكان الفيلد مارشال يعرف ان عزرائيل « قدها وقدود » وانه يحافظ بحياته على وعده ووعيده على حد سواء . ولذا فانه لم يتردد فى الاتجاه بخطوة عسكرية مستيئسة الى الرنج .

وحول الرنج تجمعت كل السرايا ، وراحت سرية الفيلد مارشال تهتف مشجعة له وتنعته بالاسد والسبع والنمر والوحش ، فى الوقت الذى كان هو يقف فيه منتظرا دقة الجونج بغير أن يبدو عليه شيء من ملامح اى وحش ... ولو كان من صنف الثعالب . أما السرايا الاخرى فانها راحت تشجع عزرائيل ، ليس على سبيل التأييد له ، وانما على سبيل التأكيد على شلفطة الفيلد مارشال . وكان بها ... فقد بدأ الماتش وانتهى بلكمة واحدة « أبركت » (١) طار بها المارشال عاليا ثم سقط وراح يزحف على الرنج ـ على حد تعليق الطالب الفيومى .. والفيوم مشهورة بتربية الفراخ ـ « زى الفرخة الدايخة » . ومن ذقنه التى كان قد أجاد تنعيمها انبثقت نافورة من الدماء الساخنة . فصرخ العفريت الفيومى .. « الحجونى بسكينة .. الباتشاويش بيفرفر ياولداه » ..

ثم كانت الفرز الثلاث بعد ذلك .. ختاما نموذجيا لمعركة من أطرف معارك المخدات .

---

(١) هى ضوبة قاطعة قلما يخرج منها الفك سليما ..

حرس سلاح ياويكا

فى احد عنابر الكلية الحربية كان عفريت طالب يربض فوق سريره وهو يغمغم ويتمتم بكلام كثير . ولو قد رآه واحد من المدنيين الطيبين لحسب أنه يرتل القرآن ترتيلا . أما فى الكلية فان كل من يشاهد مثل هذا المنظر يعرف انه يمثل حالة عادية من حالات الاصابة بمرض « الصف ضباطتزم » . وهو مرض يصيب ضحاياه من الطلبة بحالة اختلال عصبى ، يضطر معها المريض الى أن «يكلم نفسه» . ومصدر هذا المرض هو فيروس الكبرياء الذى يسيطر سيطرة تامة على الطلبة الصف ضباط . . فما يكاد الواحد منهم يمتلك شريطا أو أكثر ، حتى يتحول من طالب وديع الى جنكيز خان قولا وفعلا . وتلك سياسة مقصودة فى كل المعاهد العسكرية فى العالم . وبدونها يستحيل أن تنجح عملية تحويل الطالب المدنى المستجد الى رجل عسكرى يصلح لمواجهة اهوال القتال . وليس ذلك دفاعا بأى حال من الأحوال عن الصف ضباط ، فكم لقى عفريت معين من أهوال على ايديهم ، وكم أذاقهم هو بدوره جرعات مريرة من الاهوال (بالاستهبال فى بعض الأحيان ، وبالتظلم القانونى فى احيان أخرى ، وبالمقالب المحكمة فى أحيان اكثر) ، وانما هو بالاكثر تفسير وتصوير لأحوال تلك الطائفة الجنكيزخانية ، والتى لا تخلو بطبيعة الحال من

صف ضابط كريم الخصال والفعال ، مثل واحد (١) كان باشجاويشا للكلية ، وكان من الذين قال فيهم الشاعر .

هم القوم ان قالوا أصابو وان دعوا

اجابوا وان أعطوا اطابوا وأجزلوا .

ولما كانت طائفة الصف ضباط الطلبة تتشكل من شباب يتفجر بالطاقة من ناحية ، كما أنه يكون قد « طفح الكوته » على أيدى الصف ضباط السابقين من ناحية أخرى ، فان سبيل هذه الطائفة الى معاملة رعاياها من الطلبة يكون ــ على حد تعبير صف ضابط أديب ــ هو سبيل من يضطر الى « خوض الباطل سعيا وراء الحق » . ومن هنا تجيء سيول « الحبس » وأعاصير « الطوابير الزيادة » وفيضانات « العرض على المكاتب » . وقد يتواضع شاويش الفصيلة أو أمباشي الجماعة فيستبدل تلك الجزاءات المدمرة بـ « تنظيم الخطوة فوق الدولاب » أو « بدهان أحذية العنبر » .. (يقترب حذاء البيادة ، فى شكله وحجمه ، من شكل وحجم الدبابة السنتوريون) ، أو « بالداخلية » ، التى هى عبارة عن عملية سب مقذع ولكنه مغلف بمصطلحات عسكرية مثل بعكوك وطرى ومعدوم القيافة (وقد نسى واحد منهم نفسه فاستبدل مصطلح البعكوك بالمقابل العامى له ، فتلقى على الفور لكمة عفاريتية كادت أن تصيبه بالصمم) .

أما أقساهم قلبا فانه كان يدأب على التنكيد على رعاياه بصيحة « ثابت ميس » . وهى صيحة نسأل الله للقراء السلامة منها ، لأنها تعنى حرفيا « وقوف اللقمة فى الزور » . والطالب الذى يجرؤ على مضغ أو ابتلاع اللقمة ــ بعد صدور تلك الصيحة ــ يكون عوضه على الله فى فسحة الخميس والجمعة .

ولقد كان حكمدار عنبر عفريتنا المرتل ، من كبار الاخصائيين فى

---

(١) هو الآن نائب وزير بالحكم المحلى

فن الأذية ، وكان يدأب على متابعة رعاياه بكل أنواع البهـدلة . أما فيما يختص بعفريتنا نفسـه فانه كان الفريسـة المفضلة لذلك العفريت الحكمدار . لا لسـبب سـوى أن الحكمـدار كان لا يؤمن بالكتب ولا بالقراءة ولا يعشق سوى ضرب النار والطعن بالسونكى (مع ما تيسر من بنات حواء بالطبع) ، أما العفريت الطالب فكان مدمنا مزمنا للقراءة وكانت يده لا تخلو ابدا من كتاب لطه حسين أو العقاد أو توفيق الحكيم ، أو حتى الجاحظ وابن المقفع ومن لف لفهما .

وكم من كتاب كان يخترق سماء العنبر من النافذه وهو يشكو من ظلم الحكمدار خان لأخيه العفريت . وكم من تنظيم للخطوة ، كان العفريت يؤديه من فوق ظهر الدولاب .. عقابا على ضبطه متلبسا بمتابعة أخبار قضية قمر الدولة علوان (فى يوميات نائب فى الأرياف) ، وكم من داخلية صبها الحكمدار فوق رأسه بسبب اصراره على الأطلاع على رسالة سهل بن هارون فى البخل .. وهكذا

وبهذه المقدمة تكون قد أوضحنا سر الهيستريا الترتيلية التى كان يعيشها عفريتنا الطالب ، والتى بلغت ذروتها فى ذلك الصباح الأغبر ، الذى أجبره فيه الحكمدار خان على اعادة ترتيب السرير عدة مرات ثم امره بأن ينتظره « بالشدة السفرى » فى أرض الطابور ، وذلك على عزم أن يتحفه هناك بسبع لفات بالخطوة السريعة . وكان طه حسين هو السبب فى تلك المرة .

وبعد أن استمتع الحكمدار خان ببهدلة عدد آخر من العفاريت، نزل الى أرض الطابور وهو يفرك يديه ابتهاجا بما سوف يلهب به العفريت المرتل من عذاب الخطوة السريعة ، ولكنه لم يجده هناك، فعاد الى العنبر وهو يتميز غيظا ويقسم بأنه سوف يطحنه طحنا .

وفى العنبر فوجىء الحكمدار خان بزحام شديد . وكان الضابط النوبتجى على رأس ذلك الزحام . أما العفريت المرتل فكان ما يزال

متربعا على السرير ، وكانت يده اليمنى معلقة فوق كتفه بزاوية حادة وكانت أصابعه منحنية على عظمة الكتف .

وفي بلاغة سحبانية كان عفريت من الطلبة يشرح للضابط كيف أن يد العفريت المرتل قد تشنجت فجأة ثم ثبتت في ذلك الوضع الغريب . وتقدم الحكمدار خان وراح يحاول انقاذ ما يمكن انقاذه من اللفات السبع ، وذلك عن طريق تدليك يد العفريت المرتل ، ولكن اليد ظلت على تشنجها المتين ... فراح يقوم لها بعملية تنفس صناعي . فكان يفردها بكل قوته ، ولكنها كانت تعود الى وضع التشنج كما لو انها كانت مشدودة بياى غير منظور . ولم يكن هناك (بعد كل تلك المحاولات) بد مما ليس منه بد ، فاضطر الحكمدار الى تحرير « اورنيك عيادة » وهو يقرض على اسنانه ، غيظا من العفريت المتشنج الذراع ، واسفا على المتعة التي كانت تنتظره في أرض الطابور .

وفي المستشفى حقق العفريت نجاحا تاريخيا فقد استثارت حالته فضول الأطباء ، فأجمعوا على احتجازه في المستشفى ، وراحوا يتوافدون عليه لدراسة تلك الحالة النادرة . واقترح بعضهم المبادرة بارساله الى انجلترا لمعالجته بواسطة كبار الاخصائيين . ثم تطوع صاحب الاقتراح بأن يكون هو الطبيب المرافق ... من باب الانسانية فقط لا غير ...

وهكذا عاش العفريت اياما ممتعة في عنبر الطلبة . ولقد أعجب زملائه بلعبته المتفوقة ، فمنحوه لقب «قائد سلاح التمارض الملكى» . ثم راحوا يدافعون عن ذراعه المتشنجة ، وذلك بترتيب نقط حراسة وداوريات استكشاف ونقط ملاحظة ونقط تسمع . وبذلك كان العفريت يأكل ويشرب ويلعب الطاولة بكلتى يديه وهو آمن تماما . ثم ما تكاد تدوى صفارة فمية معينة مصحوبة بصيحة « حرس سلاح يا ويكا » حتى يتشقلب في اتجاه سريره ثم يستقر هناك بيده

المتشنجة وبملامحه الشديدة الشبه بملامح القديسين . ولقد حدث ذات يوم أن دخل العنبر فريق من الأطباء بغرض دراسة حالته فأحاط بهم كل طلبة العنبر فى مظاهرة ترحيب و « ملاغاة » ، ثم راحوا يحولون بينهم وبين الوصول الى سرير العفريت ، بينما بادر واحد منهم بمناولته كوعا كاد أن يحطم أضلاعه ... وكان السبب هو ان العفريت كان قد نسى ودخل فى التشنج بيده اليسرى بدلا من اليمنى .

وجاء يوم ، كان العفريت فيه فى قمة السعادة ، لأن الطبيب النوبتجى ابلغه أنه قد تقرر احتجازه بالمستشفى لأجل غير محدود ، حتى يتم تشخيص حالته العجيبة . واحتفالا بهذا الخبر السعيد وزع العفريت كل رصيده من هدايا الملبن والبونبون على زملائه ، ثم راح يرسم الخطط للمذاكرة ليل نهار ، لا لغرض سوى أن يحصل على أكبر عدد ممكن من الشرائط ، وبذلك تتاح له فرصة التكبر والتغطرس على دفعة المستجدين التالية .

ولما كانت الأعمال بالنيات « ولكل امرىء ما نوى » فان القدر لم يبطىء فى مكافأته بما يستحق .

فقد دوت صيحة « ... يا ويكا » فى نفس اللحظة التى كان يمسك فيها بقطعة من الشيكولاتة ، فبادر بتشنيج يده اليمنى فتشنجت معها قطعة الشيكولاتة بالتبعية ، فأسرع زميل منقذ وانتزع الشيكولاتة ثم راح يزدردها فى هدوء .

وعلى باب العنبر ظهر موكب مهول ، كان على راسه قائد الكلية ومدير المستشفى فدوت من أقدم الطلبة صحية « انتباه » . ولكن قائد الكلية بادره « متشكر يا ابنى .. اشتغل .. ما فيش انتباه فى المستشفى » . ثم راح الرجل الطيب يمر على أبنائه واحدا بعد الآخر . وفى حب وولاء راح العفاريت يتقبلون عطفه الابوى . كما نزل كل قادر منهم على الوقوف من فراشه وراح يرد على تحية

القائد بالتحية العسكرية المناسبة .. فمن كان منهم يرتدى طاقية أو « فاروقية » فانه كان يؤدى التعظيم القانونى ، ومن كان منهم عارى الراس فانه كان يضم قدميه الى بعضهما فى خبطة داوية .

وكان عفريتنا اياه قد رأى أن يكسب عطف القائد فوقف بجوار سريره وقفة الانتباه . ومن فوق راسه كانت الفاروقية تميل بزاوية خطيرة . ولكى يعدل من زاويتها الحادة فانه اضطر الى الميل بجسمه للجهة المضادة فصار اشبه ببرج بيزا المائل ، وصـار منظره يدعو للعطف والاشفاق حقا .

ودخل القائد عليه وهو فى دهشة من قوامه البيزاوى ومن يده المتشنجة وقال له « سلامتك يا ابنى » . فشد العفريت من قلمته ورد بتواضع القديسيين « الله يسلمك يا فندم » . والتفت القائد الى مـدير المستشفى مستفسرا، فـراح هذا يدخل به فى متـاهة « الابيلبس والكاتالبس والسيكوزس والنيوروسس » . وهز القائد الكريم راسه ثم حيا العفريت وراح يستدير نحو السرير التالى .

وبكل بساطة ضرب العفريت قدمه فى الأرض ثم هبط بيده اليمنى الى جنبه ثم ارتفع بها فى دورة كاملة حتى استقرت على جبينه بتعظيم لا يحلم اى قائد بالحصول على ما هو أفضل منه .
وساد العنبر ساعتها سكون رهيب ، وهتف القائد « الله الله !! . أهو ده الكاتالبس واللا بلاش » ؛ وصرخ قائد المستشفى فى جزع « مالنجرر » (١) .

وفى اقل من نصف ساعة كان عفريت بيزا مستقرا فى زنزانة مثلجة بالكلية . وبعد اسبوع خرج منها الى أرض الطابور حيث كان الحكمدار خان ينتظره وقد انتفخت منه الأوداج وبرزت من فمه الأنياب .. فكأن الشاعر قد رآه حين قال :

---

(١) متمارض .

تقلصت شــفتاه من حفيظته فخيل من شدة التعبيس منتسما

ولمدة خمسة عشر يوما ظل عفريت بيزا يزرع أرض الطابور بالخطوة السريعة وهو يمسك بالندقية ويحمل على ظهره الجربندية وعلى جنبه الزمزمية . وفى نهاية تلك المدة كان قد أصبح جلدا على عظم .

ولما كان بعض السم ترياق لبعض . فان البند الثالث من عقوبة التمارض قد افاد عفريتنا من حيث لا يحتسب . فقد ظل محروما بمقتضى ذلك البند من العطلة الاسبوعية لمدة شهر كامل ، وبذلك حصل على الفوائد الثلاثة « أكل ومرعى وقلة صنعة » واستطاع أن يستعيد قدرا طيبا من وزنه الثمين .

أما العفريت الحكمدار خان فقد استمتع فى نفس ذلك الشهر بالرقاد فى عنبر الطلبة بالمستشفى ، بينما كان الجبس يحيط بساقه اليسرى . وكان ذلك لأن الحياة دبت فجأة فى احد الدواليب فمال ثم وقع على قصبة ساق الحــــكمدار خان فقسمها الى نصفين متساويين ..

وكان من غرائب الصدف ان نور العنبر كان قد انطفأ فى نفس اللحظة التى هجم فيها الدولاب على الحكمدار .. تماما كما يحدث فى ليلة راس السنة . فهل كان الدولاب يقصد أن يعبر عن عميــق حبه للحكمدار ؟؟ .. أم أنه كان يريد أن يتشبه ببرج بيزا ؟ ؟ ، أم أن وردا معينا ــ مما كان يقرأه العفريت الطالب ــ كان هو الذى دفع بالدولاب فى اتجاه ساق الحكمدار ، أم أن يد العفريت قد تشنجت فجأة وهو يمر من خلف الدولاب ؟ . تلك كلها أسئلة نحسب أن الرد عليها غير مأمون العواقب لأن كلا من العفريت والحكمدار ما يزال حيا يرزق ...

مناورات الكأس ..

فى الأربيعينيات كانت « كأس الملك » هى مدار احلام كليات الجامعة وكليتى الحربية والبوليس . وفى سبيل الحصول على تلك الكأس كانت تدور مباريات رهيبة فى الملاعب وخارجهـا ، وكان الاستعداد الرياضى لتلك المباريات يفوق كل خيال ، أما المناورات التى كانت تسبق وتصاحب المباريات فان بعضها كان أغرب من الخيـال .

ولقد انجبت الروح الرياضية ــ فى تلك الفترة ــ عددا من الأبطال الذين رفعوا رأس مصر عاليا ، خصوصا فى ميادين كرة القدم وكرة السلة والجمباز والسباحة . وكان الفوز بكأس الملك هو اكبر حوافز تلك الروح . وليس يرى الكاتب أى فائدة فى التهـوين من تلك الحقيقة أو انكارها . فقد كانت الكأس هى كأس مصر ، وكان الملك رمزا لمصر ، وكانت نسبة اى نشاط اليه توفر لهذا النشاط كل امكانياته .

أما عن المناورات فان أصـحاب القدح المعلى فيها كانوا هم الاداريين . وبقدر ما كان هنـاك الكثيرون منهم ، ممن يقـدرون المسئولية ويحافظون على القيم الرياضية ، بقدر ما كان فيهم من

يرى أن « الغاية تبرر الواسطة » ، وأن « الضحكة الكبرى لمن يضحك أخيرا » . وكانت بعض مناورات هؤلاء الغائيين تضحك الثكالى ، وبعضها « يضرب ويلاقى » ، وبعضها كان لا يقنع بأقل من حز الأعناق والولوغ فى الدم المهراق .

وحول أفاعيل ذلك البعض الدراكيولى سوف ندير الحديث . ونبدأ أولا بالدم المهراق .

ففى صالة الألعاب بالكلية الحربية كانت تدور مباريات التصفية النهائية للملاكمة . ولقد استطاع فريق الحربية وفريق البوليس أن يسحقا بكل سهولة فرق الملاكمة الجامعية . وكان الفضل فى ذلك يرجع الى طبيعة الحياة العسكرية أولا ، والى العدس ثانيا ، والى اللهفة على الكأس ثالثا .

وبين هذين الفريقين الكاكيين كانت تدور مباريات دموية رهيبة. وكان اللاعب الذى يخرج من تلك المباريات بوجه غير ملطخ بالدماء يعد سوبرمانا أو من أولياء الله .

وذات عام وقع قادة وضباط الكليتين فى مأزق رهيب . فقد كان مستوى اللاعبين فى معظم الأوزان متقاربا بحيث لم تعد الاستماتة فى التدريب ولا مضاعفة كميات « العدس والفراخ والجلوكوز » بقادرة على تأمين الفوز . ومن هنا فقد اضطر الجميع الى الدخول فى المناورات من أوسع أبوابها .

وبدأت كلية البوليس ، فأطلقت اشاعة تقول بأن العفريت لاعب الوزن المتوسط فيها (وكانت قبضته أصلب من الفولاذ) أصيب بمرض ألزمه الفراش . ولتأكيد تلك الاشاعة دخل ذلك اللاعب المستشفى ، حيث كان ينام نوم العوافى بالنهار ويهلهل أكياس الرمل - تدريبا - طوال الليل . ولقد سارع العفريت الصاغ (المشرف على فريق الملاكمة بالكلية الحربية) بالتنكر على صورة أفندى محترم

ـ بيده منشة ـ ثم تسلل الى المستشفى لكى يتأكد من مرض ذلك اللاعب . وكانت فرحته جنونية ، عندما رآه وهو يتأوه ويتوجع فى الفراش ويقول « بطنى .. بطنى » . ولم يكن اللاعب يمثل وقتها وانما كان مدربه قد أصابه ـ فى الليلة السابقة ـ بضربة صاعقة تحت الحزام .

وعاد العفريت الصاغ وهو يتنفس الصعداء . فقد كان قد ودع امله فى الوزن المتوسط منذ طار لاعبه الوحيـد منقولا الى الكلية البحرية . ومع انه كان قد نجح فى استعارة ذلك اللاعب من الكلية البحرية ، الا أن مباحث البوليس كانت بالمرصاد . وعلى اثر تهديد من قائد كلية البوليس بأن يبلغ ذلك التزييف الى « حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخليـة » عاد اللاعب الى الكلية البحرية ، وبقى مكانه فى الفريق شاغرا . وبذلك كان الموقف من وجهة نظر الكلية الحربية هو أن محل وزن المتوسط قد أصبح شاغرا فى الفريقين ، أما كلية البوليس فكانت مناورتها تهدف الى تخدير الحربية حتى لا تدبر لنفسها لاعبا من ابطال الوزن المتوسط . ولم يكن تدبير مثل ذلك اللاعب بالأمر المستحيل ، فقد كان من الممكن اغراء أى لاعب ، بقبوله طالبا بالكلية ولو بطريق الاستثناء .

وقد لا يعرف الكثيرون أن الجيش قد كسب لنفسه عددا من أبطال الرياضة عن طريق تعيينهم ضـباطا احتياطيين او مكلفين ، ومنهم الكابتن محمـد لطيف الذى تعين ملازما وترقى حتى رتبـة العقيد ، والكابتن عبد الباقى حسنين الذى ترقى الى رتبة المقدم ، وغيرهما كثيرون ممن تدين لهم الرياضة بأفضال كبيرة .

وفى ليلة المباراة فوجىء العفريت الصاغ بالحقيقة الرهيبة ، حين رأى أمامه العفريت البوليسى (بطل الوزن المتوسط) وهو يرقص عضلات ذراعيه ويقول « هل من مناجز ؟ » . وكان معنى ظهور الاخير هو ضياع نقط وزن المتوسط على الحربية ، باعتبارها

منسحبة من ذلك الوزن . وللتو جرى العفريت الصاغ بين طلبة الحربية وراح يشد من بينهم كل من يصلح لوزن المتوسط . وبعد أن جمع أكثر من عشرين طالب ، راح يسأل عمن يجيد الملاكمة ، فكانت الاجابات بالسلب ، وان كان واحد منهم قد أكد أنه يجيد الضرب بسيف اليد وشك المقصات والخبط بالروسية وتحطيم الفوانيس !!

واختار الصاغ واحدا منهم ، كان متين البنيان ، ووعده بشريطين كاملين ان هو قبل ملاقاة العفريت لاعب البوليس على الحلقة . ثم وعده بشريط ثالث ان هو استطاع أن يصمد للضرب الفولاذى المنتظر ، فيخرج بهزيمة مشرفة .. هزيمة بالنقطوليس بالضربة القاضية . لأن الكلية كانت تخسر نقطة واحدة فى الحالة الأولى ونقطتين فى الحالة الثانية . كما انه وعده بأنه اذا استطاع أن يحقق المستحيل وينتصر فانه سيحصل له على رتبة باشجاويش مرة واحدة ، وكان ذلك عشما شبيها بعشم ابليس فى الجنة ..

ودارت المباريات وراح عفاريت الكليتين يتبادلون أعنف اللكمات ، بينما كانت حشود زملائهم تطلق الهتافات وتصفق وتدق بالأقدام بشكل جهنمى . وكانت هتافات كل كلية ترتبط بتخصصاتها فكانت صيحة عفاريت الحربية « بووم آ آ حربية » ، وكانت هتافاتهم التشجيعية « اديله غلالة » و « خلى وشه خنادق » و « يا واد يا طوبجى » . وقد نسى الكاتب صيحة عفاريت البوليس أما هتافاتهم فكانت « وريله مركزه » و « أجدع حكمدار » و « حلاوتك يا شرلوك هولمز » و « ما تسيبوش الا فى التخشيبة » و « حديد يا حضرة المعاون » . وكسبت الحربية عددا من الأوزان وكسب البوليس عددا مماثلا . وبدا الفوز بعيدا وقريبا من الفريقين فى آن واحد .

وجاء دور الوزن المتوسط فصعد عفريت البوليس الفولاذى واستقبلته هتافات جنونية من زملائه . فقد كانوا متأكدين من

أنه سوف يقضي على غريمه قضاءا مبرما . أما عفاريت الحربية فقد راحوا يشحنون لاعبهم بالمتفجرات « يا بطل الأبطـــال » و « گر . ف وحياة النبي » و « بيته فى الاسبتالية » و « يعيش الباتشاويش .. » .

ودق الجونج وانطلق عفريت البوليس وراح ينـــاول غريمه اللكمات المتداركة كانه مدفع ماكينة . أما الأخير فانه راح يشوح بيديه ويركز همه فى الدفاع عن انفه ضد الكسر ، وكان يصيح بين الفينة والفينة « مناخيرى يا جدع انت .. ابعد عن منـــاخيرى لحسن ما يحصلكش طيب » . ولكن عفريت البوليس لم يبال بذلك التحذير ، بل انه تبين منه نقطة ضعف فى عفريت الحربية ، فلم يتوان عن متابعة التنشين على الأنف المذكور .

وجاءت احدى الضربات على ارنبة الانف فجن صاحبه غضبا واطلق يمينا انتقامية فى وجه غريمه . وكادت تلك اليمين أن تقضى على مستقبل الأخير فى عالم العسس ، لأنها أصابت عينه اصـــابة مباشرة ، ولولا أن « العين عليها حارس » لكانت تلك العين قد تحولت الى سائل هلامى ، ولحلت مكانها عين زجاجية مفتخرة .

وجن عفريت البوليس بدوره وراح ينهال باللكمات على غريمه . ولكن الأخير استمسك بعروة الشرائط الوثقى وصمد للمطارق التى كانت تنهال على جسده .

ومع ان عفريت البوليس تلقى (فيما بين الجولات) أكثر من وعد بالترقية ان هو اجهز على غريمه بالضربة القاضية ، فانه لم يتمكن من الفوز الا بالنقط . وفاز عفريت الحربيـــة بالشرائط الثلاث . وظل شهورا بعدها وهو يتحسس أنفه العزيز .

وفى وزن خفيف الثقيل انهزم عفريت البوليس وبذلك صارت النتيجة النهائية معلقة على مباراة وزن الثقيل .

وكانت كفة لاعب الحربية مرجوحة فى هذه المباراة . ويرجع ذلك الى ان لاعب البوليس كان استاذا فى الحرب النفسية بالاضافة الى براعته فى الملاكمة . فقد كان يطلق فى خلال ملاكماته زارات رهيبة ، وكان يداب على الهجوم باستمرار ، كما أنه كان يتميز بانف كاوتشوكى كان يمتص اللكمات كما لو كان منفوخا بالهواء . وفى مباراة السنة السابقة كان هذا العفريت قد فاز على نفس غريمه بالنقط .

ولجأ الصاغ عندئذ الى مناورة نسف بها عفريت البوليس نسفا . فقد كان قد توجه منذ العصر الى مصر الجديدة، وعاد منها بصيد ثمين . وكان ذلك الصيد من الخطورة والاهمية بحيث أودعه الصاغ فى ميس الضباط واقام من حوله حراسه مشددة .

وعندما صعد عفريتا الوزن الثقيل الى الحلقة ، راح عفريت البوليس يطلق زاراته المعتادة ويخبط على صدره كطرزان . أما عفريت الحربية فقد راح يرد ـ فى تثاقل ـ على تحيات وتشجيعات زملائه . وفجأة انقطعت هتافات الجانبين وانفتحت الافواه فى دهشة بالغة . فقد ظهرت فى الصالة (التى لم يسبق لها ان ضمت غير الذين كتب الحرب والقتال عليهم) آنسة من اللواتى يجدن جر الذيول . وكانت هى الصيد الثمين .. ، وكان اسمها هو فوزية ، وكانت هى « جارة الوادى » لعفريت الحربية .

وبظهور جولييت التهبت الدماء فى عروق روميو . فلم ينتظر دقة الجونج وانما هجم على عفريت البوليس بغرض افتراسه . ولكن الحكم وقف فى طريقه فعاد الى ركنه وهو يصيح « انا حاشرب من دمه » . وزلزلت المفاجأة والصيحة أعصاب عفريت البوليس فلم يلب نداء الجونج بالهجوم كعادته . أما روميو فانه هجم عليه كالوحش المفترس وهوى عليه بكلتى يديه فى شراسة .

ومع ان عفريت البوليس قد قاوم مقاومة الأبطال فان مصيره

كان قد تقرر منذ ظهرت جوليت فى الميدان . ولقد حاول زميل له من عفاريت طلبة البوليس أن يلعب بأعصاب روميو . فراح يهتف « بووم آ آ فورية » .. ففك عفاريت الحربية قوايتسهم ، وكذلك فعل عفاريت البوليس وكاد الطرفان ان يدخلا فى حرب اهليــة ، لولا ان بادر عفريت شهم من ضباط البوليس فلكم الهاتف فى ذقنه والزمه الصمت .

وانتهت المباراة بفوز الحربية ببطولة الملاكمة (١) . وبقى عليها ان تفوز فى كرة القدم والتجذيف ، لكى تحصل على كأس الملك .

وكانت غريمة الحربية فى هاتين اللعبتين هى كلية الزراعة . ومع ان الزراعة بطبيعتها مهنة ســلمية بحتة فان الكاتب يؤكد ان طلبه كليهما كانوا من أشرس وأبرع المقاتلين . ولقد استطاع هؤلاء الزراعيون أن يشيبوا فرق الحربية والبوليس فى كل الالعاب وان يفوزوا بعدد طيب من بطولاتها . كما أنهم كانوا أيضا من أســاتذة المناورات والمقالب . فعندما أرادوا أن يصلوا الى الدور النهائى فى كرة السلة ، لم يتورعوا عن شك الحربية مقلبا اخرجها من ذلك الدور . فقد اتصل خلبوص منهم بالكلية الحربية قبل موعد المباراة بساعتين وزعم انه رئيس الاتحاد وقال انه قد تقرر تأجيل المباراة لبعد الغد . وبكل بساطة ألغى اركان حرب الكلية تحرك الفريق . وفى موعد المبـــاراة دخل فريق الزراعة الى الملعب وتربع أفراده وراحوا يقزقزون اللب . واعلن الحكام عن تخلف فريق الحربية واعتبروه منسحبا ، وطار الدور منه .

ولكن عدالة السماء كانت للزراعة بالمرصاد . فقد هزم فريقها فى كرة السلة هزيمة شنعاء على يد فريق البوليس (وكان فيه أبو عوف ومنتصر) .

---

(١) ظل العفريتان الملاكمان يتبادلان البطولة لعدة سنوات وهما الآن من خير الاصدقاء .

وفى يوم مبـــاراة كرة القدم بين فريقى الحربية والزراعة ، احتشد طلبة الزراعة فى استاد الجامعه ، بعد ان جندوا لصالحهم آلافا من طلبة وطالبات الجامعة . اما طلبة الحربية فكان عددهم حوالى ٥٠٠ فقط . وبذلك كانت كفة المشجعين الحربيين مرجوحة تماما . ولكن التشجيع فى تلك المباراة لم يكن بالعنصر الفاصل ، لان فريق الحربية كان فريقا رهيبا وكان يكتسح الملاعب دائما . ولقد كان هذا الفريق يفترس فرق الواندررز الانجليزية باهداف لا تقل عن عشرة لواحد فى المباراة الواحدة ، وكان من بين افراده حسين مدكور وعلى زيور ويحيى القاضى وحمدى كروان .

ولهذه الاسباب فان فريق الحربية سجل هدفا فى الدقيقة الاولى وهدفا فى الدقيقة الخامسة وهدفا فى الدقيقة السابعة .

وجن جنون طلبة الزراعة فجمعوا « بنات الجامعات » واوحوا اليهن بأن يهتفن ضد فريق الحربية بهتافات نسائية تخريبية مثل « اتنيلوا على عينكم » و « يا ســـم كده (١) » . وآتت تلك الهتافات ثمارها فتباطأت اقدام فريق الحربية وكثرت منه الفاولات والأرف سايدات .

واسرع العفريت المشرف على فريق الحربية بطلب النجدة .. وجاءت النجدة بعد بداية الشوط الثانى بدقائق . وكانت عبارة عن أكثر من خمسين « ترومبيته » (طبلة) بضاربيها . وراح دوى الطبل يغمر الملعب من اقصاه الى اقصاه . وضاعت هتافات البنات الجامعيات والبنين الزراعيين تماما بين ضجيج الطبول . واستأنف فريق الحربية هجماته الضارية وسحق فريق الزراعة تماما .

---

(١) كانت بنـات كليـة الزراعـة يضـعن أصـابعهن فى أفواههن ويطلقـن صفافيرا رهيبة ..

وبقيت مباراة التجذيف وكانت أيضـا بين فريقى الحربيـة والزراعة . وكانت قوتهما متعادلة .

ولجأ العفريت المشرف على فريق التجذيف الى القوة البحتة فرشم شاطىء النيل (بين كوبرى عباس والجزيرة) رشما بقوات الجيش ، بحيث استحال على طلبة الزراعة أن ينفذوا الى الشاطىء وبذلك كسب قارب الحربية التشجيع كله وفاز بمتر واحد على فريق الزراعة .

وحل كأس الملك عامئذ على الكلية ضيفا مكرما ، حتى لهفتـه كلية البوليس فى العام التالى . وفى ذلك برهان أكيد على أن الأرض كروية .



دقي يا مزيكا

اذا لم يكن القارىء قد راى بدلة الميس فانه يكون قد فاته حظ عظيم . وما ذاك الا لأن هذه البدلة تزدهر بكل ما هو باهر وبهيج من الجبردين الكحلى والشرائط الحمراء ، والاسبلايطات (علامات الكتف) الذهبية ، والنياشين الفخمة بأشرطتها المتعـددة الالوان والمنسوجة بخيوط القصب والحرير ، والأزرار المكسوة بمسحوق المـاس (اى والله العظيم .. الماس) . أما النجوم فانها تكون فى اغلب الاحيان من الذهب الخالص ، وفى أحيان أخرى من الذهب القشرة .. وتلك هى اضعف النجوم !!. يضاف الى ذلك كله حزام عريض من نسيج القصب المتين، يتدلى منه سيف أخلصته صياقله.

هذا من حيث الشكل ، أما من حيث الموضوع ، فان حشو بدلة الميس هذه يتألف ـ فى الغالبية المطلقة ـ من مجموعة من العضلات المفتولة ومن الدماء الحارة الشابة التى تجرى وتتلألأ فى وجه وسيم وقوام ممشوق .

ولا فضل لأحد على العفريت الذى يزهو بتلك البدلة . فهى لازمة من لوازم الحفلات والتشريفات فى كل الجيوش . كما انها حق للضباط ، لا ينازعهم فيه أحد ولا ينكره عليهم احد ، لأنهم انما اكتسبوه بحكم مهنتهم المليئة بالأخطار والتضحيات .
ولا يحسبن أحد ان هذه البدلة المفتخرة قد اصبحت من ذكريات الماضى ، فانها ما تزال باقية ، وما يزال بعض العفاريت يرتدونها فى التشريفات والحفلات والأفراح ونقول بعضهم فقط ، لأن تكاليفها قد بلغت أرقاما فلكية . اما فى الماضى فقد كان ثمنها يصل الى ثمانين جنيه . وهو مبلغ لم يكن من العسير على العفاريت أن يعتصروه من جيوب الآباء ، مستغلين رغبة الأمهات فى أن يريهم فى ذلك الزى الفخيم .

ونتنقل من التعميم الى التخصيص . فنتحدث عن عفريت يوزباشى ، كان من اكفا واشجع العفاريت من ناحية . كما انه كان استاذا فى فن استثمار بدلة الميس من ناحية اخرى . فما من حفلة كانت تفلت من ظهوره فيها ،ومن استيلائه على زهرة الحفلة، سواء كانت من الصنف الأوروباوى ، او كانت من بدائع الهايلايف، فان لم يجد زهرة من احد الصنفين فإنه كان يتيمم بما تيسر من بنات الطليان او الجريج .

ولو انه استمر فى ممارسة ذلك النوع من الاستثمار ، لكان من المحتمل أن يمضى فى الطريق الى آخره وأن يصبح عازبا مزمنا ، وأن يصل الى كهولة لا يجد فيها من يؤنسه سوى بدلة الميس .. ولكن الله سلم . فقد أوقعته العفرته فى تجربة ، خرج منها وهو يلعن البدلة ومغامراتها ويهتف بحياة الزواج والاستقرار . ومن عجب انه لم يكن لتلك التجربة أى صلة بغرام العفريت ببنات حواء ، وانما كانت وثيقة الصلة بغرامه بارتداء بدلة الميس بصفة حتمية فى كل ليلة .. ولذا فانه حين افتقر ذات ليلة الى حفلة ، يزهو فيها بالبدلة ، ويحقق بعض الأرباح العاطفية ، لم يتردد فى

تلفيق موقف كاد ان ينتهي به الى المثول امام مجلس عسكرى عالى .

وكان ذلك حينما كانت القاهرة تموج بالزينات ، احتفالا بمجىء الأمير ولى عهد ايران (الشاه الحالى) الى القاهرة ليعقد زواجه على شقيقة الملك السابق . والى هنا ينتهى دور الأمير ليبدأ دور العفريت ، الذى كان على شبه كبير بالأمير .

ففى ذات ليلة فوجىء وهو يرتدى بدله الميس — كما تعود أن يفعل بشكل تلقائى — بانه لا توجد حفلة يذهب اليها . ولذا فانه جلس — بعد أن كان قد أصبح على « سنجة عشرة » — فى سخط ، وراح يفكر فى « أين يذهب هذا المساء » . وساعتها دخل عليه اربعة من أصدقائه العفاريت ودعوه لكى يصحبهم الى السينما ، فعز عليه أن يخلع بدلة الميس ، فرفض اقتراحهم ، وراح يسألهم « ما فيش حد منكم عنده حفلة ؟ . أى حفلة !! » . فهرشوا رؤوسهم . ثم قال أحدهم — مترددا — « فيه حفلة سمعت عنها ولكن مش قد المقام » . فهتف العفريت فى نهفة « لايمنى عليها . انشا الله تكون حفلة شاى حتى » .

فأجابه « مافيهاش شاى انما فيها عشا معتبر » . فنهض العفريت فى فرح وهو يصيح « طيب مستنى ايه ؟.. يالله بينا » ، فأجابه « دى فرح .. فى حى بلدى » . وكأنما أصيب العفريت عند هذا البيان بدوش بارد .. ولذا فانه عاد الى مقعده وهو يشير الى بدلة الميس ويقول لصاحبه « خيبة الله عليك .. فرح بلدى ! ببدلة الميس !! انت عايزنى ابقى فرجه » ؟. وفجأة ، وقبل أن ينتظر الرد قفز من مقعده وهو يصيح « وجدتها ... وجدتها ... نروح الفرح » . وبدأت المغامرة ..

فقد فوجىء صاحب الفرح ، وكان معلما مبروم الشوارب ، له قرايب وبيت فى عطفة الكوانين ، وله تداخل مع العالم شمال

ويمين ، وحاجة عقبال املتك انت والسامعين » بفرقة موسيقى حسب الله ــ التى كانت تحيى مدعويه ــ وهى تعزف السلام الملكى بحماس فائق ، فجرى الى باب البيت ليستقبل القادمين ، واذا به يفاجأ بالعفاريت الأربعة وهم يتلألأون فى بدل الميس ، وفى وسطهم كان عفريتنا اليوزباشى يمشى فى وقار العظماء وأبهة الامراء . وتقدم المعلم نحوهم وهو يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، فبادره احد العفاريت بهمسة متعاظمة « حضرة صاحب السمو الامبراطورى البرنس ولى عهد ايران » . وكاد المعلم أن يقع من طوله لهول المفاجأة ، ولكنه ــ كأى معلم أصيل ــ لم يتردد فى ترجمة الموقف لصالحه فصاح بحسب الله « دقى يا مزيكه » ، فدقت المزيكة ، فعاد يصيح بحسب الله « سلام مربع لأفندينا » ، فربع حسب الله السلام ــ ومن المحتمل أنه كعبه أيضا ــ ثم تقدم المعلم من البرنس وضرب له تعظيم سلام وهو يصيح « داحنا زارنا النبى » . فرد البرنس « عفارم عفارم » . وعندئذ همس عفريت ثان فى اذن البرنس « عفارم دى تركى » . فسأله البرنس هامسا « طيب قوللى أى كلمة فارسى » ، فأجابه « ما كانش ينعز » ، فاهتز البرنس وقال « الحقنى بأى كلمة قبل ما ننكشف » فأجابه محتدا « ما هى شورتك المهببة » . وعندئذ لحقهما عفريت ثالث فقال وهو يشير باصبعه محذرا « عفارم تمشى .. هوا المعلم عارف التركى من الفارسى يعنى ؟ » . فاطمأن البرنس وعاد الى وقاره وقال للمعلم « صغدون » فأجابه المعلم « ليلتنا مباركة باذن الله يا افندينا » ثم تقدم الموكب وهو يصيح بمدعويه المذهولين « فسح يا جدع انت وهو لأفندينا البرنس بتاع العجم » . ومن النوافذ كانت المدعوات يطللن وقد الجمتهن الدهشة واستولى عليهن الانبهار .

ولم تك أم العروسة اقل من زوجها المعلم اهتبالا للفرصة ، ولذا فانها اطلقت زغرودة داوية ، فراحت المدعوات يرددن عليها

زغرودتها بزغاريد ملعلعة وفى ثوان كانت كل نوافذ وشرفات الحارة تضج بالزغاريد ، بينما راح حسب الله ومزيكته يوقعان أهول ما عندهم من « أفراح القبة » و « كادنى الهوى » و « مارش الجيش » و « مارش البوليس » . ومن خلف العفاريت سار اثنان حسبيان من عازفى القرب وهما ينفخان . وظل الحال كذلك حتى وصل الموكب الى حجرة « المسافرين » وهناك استقر العفاريت الخمسة وهم يتأرجحون بين الوقار الناطق وبين الضحك المكتوم . وكان الجو حارا والحجرة خانقة ولذا فان البرنس لم يلبث أن هتف بالمعلم « عندكشى حاجة ساقعة ؟ » ، فصاح المعلم فى ابتهاج « حفظتك بالسميع العليم دا انت بتعرف عربى كمان » . ففزع العفاريت من تلك الغلطة . ولكن البرنس غمز لهم بعينه وهو يقول « اثبت .. خرسيس نرسيس » . وجرى المعلم فجاء بالشربات فتجرعه البرنس فى ارتياح وهو يكرر « عفارم عفارم » . ثم خطرت على بال أحد العفاريت فكرة جهنمية ، فهمس فى اذن المعلم « مش برضه يصح ان البرنس يبارك للعريس والعروسة » وللتو نهض المعلم ثم عاد بعد قليل بالعريس والعروسة ومن خلفهما كانت تفرقع الزغاريد وبتصايح الأطفال بينما كان المعلمون والصبوات ينشدون « السيد البدوى وباب المصطفى بحر الفتوة والمكارم والعطا » . وفى حياء وتردد تقدم العروسان من البرنس فوقف هذا وسل سيفه فصاح القوم فى ذعر ، ولكنه أدى بالسيف حركة « سلام سيف » وكذلك فعل باقى العفاريت ، ثم أعادوا السيوف الى اغمادها فى دوى وصليل . وبيده ، صافح البرنس العروسين مهنئا ومغمغما « بايرام مبارك عفارم .. فرحات .. بركات .. شربات .. عقبال البكارى » . أما أم العروسة فكانت — هى وأم العريس — ساعتها فى حالة جنون من الفخر والفرح ، وكانت زغاريدهما تخترق سقف الحجرة وتنطلق كالصواريخ فى سماء الحى .

وبينما كانت هذه المسرحية الامبراطورية تجرى فى بيت المعلم كانت هناك مسرحية من نوع آخر تجرى فى حجرة مأمور القسم .

فقد كان أحد المخبرين قد طار الى القسم وابلغ « حضرة الملاحظ » بأنه شاهد بعينيه حضرة صاحب السمو الامبراطورى الخ وهو يدخل الفرح ومعه عدد من الياوران والتشريفاتية !!! وجرى الملاحظ بذلك الخبر المهول الى « حضرة المعاون » فطار المعاون بالبوكسفورد وعاد بالمأمور . وراح الأخير يأمر بتجهيز « تشريفة » من كل عساكر القسم ، ويبلغ المحافظة و « القسم السياسى » بالزيارة الامبراطورية .. ثم راح يجرى بالتشريفة نحو الحارة .

ولولا ان أم العفريت اليوزباشى كانت « داعيا له » ، ولولا ان والده كان من محاسيب « سيدى مرزوق الاحمدى » ، ولولا ان أحد العفاريت كان مزودا بالحاسة السادسة وان انفه كان شديد الاحساس بروائح الخطر .. لولا ذلك كله لبات العفاريت ليلتها فى «الايقاف الشديد» . فقد راح العفريت ذو الحاسة السادسة « يتقلق فى مقعده ويقول للبرنس فى صوت مبحوح « حضرتلرى افندم انا شامم خطر » فسأله البرنس فى همس « فيه ايه حضرة منصبدار ؟! » . فأجابه « أنا بقول يغنيها الله عن العشا .. الناس بقت مواكب فى الحارة .. وجايز الحكمدار يطب علينا » . وساعتها انتفض البرنس وباقى العفاريت فى ذعر وراحوا يتدافعون نحو باب الحجرة . وصاح المعلم « على فين يا أفندينا ؟! . العشا جاهز » ، فأجابه العفريت — وقد نسى فى غمرة فزعه أنه برنس وامبراطورى كمان — « احنا متعشيين والحمد لله .. سلاموا عليكم » . ثم صافح المعلم وجرى من الباب ومن بعده راح العفاريت يجرون . وعند أول بسطة أتزلق احدهم فتكربس من ورائه اثنان ، ولكن الثلاثة نهضوا سالمين وعوضوا ما فاتهم من السلالم بقفزات بهلوانية . وعلى الباب وقع الخمسة فى وسط فرقة حسب الله ، بينما كان المعلم من ورائهم يصيح « السلام

يا جدع .. دقى يا مزيكة .. » ودقت المزيكة السلام ، فرفع العفاريت أيديهم تلقائيا الى جباههم ووقفوا متصلبين . وما كادت آخر « ترم تم » تنتهى حتى انطلقوا ركضا الى باب الحارة ، والزغاريد تلاحقهم من خلفهم وتساقط عليهم من فوقهم « فرحا جنيا » . وفى آخر الشارع لمحوا موكب التشريفة وهو يتقدم نحوهم « بالخطوة السريعة » .. وكان من فضل الله عليهم أن عثروا على تاكسى فاستقلوه وراحوا يدفعون بأيديهم فى ظهر السائق ويتصايحون « على العباسية .. هوا .. » . ولحظتها زعق المأمور بطابور التشريفة « قف » ، ثم وقف بدوره وراح ينظر الى التاكسى ـ وهو يختفى فى أول منعطف ـ ويتأسف على النيشان الامبراطورى الذى طار من يده .

ومن يومها استقرت بدلة الميس فى دولاب العفريت (١) ، ولم تخرج منه الا فى ليلة زفافه .. وكانت تلك هى ليلة الختام لمغامراتهما معا .

---

(١) بلغ رتبة اللواء ، وهو الآن سفير ممتاز .

حاورينى يا طيطة ..

فى عام ١٩٤٦ انفجرت المظاهرات ودارت فىمصر هاتفة بطلب جلاء الانجليز . واصطدم بعض تلك المظاهرات بالقوات الانجليزية ، وسالت الدماء ، وأوشك الزمام ان يفلت من يد الحكومة . فتفتق ذهن عبقرى عن حل كان يهدف الى القضاء على المظاهـــرات ، فكانت النتيجة هى تزايد المظاهرات بمتوالية هندسية ، بالاضافة الى أن الأمان توافر لها .. فصارت تتجمع وتسير وتهتف وتعبر عن الأمانى الوطنية كما تشاء ، ثم تتفرق فى سلام بعد ان تحقق أغراضها .

وكان الحل هو تكليف الجيش بمواجهة المظاهـــرات . ولكن العبقرى الذى وضع هذا الحل كان قد فاته ان يتنبه الى حقيقة ضخمة تقول بأن كل الضباط الشبان كانوا من عفاريت المظاهرات فى الثلاثينيات ، وكان منهم عدد كبير ذاق طعم السجن وعدد آخر أصيب بجراح فى المظـاهرات ، وعدد ثالث كان افراده من قادة ومخططى المظاهرات .

وقـد كانت النتيجة هى ان ضرب العفـاريت بأوامر فض المظاهرات عرض الحائط . وبدلا من ان يقوموا بتفريقها ، كانوا

يقومون بحمايتها ، وبدلا من ان يلقوا القبض على قادتها فانهم كانوا يدبرون معهم خططها ويرسمون لهم خطوط سيرها . ويذكرالكاتب ان وقت العفاريت كان موزعا بين التفتيش على الجنود والاسلحة وبين تلقى الأوامر المشـــددة (بقض المظاهرات) ، وبين التحرك بالقوات فى الشوارع والميادين (بغرض منع وفض المظاهرات) !! وبين اجتماعات ذات طابع معين (وهى اجتماعات كانت تمتد الى قرب الفجر أحيانا) .

وكان من العجيب ان المظاهرات كانت تظهر دائما فى الاماكن الخالية من قوات الجيش ، كما ان قوات الجيش كانت تظهر دائما فى الاماكن الخالية من المظاهرات . ثم تدور بعد ذلك بين الطرفين لعبة « حاورينى يا طيطة » .. وكانت اللعبة تسير هكذا ..

.... القسم السياسى يبلغ القيادة عن مظاهرة فى دوران روض الفرج ـ مثلا ـ فتصدر الأوامر للقوة المرابطة فى شارع شيكولانى بالتحرك لفض المظاهرة ، فتصل القوة الى الدوران لتجـــد ان المظاهرة قد اختفت بسحر ساحر . وفى نفس لحظة وصول القوة الى الدوران تنطلق من مدرسة التوفيقية مظاهرة عارمة فى اتجاه باب الحديد ، ولكنها ما تكاد تصل الى شارع مسرة حتى تتجه يمينا وتقتحم الشارع هاتفة « تحيا مصر » ، وتكون النتيجة هى ان تلك المظاهرة تكون قد بلغت السبتية فى الوقت الذى تكون فيه قوة الجيش الآتية من باب الحديد قد وصلت الى مدخل شـــارع مسرة !!.

وبتفاصيل مشابهة تدور نفس اللعبة فى الظاهر والعباسية والسكاكينى والجيزة ووسط القاهرة .. الخ . وتكون الحصيلة فى آخر النهار هى عدد مهول من المظاهرات وعدد أكثر هولا من التحقيقات مع الضباط الشبان .. وهى تحقيقات كانت تنتهى الى لا شىء .. بحكم الوقائع التى كانت تفصح عن تحركاتهم النشـــطة والمستمرة للحاق بالمظاهرات ..

و فى الليل كانت القوات ترابط فى الشوارع والميادين .. وكان مرور القيادات والمسؤولين عليها لا ينقطع .

اما الضباط الشبان فانهم كانوا يتوزعون بالعدل والقسطاس بين خدمة النوبتجيات وبين الراحة . ولكن الراحة كانت اسما على غير مسمى .. فقد كان وقتها كله يمضى فى اجتماعات متتالية بين العفارين من الطرفين (عفاريت الجيش وعفاريت المظاهرات) . وفى تلك الاجتماعات كان يتم التخطيط لمظاهرات اليوم التالى ، وكانت ترسم جداول زمنية تحدد مواعيد ظهور واختفاء المظاهرات بدقة فلكيه .. لدرجة ان احدى المظاهرات بزغت يوما فى ميدان باب اللوق فى تمام الساعة التاسعة صباحا فتحركت قوات الجيش فورا من ميدان الاسماعيلية (التحرير) ووصلت الى باب اللوق بعد خمس دقائق بالضبط ، لتجد ان المظاهره قد تبخرت. وكانت تلك الدقائق الخمس كافية لأن يتحول عدد هائل من الطلاب (كانوا — فيما يبدو — ينتظرون الاتوبيس والترام فى مختلف المحطات الموجودة فى ميدان الاسماعيلية) الى مظاهرة عارمة راح هتافها يدوى فى وجوه الانجليز المطلين من قشلاقات قصر النيل « تسقط انجلترا .. الجلاء التام أو الموت الزؤام .. تحيا مصر » .. وبينما كان الانجليز يشاورون عقولهم فى اطلاق النار على المظاهرة ظهر العفاريت بقواتهم فى الميدان .. وكان من الطبيعى ان تكون أفواه رشاشات وبنادق العفاريت موجهة نحو المظاهرة . ولكن الانجليز لاحظوا أن مواسير الأسلحة كانت ترتفع بزاوية ٣٠ درجة !! الأمر الذى لا يجعل لرصاصها من هدف غير نوافذ ومزاغل القشلاقات !!.. وعندئذ أعاد الانجليز مشاورة عقولهم ، ورأوا أن « السكوت من ذهب » . أما المظاهرة فانها اخذت حقها وزيادة ثم تفرقت فى هدوء بين محطات الاوتوبيس والترام ، وكأن شيئا لم يكن ..

وبعد فقد كانت تلك الفترة حاشدة بالاحداث وبالطرائف ،

وهى احداث وطرائف تستحق كتابا لها وحدها . ونكتفى هنا بعرض عينات منها .

ومن تلك العينات كانت بعض الهتـافات الطريفة .. فذات مظاهرة صادرة من الأزهر صاح عفريت أزهـرى ظريف « مصر والسودان لنا ولندن ان امكنا » . وذات مظاهرة اخرى هتف عفريت جامعى خبيث « الجلاء الوافى بدون الـ A.T.S والنافى (١) »

وعينه اخرى .. فقد استطاع القسم السياسى ان يحصل على قائمة بعدد طيب من اسماء عتاولة المظاهرات من طلبة الجامعة ، ولكن اختفى هؤلاء العتاولة كما لو كانوا من طائفة العفاريت التحت ارضيين . وفشلت كل حمـلات البحث عنهم فى البيـوت او الكليات او المدن او القرى . ومن حين الى حين كانوا يظهرون على رؤوس المظاهرات : ومن بعدها كانوا يعودون لارتداء « طاقيات الاخفاء » . وكانت تلك الطاقيات عبارة عن « ملابس عسكرية »!! وكان من هؤلاء الطلبة من يقضى فترة الاختفاء كشاويش او امباشى ، وبعضهم كان يتواضع فيقبل دور الجندى !! وكان منهم من ينسى نفسه فينضم ـ بردائه العسكرى ـ الى اقرب مظاهرة .. ولكن ايدى الضباط والجنود كانت تبـادر باستعادته قبل ان توقعه حماسته فى سجن « قرة ميدان » .

وعينة ثالثة : كاد عفريت ملازم الا يصدق عينيه وهو يراها . فقد تلقى ذات صباح امرا عاجلا بأن يبادر بانقاذ المدرسة اليونانية فى باب اللوق من مظاهرة تدميرية مهولة . ودهش العفريت لأن التخريب كان ظاهرة شبه معدومة فى المظاهرات وقتها ، كما انه كان يعلم يقينا ـ ولا داعى هنا لذكر الاسباب ـ ان الغالبية الطلابية العظمى بتلك المدرسة كانت من حفيـدات فينوس وافروديت ، وبالتالى فان الهجوم عليها لم يكن له ما يبرره . وأخيرا فان جدول

---

(١) انظر A.T.S ص ٥٦ من هذا الكتاب .

مواعيد المظاهرات كان فى جيبه ..وكان خاليا من اى اشارة لمثل تلك المظاهرة .

المهم هو انه اسرع الى المدرسة . وهناك سمع صـــياحات وهتافات عالية ، ورأى كل نوافذ المدرسة وهى محطمة ، ولكن الشوارع كانت خالية من اى مظاهره .. وعندما وصل الى باب المدرسه تبين ان الهتافات تصدر من داخلها ، ثم فوجىء بموجة فينوسية عارمة وهى تندفع من المدرسة الى الشـــارع . وكانت الفينوسات يحملن على اكتافهن طالبا يونانيا بيريكليسيا . وكان الطالب يهتف بأعلى صوته « تحيا ماسر » ، فترد عليه الفينوسات هاتفات « ماسر يا ماسر » . ثم يهتف « ناكاتيفى انجليزياس » (يسقط الانجليز) فيصرخن فى حرد « ناكاتيفى انجليزياس » . ومن وراء تلك الموجة الفينوسية هجمت موجة أفروديســية (١) ناهـدة فاجتاحت العفريت وجنـوده ، وكاد الحـابل أن يختلط بالنابل ، لولا ان بادر العفريت بالنداء « فصيلة .. سريعا مارش» ، ثم انتقل بالفصيلة الى الرصيف الآخر . وعلى رأس تلك الموجـة الثانية كانت افروديته أمازونية تلوح بالعـلم المصرى الاخضر وهى تصيح « نازيسى توكاييرو ، نازيسى تو ايبتو » (تحيا القاهرة ، تحيا مصر) . وفى صيحات سوبرانية كانت الافروديسات يرددن هتاف الأمازونة ويضفن اليه ما تيسر من التلويح بالقبضات والقفز فى الهواء .

أما الموجة الثالثة فكان يتنازع قيادتها طالب وطالبة ولذا فانها تفككت فى الشارع وتوزع افرادها على بقية الموجات .

ومن نافذة مكتبه ، كان ناظر المدرسة يطل فى بأس ، ويقول بالاغريقية ما معناه « اترفدنا والحمد لله » .

---

(١) اذا كان القارىء طبيبا ، فان الكاتب يؤكد له ان المعنى الطبى لهذه الكلمة غير مقصود هنا بتاتا !! ..

ولم يفكر العفريت طبعا فى التصدى لهاتيك الموجات الغزلانيـة فتركها تشق طريقها فى شارع منصور عجبا . ثم نادى على الفصيلة « صفا .. استرح » ، ثم انطلق وراء الموجات الاغريقيـة وهو يتساءل عن البر الذى سوف ترسو عليه .

وهناك .. أمام قشلاقات قصر النيـل تداخلت الموجات فى بعضها وصارت هرما بركانيا .. فقـد كان شبان المدماك الأول يحملون شابات المدماك الثانى ، وكانت هاتيك الشابات يرفعن مدماكا ثالثا من الفينوسات ، وكانت الفينوسات يرفعن مدماكا افروديسيا رابعا ، وهكذا دواليك .. حتى خيل للعفريت ان هرم سقارة المدرج قد انتقل الى ميدان الاسماعيلية ..

وعلى قمة ذلك الهرم كانت الأمازونة ترفع العلم المصرى وتهتف بحياة « كايزو وايبتو » وتسب بنى جونبول سبا مقذعا . وفى يدها كان العـلم يقوم بدور عصا المايسترو ، ويقـود الأوركستر البركانى فتنطلق هتافاته فى توافق هارمونى لذيذ .

ومن فينوسة ، كان صوتها قد بح من فرط الهتاف ، تلقى العفريت التفسير اللازم « الانجليز عاملين اختلال (احتلال) فى ماسر واتينا .. لازم الانجليز يخرج من خينا ومن خينا (من هنا ومن هنا) »

ويبدو ان ذلك التفسير قد فتح شهية الفينوسة من جديد فاندفعت نحو المظاهرة وهى تصيح « تحيا ماسر » ...

ومن يومهـا اضاف العفريت المدرسة اليونانيـة الى دفتر مواعيده !!

A·T·S

فى « حاورينى يا طيطة » ذكرنا ان بعض الهتافين الظرفاء كانوا يطالبون « بالجلاء الوافى بدون الـ A.T.S. والنافى » . ونذكر هنا ان ذلك الهتاف كان له ما يبرره من حيث أن النافى كان هو تاجـر الجملة للسـجائر وعلب البولوبيف وزجاجات « المنكـر » وصناديق الشيكولاتة « البلاكماجيك » والجوارب النايلون وخلافه. هذا مع ملاحظة ان صفة التاجر لا تصح هنا على النافى الا من الباب الخلفى فقط . فقد كان الانجليز ـ القائمون على ادارة كنانتين النافى ـ من صنف « الكوكنى » و « الكلفتى » ومن لف لفهم . ولذا فانهم كانوا يبيعون بضائع النافى من البـاب الامامى للانجليز بالاسـعار الرسمية ، ثم كانوا يبيعونها من الباب الخلفى لكل من هب ودب بأسعار من تأليفهم وتلحينهم . وكان هؤلاء التجار النافيون لا يفرقون بين عربى واعجمى الا بمقدار ما يدفعه كل منهما من ورق البنكنوت المعتبر .

ولم يكن العفاريت من رواد الباب الخلفى . فقد كان من حقهم ان يدخلوا من الباب الامامى . وأن يشتروا ما يشاؤون بالاسعار المخفضة . ولكن الكثيرين منهم لم يحاولوا الافادة من ذلك الامتياز .

فقد كانوا من خريجى مظاهرات وثورات الثلاثينيات ، ولذا فان صدورهم كانت تتاجج بكراهية الاحتلال وملحقانه من مجـاملات وحفلات وتسهيلات . وللذكرى والتاريخ نقول ان حديقة نادى الضباط (فى الزمالك) كانت تحتوى أيضا على النادى « الانجليزى المصرى » الذى كان يقدم الطعام والمشروبات بأسعار مخفضة جدا ، وكان ذلك قصدا مقصودا لجر المصريين الى الارتباط ببنى جونبول .

وكانت نتيجة ذلك الربط المقصود بين الناديين هى أن النادى الأخير كان يتلقى اكثر من قنبلة يدوية كل بضعة أيام . وكان من غرائب الصدف ان تلك القنابل لم يكن يحلو لها أن تنفجر الا فى اللحظات التى كان يتصادف فيها دخول وخروج عدد من العفاريت!! وكان بنو وبنات جونبول يقفزون ساعتها من النوافذ وهم يصيحون « هلب .. اكسبلوچن .. سابوتاچ » ، فكان العفاريت يطبطبون عليهم – وبالأكثر عليهن – ثم يقومون بتبليغ نقطة بوليس الجزيرة بالحادث ، ثم يشهدون فى محضر التحقيق بأنهم راوا قاذف القنبلة وهو مرتد جلابية مخططة .. ولولا ان الأخير كان يمتطى بسكليتة سباق لكانوا قد لحقوا به وامسكوه لكى يلقى جزاءه على « عملته السودة » . وللانصاف نقول ان بنى جونبول لم يكونوا من السذاجة بحيث يبتلعوا حكاية الجلابية والبسكليتة ، ولكنهم أيضا لم يكونوا من الحمق بحيث يظهروا مشاعرهم . ولذا فانهـم كانوا يستقبلون العفاريت العائدين من مطاردة الجلابية والبسكليتة بـ « شـيك هاندز » . ثم يلحقون « الشيك هاندز » بخطابات شكر للعفاريت .

وكان من غرائب المصادفات أيضا أن كل عفريت جاءه شكر من النادى « الانجليزى المصرى » كان يتلقى بعد أيام قليلة أمرا بالنقل الى السودان « والى منطقة طوكر بالذات » . ومع ذلك فان عفاريتا آخرين كانوا يظهرون فى الأيام التالية ويطاردون نفس الجلابية

والبسكليتة بعد أن تكونا قد القتا بقنبلة من أبدع ما انتجه الخواجا « ما يلز » ، على نفس النادى المنكوب .

ونعود الى المغريات الانجليزية الموجهة للعفـاريت فنقول انهم كانوا يولونها ظهورهم . ولكنهم ـ ونحن هنا نسجل للحقيقة والتاريخ ـ كانوا يستثنون منها اغراء واحدا . . . كان هو نفس الاغراء الذى تسبب فى نفى أبينا آدم من الجنة . . وأى شىء يكون ذلك الاغراء الا « حلو اللمى » . وكان « حلو اللمى » وقتئـــذ هـو قـوات الـ « A.T.S. »(١) المسلحة بكل اسلحة الفتنة والدلال ، من كل انجليزية شقراء او نيوزيلاندية فى بياض القشطة او كندية من سلالة هاروت وماروت وهكذا دواليك . على أن العفـاريت وان كانوا من الصنف الذى هو « موكل بالحسن يتبعه » فانهم كانوا يتفاوتون فى مقادير العمل بهذه الحكمة . فكان المتزوجون يكتفون بالنظر الى « حلو اللمى » من بعيد لبعيد ، وكان الزهاد يتبسـمـلون ويتحوقلون عندما كان يهل عليهم (وكثيرا ما كان يفعل) ، اما كل عفريت مارد فانه كان يقدم على تناول ذلك الصنف من « الحلو » غير هياب ولا وجل . وكانت لهم فى ذلك المجال ذكريات ، تبدؤها بواحدة تمهيدية ونختمها بواحدة جهنمية . . .

وعن الذكرى التمهيدية نقول ان واجب اوانس الـ A.T.S. (واوانس هنا بالمعنى الانجليزى لا صلة لها بالمعنى الشرقى للكلمة) كان هو ، فى الظاهر ، القيام بأعمال الاشارة والسكرتارية بالمعسكرات والمنشآت الانجليزية فى المدن . اما فى الباطن فان واجبهن كان هو الترفيه عن مغاوير الامبراطورية . ويخطى من يتصـور لهن واجبا ثالثا مثل التجسس او جمع المعـلومات ، فذلك واجب لم يكن

(١) هى مختصر Auxillary Territorial Service ومعناها هو « الخدمة الاقليمية الاحتياطية » . والترجمة التى قدمها احد العفاريت كانت هى الانسب ، وكانت هى « آنسات ترفيه سبهللى » .

الواجبان الآخران يفسحان له مجالا يذكر . وفى مجال آخر وفى مناسبة أخرى حاولت انجليزية حسناء ان تبتز بعض المعلومات من أحد العفاريت فكانت النتيجة هى أنه استطاع أن يلطش من حقيبتها دفتر الشفرة وان يصوره بينما كانت هى تصلح ما تشعث من زينتها ...

وكان المشهد الأول على باب العمارة رقم ٢ فى شارع شامبليون . فهناك نزل عفريت ومعه جنوده من العربات . ثم نادى للكوربورال (الامباشى) الذى كان عبارة عن حسناء لندنية لم يستطع رداؤها الكاكى أن يخفى من بهائها ولا شعاعا واحدا . وجاءت الكوربورال ورفعت يدها الرقيقة بتعظيم كاد معه العفريت ان يقول لها « العفو يا سيد الملاح » . وفى انجليزية لا بأس بها طلب منها ان تبلغ قائدتها بأنه حضر لحراسة ثكنات الـ A.T.S. ، التى كانت تقع فى العمارتين ٢ ، ٤ . واستدارت الكوربورالة فى حركة عسكرية بالغة الرشاقة ثم مشت ، ثم عادت بعد قليل لتطلب من العفريت « بليز فولومى » (اتبعنى من فضلك) . ومن الباب حتى الدور الثالث مرت كل أصناف الغزلان الامبراطورية على العفريت ، فراحت حرارته ترتفع شيئا فشيئا حتى جاوزت الاربعين . وبهذه الحرارة العالية دخل على السيدة الميجر « الصاغ » بنكرهل . ومع أن العسكريين الانجليز كانوا يراعون تأدية التحية للرتب المصرية الأقدم منهم فان جيل العفاريت كان بطبيعته الثورية طالعا فى العالى ولم يكن يؤدى اى سلام للضباط الانجليز ، فما بالك اذا كان هؤلاء الضباط من صنف النسا !!! . ولذا فان العفريت اكتفى بان صبح على الميجر ثم جلس على الفور على اقرب فوتيل . واغتاظت الميجر فسألته « لم لم يؤد التحية » ؟ . فأجابها بما معناه « بقى اسمعى يا ست انا كفران من الطوارىء ومستعد ادخل شمال مع أى حد .. عاوزة حراسة واللا اسيبك للمظاهرات توضبك انتى والبنات » ، فكان

جوابها — بعد ان ذاقت الرعب من المظاهرات — « بليزبى كالم »(١) . ثم امرت له ببراد شاى « كشرى » . والانجليز يقدمون الماء الساخن ومعه كيس من الشاى ، وهذا هو الكشرى تماما . وبعد فنجانين من الشاى اللبتون المعتبر راح العفريت يملى على الميجر شروط القائد المنتصر « أولا عاوز مكتب وثانيا مافيش بت تهوب ناحية العساكر وثالثا من حقى التفتيش ليل نهار على العمارات » . فأجابته «أجريد (موافقة) فيما عدا حكاية التفتيش بالليل .. أنا عندى بنات » . فأجابها العفريت « بنات ! ! الله ها الله عالبنات .. اسم الله عالبنات .. ان ماكنتش افتش ليل نهار أنا موش مسؤول عن أى تخريب يحصل . انتى عارفة اللى حصل لعمارة الطيران (كانت تلك العمارة فى شارع مظلوم ، وتلقت أكثر من قنبلة) » . وانهارت الميجر فسلمت بطلبات العفريت بدون قيد ولا شرط .

وقبل ان نستطرد وندخل فى الأحداث الجهنمية التى جرت بعد ذلك نقول ان ضمير العفريت كان خاليا تماما من أى نية سوء وانه كان يهدف الى أداء واجبه فقط . وخصصت الميجر له مكتبا وعينت له سكرتيرة كانت « سكوتش خالص » . ولكنه لم يستطع أن يتحمل نظراتها الساحرة ، فعاد بعد ساعات الى بنكرهل وطلب منها أن تعفيه من السكرتيرة « لأن الواحد أعصابه ما تستحملش » .

وضحكت الميجر وسحبت السكرتيرة . وعاد العفريت الى مكتبه وهو يتنفس الصعداء ويقول « اللهم اكفنا شر التحقيقات والمحاكمات» وبعد قليل خرج ليتمم على الجنود فرأى هؤلاء وهم محاطون بما لايقل عن كتيبة من ذوات العيون الزرق . وكانت واحدة منهن تدور على الجنود بالشاى وثانية تقدم لهم الجاتوه وثالثة توزع عليهم الشكولاته بينما كانت الأخريات يدرن من حولهم فى اعجاب شديد ويرحبن بهم على طريقة « اللهم صلى عليك يا نبى » .

---

(١) اهدأ من فضلك .

وكان الوحيد الذى خرج من ذلك المولد بلا شيكولاتة هو جندى سمع فتاة منهن وهى تردد اسم الملك وتقول « كنج فاروك » . ولما كان « الكنجى » فى المصطلحات العسكرية وقتها هو « الثانى » (والأول هو البرنجى) ، فان الجندى الهمام غضب غضبة ملكية وانبرى للدفاع عن مركز الملك ، فكانت النتيجة هى انه خلعه من العرش .. لأنه راح يصيح بالفتاة « نوكنج فاروق . قولى برنجى فاروق » . وهرولت الفتاة بعيدا عنه وهى فى غاية الذعر ، لأنها حسبته فوضويا رهيبا ، وكذلك فعلت زميلاتها ..

وعندما أهل العفريت على ذلك المولد الأنجلواجبشيان انتفض العفاريت الجنود وصاح شاويشهم « انتباه » فوقفوا كالتماثيل . ودخل عليهم العفريت وهو يقول « الله .. الله !!! غاب القط العب يا فار .. تيجوا مكتب كلكم » . وعاد الى المكتب ثم بسط عليه دفتر الجزاءات وراح « يهيىء » كلا منهم بثلاثة ايام حجز قشلاق ، ثم اتحف الشاويش بعلاوة فوق ذلك ، وكانت « خصم ٣/٤ الذهبية » . اما ذوات العيون الزرق فقد رحن يستنجدن بالميجر بنكرهل لكى توقف مذبحة الجزاءات التى كانت تدور فى مكتب العفريت .

وتوجهت الميجر ومعها وفد منهن الى العفريت ورحن يلاغينه ويطلبن منه « العفو والسماح » .

ونظلم الحقيقة لو قلنا انه لان .. وانما الأصح هو انه ساح وذاب وانصهر حتى أصبح كتلة من العجين الكاكى . وفى تلك اللحظة الدرامية بالذات دخل أربعة من العفاريت ، وحين رأوا « الهلم » الذى كان يدور ، قال أقدمهم « تطفحهم يا بعيد » ، وقال أوسطهم « يخونك العيش والملح » ، واعلن الرابع انه يحب المهلبية . أما الثانى

فانه كان بطبيعة رجل اعمال (١) ، ولذا فانه تناول اقرب « سارجنت » (شاويش) منه ، ووجه اليها عبارة خافتة فضحكت ووجهت اليه عبارة أكثر خفوتا . وصرخ فيه عفريتنا « أنت بتعمل ايه يا جـدع أنت ؟ » . فأجابه بهدوء « بآخد ميعاد » ، فرد العفريت « نعم !! هو أنا الكوبرى الأعمى واللا أنا يعنى الكوبرى الأعمى » . فأجابه « اشمعنى انت ؟ مانت قاعد أهو زى شهريار . حاتسكت واللا أروح أجيب القومندان يفقدك » . وفزع العفريت من ذلك التهديد فسكت راغما . وانتهز باقى العفاريت الفرصة فدخلوا شمال فى البنات وأخذ كل منهم أكثر من ميعاد . وقد اضطر واحـــد منهم الى الاستعانة بالعفريت الثانى ليقوم بالترجمة بينه وبين « مس كاكويانى » ، وكانت حسناء قبرصية بحجم الترانستور .

وفى خلال عمليات التواعد تلك كانت الميجر ننكرهل تضحك فى ابتهاج وتعبر للعفريت عن ترحيبها بتلك « الفرندشب » (الصداقة) التى كانت تنعقد بين أحفاد الفراعنة وبين رعيـة « هزماجستى » (صاحب الجلالة) . واطمأن العفريت ساعتها الى أن « الحكاية ما فيهاش محاكمة » والى أن باب الـ A.T.S. مفتوح على مصراعيه . . فدخل منه على الفور .

وقبل أن ندخل فى الأحداث الختامية نود أن نقرر ان احدا من العفاريت ــ فى ذلك الوقت ــ لم يكن لديه اى داع « لفراغة العين » . فقد كان ميزان العرض والطلب يميل لصالحهم ، بحكم تلك الوفرة

---

(١) كان ايضا اديبا وكان يترنم للذوات العيون الزرق بأشعار كان يزعم انهـا من نظمه ثم يترجمها الى الانجليزية ببراعة ، ومنها ابيات تقول :

فان تك افرنجية بنت لنـدن ... فقد صورت فى صورة لا تشينها

احبـك ان قالوا بعينيك زرقة ... كذاك عتاق الطير زرق عيونهـا

وهى ابيات سرقها (وقلب كيانها) من شاعر فدائى كان يتغزل فى ام خالد بن عبد الله القسرى . .

الهائلة فى الصنف الغزلانى ، والتى كانت تتمثل فى الجاليات اجنبية الكبيرة الواردة من اليونان وقبرص ومالطة وايطاليا وفرنسا وبلدان الامبراطورية البريطانية . وما يزال كهول اليوم (مدنيين كانوا أم عسكريين) يذكرون كيف أن الحصــول ـ فى تلك الفتــرة ـ على راندیفوه كان اسهل بكثير من الحصول على الماء والهواء . بل ان بعضهم كان يعانى من تهافت الصنف عليه بأكثر مما تعانيه الجمعيات اليوم من التهافت على الفراخ .

ومن هنا نقول أن العفاريت لم يعانوا اى صعوبات مع الـ .A.T.S والعكس صحيح فلم تكن حسناوات الـ .A.T.S يعانين ـ فيما عدا بعض اللواتى لا تستطيع الماشطة ان تفيدهن بشىء ـ اى صعوبات مع العفاريت .

وسارت الأمور على خير ما يروم العفاريت و « البنات » (١) ، حتى وقع عفريتنا فى يد خطيبته وهو فى حالة تلبس « انجاجية » (٢) مع برايفيت (٣) انجليزية كانت هى زهرته المفضلة ، وكان ذلك فى فى شارع سليمان وأمام سينما كليبر بالذات (كانت تقع محل عمارة أبو رجيلة) . ولسوء بخت العفريت فان خطيبته لم تكن وحــدها وانما كانت معها السيدة الفظة والدتهــا . وعلى صرخة الخطيبة « شوفى يا ماما » شافت ماما . وماتشوف عينك الا النور .. فلو كان يوليوس قيصر ساعتها موجودا لرأى مصداق عبارته « فينى . فيدى . فيكى » (جئت ورأيت وانتصرت) .

---

(١) اللفظ هنا مجازى بحت ..

(٢) ما نظن ان احدا يجهل معنى ومبنى « انجاجيه » .

(٣) برايفيت يعنى نفر . وبهذه المناسبة نذكر ان لفظ « نفر » فرعونى ومعناه « الجميل » ، ومؤنثه هو « نفره » . وعلى ذلك تكون صحة اسم « نفرتيتى » هى « نفره تأتى » ، يعنى « الحلوة جايه » .

ففى خلال ثوان قليلة كان العفريت قد تلقى من الماما دوشا كاسقع ما تكون الادشاش ، وتلقى من الخطيبة دبلة الخطوبة . ثم حبست الوالدة دمه بتبليغ رسمى بأن « البيه حايوريه مقامه » .. وكان البيه بيكا حقيقيا من ناحية كما انه كان من أعز اصدقاء قومندان العفريت من ناحية اخرى .

ولما كانت وظيفة الحظ الرئيسية هى ان يكون سيئا فانه لم يكتف بمجرد تدبير تلك « الوقعة السوداء » وانما اضاف اليها وقعة كانت اشد سوادا واكثر هولا . فما كادت الخطيبة والماما توليان العفريت ظهريهما حتى التفت بوجهه (الذى كان فى صفرة الليمون) الى البرايفيت لكى ينقذ من الموقف ما يمكن انقاذه ، فاذا به يرى وجهها وهو « اصفر وصفر فور » ويرى عينيها وهما فى نفس الاتساع والاستدارة اللتين تكون عليهما عين الأمريكانى الأعرل وهو يرى أمامه هنديا احمر . وجاءه التفسير على صيحة بالانجليزية الفصحى « هوات اذ ذا مينننج اوف ذس ؟ ! » (١) . وكان صاحب الصيحة كولونيلا (عقيدا) انجليزيا ، بعلامات ووجه فى حمرة الطماطم . ولو كانت الانجليزيات ممن يعرفن الصوات لفقعت الفتاة بالصوت الحيانى . فقد تذكرت ساعتها أنها كانت قد واعدت الكولونيل على اللقاء فى نفس الوقت وفى نفس المكان . فقد كان يجمع بينها وبينه اكثر من سبب . اولا لأن الترفيه عنه كان من صميم واجباتها !!! وثانيا لأنه ولأنها كانا من محبى شاكسبير ، وكانت سينما كليبر تعرض ليلتها فيلما لقصة « هاملت » بعنوان « توبى أورنوت توبى » (تكون أو لا تكون) ، ولكن اعجابها بالعفريت شاء أن ينسيها موعدها مع الكولونيل ، كما أن اعجابها بشاكسبير شاء أن يجعلها تتجه بالعفريت الى « توبى أورنوت توبى » . ولم يحدث شىء بين العفريت

---

(١) ما معنى هذا ؟ !

والكولونيل . فقد استأذنه الأخير « اكسكيوز مى سير » (عن اذنك يا سيدى) ثم انتحى بالفتاة ناحية ثم سلخها سلخا عادت معه الى العفريت وهى دامعة العينين . . . وبغير جلد تقريبا .

ونظرا لأن كل غريب للغريب نسيب فقد تحول العفريت بالفتاة عن السينما الى اقرب كازينو على النيل وقضيا سهرة كأنكد ما يكون .

وفى اليوم التالى تتالت الاحداث . فلم يكن الكولونيل بالذى يترك الثأر ، ولذا فانه زار الميجر بنكرهل زورة خرج منها بكشف بأسماء الفتيات اللواتى كن على علاقات مع العفاريت ، ثم دار على القيادات دورة خرج منها بأمر بنقل هاتيك الفتيات الى الاسكندرية وبأمر بالغاء الحراسة على بيوت الـ .A.T.S . وكانت النتيجة هى أن العفاريت ـ فى عمومهم ـ فقدوا فى يوم واحد كل رصيدهم من A.T.S. ، فعادوا الى دفاترهم القديمة وراحوا يستخرجون منها أرقام تليفونات بنات « طناشى وبابادوبلو وأكولينا ودى جرامون » .

اما عفريتنا ـ على وجه الخصوص ـ فانه وجد نفسه محاصرا بنيران جهنم فى ذلك اليوم التاريخى . فقد نسفت قنابل الكولونيل كل ما كان قد تعب فى رسمه من برامج عاطفية لمدة سنة كاملة واطارت من يده خطيبته الحسناء وفتاته الشاكسبيرية ، كما انها قضت على معاهدة الصداقة التى كانت بينه وبين الميجر بنكرهل ، التى تلقت يومها تعنيفا من القيادة الانجليزية على تفريطها فى « العهدة » وعلى اخلالهابقاعدة « اللى يعوزه البيت يحرم على الجامع » . ثم أن العفريت وجد نفسه فى ذات اليوم تحت كوبرى امبابة . . . مكلفا بحراسة ذلك الكوبرى الجهنمى الذى ما تفتأ القطارات وعربات الكارو تدبدب عليه بضجيجها الذى لا يتوقف وتغمره بروائحها الدخانية والبصلية المزمنة . ومن بعد ذلك جاءته ثمرات علاقة البيه بالقومندان

وهي تترى . وكانت تلك الثمرات« ميرى فى ميرى» . فهناك ـ وتحت الكوبرى بالذات ـ وردت عليـــه كل انواع المرور والتفتيشـــات والاتهامات .. « س ســؤال .. تأخير فى النوبتجية .. تأخير فى التمام .. تأخير فى التقارير .. العساكر موش بالقيافة التامة .. الداوريات موش منتظمة .. الطوابير بحالة سيئة ... لم تمر على الكوبرى سوى ثلاث مرات » .

ونصل الى الفصل الختامي فنقول أن عذاب العفريت عز على عفريتين بكباشيين فتدخلا بالمساعى الحميـــدة بينه وبين البيه حتى رضى الأخير (والماما والخطيبة) باستعادة الدبلة ، بشرط أن يتوب العفريت توبة صادقة . ولم يتردد العفريت طبعا فى اعـلان التوبة ، التى كان ينوى باخلاص ان يجعلها صادقة . ولكن « تقول ايه » فى حركة تنقلات الوحدات !!!! التى شاءت أن تنقل وحـدة العفريت فى نفس الشهر الى الاسكندرية (التى لم يكن قد حدث فيها ما يدعو الى الغاء الحراسة على بيوت الـ A.T.S) . وبذلك عادت المياه الى مجاريها بين العفريت وزهرة شاكسبير . والأدهى من ذلك ان أحـــد البكباشيين قد لضم مع عـــدد طيب من فتيات الامبراطورية .. ، ومن نفس الباب دخل عفاريت آخرون .

وبذلك صار عفريتنا واقفا فى مفترق السكك الثلاث « ســكة السلامة وسكة الندامة وسكة اللى يروح ما يرجعش » . ولولا أن الماما كانت قد بادرت بانجاز الجهاز بسرعة صاروخية ولولا أن البيه والقومندان قد تضافرا على نقله الى القاهرة ، ولولا أن الخطيبة كانت ـ وما تزال ـ من أرق وأذكى بنات حواء ، لما رضى العفريت بالدخول فى سكة السلامة ولكان قد مضى مع غزالات الـ A.T.S. الى حيث يمضى كل من يختار السكة الثالثة .

بودرة العفريت

عندما شبت مظاهرات الجلاء فى عام ١٩٤٦ كاد العفاريت ان يجنوا . وذلك لأن معظمهم كان من خريجى مظاهرات عام ١٩٣٥ (التى انتهت بمعاهدة سنة ١٩٣٦) ومظاهرات عام ١٩٤٢ (التى بادر الانجليز بالالتقاء معها فى منتصف الطريق ، فأجبروا الملك ــ فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ــ على تكليف حزب الوفد بتشكيل الوزارة ، ولو كان الملك قد صمد وقاوم ذلك التدخل ، لخاض العفاريت والشعب كله معه حربا حتى الموت أو النصر ، ولكنه كان أحرص على عرشه منه على استقلال بلاده) .

وبكل احتقار استقبل العفاريت الأوامر التى كانت تطالبهم بفض المظاهرات . وبكل لباقة استطاعوا أن يوفقوا بين مشاعرهم الوطنية وبين النظام العسكرى . فكانوا يدبرون أمورهم مع قادة المظاهرات بحيث تظهر المظاهرات حيث لا يوجد الجيش وبحيث يظهر الجيش حيث لا توجد المظاهرات [١] .

وكان ذلك التدبير سهلا فى القاهرة ، حيث تتعدد الشوارع والميادين الرئيسية ، اما فى مدن الأقاليم فان ذلك كان مستحيلا .

---

(١) انظر « حاورينى يا طيطة »

وفى البداية اقتصر ظهور الجيش على ميادين القاهرة وشوارعها . ولكن الأقاليم راحت تنضم الى ركب الجهاد من اجل الجلاء ، وراح ساعد المظاهرات فيها يشتد حتى صارت تنذر بثورة عارمة . ولذا فقد صدرت الأوامر بنزول قوات الجيش الى الاقاليم . وكانت ك ؟ بنادق هى التى تلقت اول امر . وفى أول قطار مسافر الى المنصورة قامت سريتان من الكتيبة . وفى الطريق عقد العفاريت مؤتمرا للبحث عن أفضل التكتيكات لمواجهة ذلك الموقف الجديد . ولكن القطار دخل الى محطة المنصورة قبل أن يهتدى العفاريت الى حل ترضى به المظاهرات ويرضى عنه النظام العسكرى .

وفى ضيق شديد نزل العفاريت والجنود ثم اصطفوا فى فناء المحطة ثم خرجوا متجهين الى فندق ــ غاب اسمه عن الكاتب ــ كان قد خصص كمعسكر لهم .

وقبل أن يقطعوا فى الشارع أكثر من بضع خطوات جاءتهم من بعيد ضجة كانت تنبىء عن مظاهرة أكيدة .

ومن كل الشوارع المحيطة بميدان المحطة تدفقت جموع حاشدة ثم انتظمت فى جمع واحد مهول . ومن عجب ان ذلك الجمع كان يحتوى على عدد من فرق الموسيقى الشعبية ومن الطبول والزمور . وعلى دقة واحدة كان الجمع يصيح « يحيا الجيش يحيا الجيش » . وابتسم الجيش ، وتطلقت أسارير العفاريت ورفعوا ايديهم فى تعظيمات طيبة ، ردا على ذلك الاستقبال الكريم . وبالأحضان هجم الشعب على الجيش ، وبالأحضان استقبل الجيش الشعب . وبدا للجميع أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان .

وبديهى أن تلك المظاهرة كانت ابعد ما تكون عن المظاهرات المعينة فى الأوامر . وبالتالى فان العفاريت ساروا بالجنود على دقات الطبول وعزف المزامير ودوى الهتافات بحياة الجيش . وظل الامر كذلك حتى وصلوا الى الفندق . وهناك انهمك العفاريت فى اعداد

المعسكر وترتيب شئونه الادارية . أما المظاهرة فقد انفضت من حولهم ، ثم تجمعت بعد قليل بقدرة قادر قرب كوبرى طلخا ، ثم اجتاحت المدينة وهى تهتف « بالجلاء التام أو الموت الزؤام » .

وهكذا انعقدت اتفاقية جنتلمان بين العفاريت وبين قادة المظاهرات . فقد كان على كل مظاهرة أن تبدأ عملها بالهتاف بحياة الجيش ، ثم تبتعد بعد ذلك بالقدر المناسب عن العفاريت والجنود ، ثم تهتف كيف تشاء بسقوط الانجليز والاستعمار ، فاذا ظهر العفاريت والجنود عادت الهتافات تدوى بحياة الجيش ، وأحيانا بحياة العفاريت ، على طريقة « وأنا وانتة » .. ولقد نسي متظاهر (مجدع) نفسه ذات هتاف وصاح محييا عفريتا ظريفا (كان اسمه العيسوى (١) فقال « والجيش ، وجدعان الجيش ، وضباط الجيش ، والمعلم عيساوى » !!! ...

وبعد فاين مكان « بودرة العفريت » من أحداث هذه الذكرى ؟. والجواب هو أن هذا المكان يقع على الضفة الشرقية من ترعة الاسماعيلية وفى منطقة ابى زعبل بالذات .

فبعد وقت ممتع ، قضاه العفاريت فى المنصورة ، عادوا وافرين غانمين الى معسكر الكتيبة بالماظة . وهناك كانت تنتظرهم الأوامر الفورية بمناورة فى منطقة أبى زعبل .

وتحركت الكتيبة للمناورة وعبرت الترعة على كبارى « الكابوك » فى الظلام الدامس . وعلى الضفة الشرقية فقد أحد العفاريت الملازمين

---

(١) كان ذلك العفريت - وما يزال - مشهورا بالجراة البالغة . ومن طرائف جراته انه راح يلعن خاش اليهود على السبحة فى كازينو بحيفا فى عام ١٩٤٦ . وكان ذلك حين سمعهم يلعنون العرب (وكان وقتها يحضر فرقة دراسية فى مدرسة المشاة البريطانية بعكا) ومع انه كان وحيدا ليلتها فان جراته أذهلت رواد الكازينو فلم يتعرض له أحد منهم .

اتجاهه وضرب بفصيلته فى قلب الصحراء ، ثم اختار تبة عالية وحفر خنادقه عليها . واستقر هو فى موقع القيادة وهو يحسب انه نجح فى تحقيق الهدف نجاحا باهرا .

وصعق العفريت حين عاد اليه المراسلة قرب الفجر وانباه بأن الكتيبة قد اتمت المناورة وعادت الى ابى زعبل منذ ساعات .

ومن بعيد ظهر عدد مريب من القبعات وعصى الميدان . وبعد دقائق وجد العفريت أمامه عددا من ضباط البعثة الانجليزية (وهى البعثة التى كانت مكلفة ـ بمقتضى معاهدة سنة ١٩٣٦ ـ بتدريب الجيش) .

وحسب العفريت ان مشكلته يمكن أن تمر على خير ، لأن الانجليز الذين ظهروا امامه كانوا بغير مرافق من الضباط المصريين ، كما انهم (الانجليز) كانوا يراعون « الجنتلة » بقدر كبير مع العفاريت .

ولكن انجليز تلك الليلة كانوا ـ بحكم الشتائم التى كانت المظاهرات تصبحهم وتمسيهم بها ـ ينوون شرا . ولذا فانهم راحوا يحاسبون العفريت على اخطائه حساب الملكين . ولم تفلح التبريرات والتفسيرات ـ التى كان العفريت يعرضها فى سرعة « البربند » ـ فى اقناع بنى جرنيول ببراءة ساحته ، فراحوا يستخرجون الأقلام والكناشات (١) ويستعدون لتسجيل تقارير مثل الهباب .

وجاءته النجدة من حيث لا يحتسب . . . جاءته من المنصورة رأسا . . . فقد كان قد تلقى من منصورى كريم هدية من أعجب الهدايا . اذ كانت قرطاسا مرشوما ببودرة العفريت . وكان التفسير هو أن المنصورة كانت مقرا لعدد من وحدات الطيران الانجليزى ، وكان شباب المنصورة يدأب على تنكيد عيش رجال هذه الوحدات

(١) هى الكراريس بلغة المجمع اللغوى . .

بكل طريقة ممكنة . وكان اطلاق بودرة العفريت على اقفيتهم هو هواية الشباب المفضلة . وحين تساءل العفريت عن جدوى هذه الهدية ، اجابه المنصورى بأنها قد تفيد فى مداعبة الأصدقاء .

ولما كان العفريت قد انتقل راسا من معسكر الماظة الى المناورة فان القرطاس كان قد انتقل معه بالتبعية – وكان فى جربندبته – .

وكان العفريت قد فتح الجربندية قبل وصول بنى جونبول بقليل واستخرج منها قرطاس البودرة ووضعه جانبا ثم استخرج علبة سجائره وبضع ساندوتشات . ثم حضر المراسلة ومن بعده ضباط البعثة ، فنسى العفريت القرطاس والساندوتشات .

وفى نفس اللحظة التى كانت فيها اقلام الانجليز قد بدات تعمل على الكناشات هبت لفحة مباركة من رياح الصحراء وتدحرجت بالقرطاس وافرغت محتوياته فى كومة واحدة ، ثم تبعتها لفحة عنيفة اخـــرى فحملت بودرة العفريت الى الارتفاع المناسب ثم هبطت برصيد القرطاس كله على اقفية الانجليز .

وكما يعرف كل من ذاق عذاب تلك البودرة فان محاولة ازالتها باليد تزيد من التحامها بالجلد وتدفع بذراتها الشائكة فى أعماقه . وكان ذلك هو الذى حدث مع بنى جونبول . فقد تخلوا واحدا بعد الآخر عن الاقلام والكراسات وراحوا يحكون أقفيتهم بأيديهم وبذلك انغرست اشواك البودرة فى تلك الاقفية العريضة وراحت تؤدى عملها المؤذى بغاية الهمة والنشـــاط .

وفوجىء العفريت بالاخوة الانجليز وهم يعيدون الاقلام الى الجيوب ويسرون لبعضـــهم النجوى ، ثم يتلفتون بحثا عن ذلك المخرب الذى اطلق على اقفيتهم تلك الابر التى كانت تحز فى أعناقهم ... ولكن الصحراء كانت خالية من اى صريخ خلفهم ...

واستدار الانجليز وراحوا يهرولون عائدين ، بينما كان العفريت يحمد الله وينسب نجاته المفاجئة الى « الجن الأحمر » . ولكنه شعر بعد قليل بأن دبورا مفترسا قد لدغه فى صدره فراح يحك مكان اللدغة ففاجأته هناك نار آكلة . ومن صدره خرجت يده وهى مكسوة ببودرة العفريت ، فضرب بعينيه نحو القرطاس فرآه برقص الرومبا مع الريح ، بعد أن خلا تماما من البودرة . وكأن الشاعر كان قد رأى العفريت وقتها واستوحى منه قوله :

« ويضيع من قدمى الطريق   ويشب فى صدرى حريق » ..

وبعد أيام تلقى الصديق المنصورى خطابا يطلب فيه العفريت بضعة قناطير من بودرته الرهيبة .

هواية رهيبة ..

من الأخطاء الشائعة عن العسكريين أن تخصصهم الوحيد هو قتل العـــدو ، بالبندقية والمدفع والطائرة ، وأحيانا بالخناجر والسناكى والمطاوى .

والواقع هو انه ما من تخصص علمى او مهنى أو فنى فى بلدنا الا وله عفاريت يمثلونه خير تمثيل . فما القوات المسلحة الا مجتمع تتمثل فيه كل خصائص وتخصصات المجتمع الوطنى الكبير . ففيها المهندس والطبيب والصيدلى والكيميائى والجيولوجى ، وفيها رجل القانون ورجل التجارة ورجل الزراعة ، وفيها السمكرى والميكانيكى والسروجى والطباخ والحلاق والترزى والكهربائى ، وفيها الشاعر والناثر والزجال والممثل والرسام والنحات والرياضى والفيلسوف ..

وفيها ايضا الحاوى ، ومروض الوحوش ، وصـــياد الأفاعى .. والنشال ، ومتسلق المواسير ، وفيها الورع الزاهد ، وفيها العابث العربد ، وفيها أيضا من الكواعب الحسان مدرسات تربية عسكرية ـ بلغت واحدة منهن رتبة العقيد ـ ، وفيها ممرضات تجاوزت بعضهن رتبة الرائد ، كما ان الدفعة الاولى من خريجات معاهد السكرتارية قد تسلمت أعمال السكرتارية فى الرئاسات ، والبقية تأتى . وقد

يجيىء يوم نرى فيه عميدة حسناء وهي تصدر الأمر للمدفعية « بقصف رقبة العدو » . . .

وبعد ، فقد ذكرنا هاتيك التخصصات على سبيل الأمثلة فقط أما لو حاولنا احصاءها فاننا سنحتاج الى مجلدات .

وهذا عن التخصصات الكلاسيكية فقط . أما عن التخصصات الغريبة والنادرة فان الكاتب قد رأى منها ما يشيب الشعر ، وهو لا يجد مانعا من مساعدة منتجي صبغة الشعر بهذه الذكرى التي قد تثمر شيبا مبكرا لبعض القراء .

وتبدأ هذه الذكرى بمنظر عدد من عتاولة خبراء المفرقعات الانجليز وهم يبرطعون هربا من قنبلة زمنية حية . . . وكان ذلك في معسكر العباسية (في عام ١٩٤٦) . وكانت تلك القنبلة من بقايا الغارات التي هطلت على ذلك المعسكر في خلال الحرب العالمية الثانية . ولقد بقيت مدفونة في حديقة حمام السباحة حتى اكتشفها بستاني من هواة الحفر والتنقيب .

واستدعت قيادة المعسكر هؤلاء الخبراء فراحوا يدورون من حولها وقد اصفرت منهم الوجوه وارتعشت الأطراف . وكان لهم في ذلك كل الحق لأن تلك القنبلة الرهيبة كانت من طراز « البلوك باستر » (ناسفة الربوع) . . يعني أنها لو انفجرت لمسحت الأرض مسحا بكل كائن حي في دائرة قطرها نصف كيلو متر . وللصدفة المهببة فان عددا من العفاريت ، كانوا هناك في زيارة تعليمية ، وكان يجرى أمامهم في حوض السباحة بيان عملي عن عبور الموانع المائية على كبارى الكابوك . وحين رأى العفاريت عملية البرطعة ـ التي بدأت بالخبراء وانتهت بكل من يمت الى الامبراطورية بسبب ـ فانهم وقفوا في أماكنهم واجمين ، وقد عز عليهم أن يفروا بدورهم هاربين .

اما السبب الذى أدار موتورات السيقان الانجليزية وجعلها تنطلق بأصحابها بعيدا ، فانه كان هو اليقظة المفاجئة التى انتابت القنبلة بسبب حركة سحب ودفع عوامات الكابوك من والى الحوض ؟ كما ان بعض العوامات كان قد وقع على الأرض أثناء نقله من اللورى الى الحمام . وبتلك الهزات الخفيفة أفاق جهاز التشغيل فى القنبلة من سباته العميق وراح يدق معلنا « ان الحياة دقائق وثوانى » .

ومن صيحات الخبراء الانجليز «لايف بومب . . . سيلف تايمر» (قنبلة حية . . . توقيت ذاتى) تبين العفاريت الحقيقة الرهيبة وراح بعضهم يستعد للقفز من فوق سور الحمام .

وفجأة تقدم واحد من العفاريت نحو القنبلة ووضع يده حول اذنه كما يفعل كبار الصييتة وراح يتسمع الدقات . وبين صيحات الفزع الانجليزية « آريوماد ؟ » (هل أنت مجنون) ، وصرخات التحذير العفاريتية « ارجع يا متهور . . . بعدين يخصموا القنبلة عليك » . . . بين هاتيك الصيحات مد العفريت يده الى القنبلة وراح يدير جهاز الاشــعال بحركة محسوبة بجزء على مليون من الثانية . ثم كان يعود فيضع يده على أذنه ثم يدير الجهاز . وبخفة الحــاوى نزع الجهاز أخيرا من القنبلة ثم هرول به نحو السور والقاه من فوقه بأقصى قوته . وبعــد دقيقة ، كان عقرب التوقيت قــد أتم دورته ففجر الجهاز . اما القنبلة فقد صارت جسدا بغير روح بعد أن فقدت قلبها النابض ، ولم يبق فيها ما يخيف سوى شكلها الرهيب .

وعاد الخبراء والضــباط الانجليز بغير ان يبدو عليهم أى أثر للخجل . وعدلا وانصــافا فان الفرار من قنبلة حية ليس فيــه ما يخجل .

ولا تسل عن القبلات والأحضان التى أحاط الانجليز منقذهم بها . ولقد رفعوا جميعا قبعاتهم اكبارا له وراحوا ينشدون « فورهى از ابة جولى جود فيلو » (انه لشخص ظريف) ثم هتفوا له ثلاثا .

وحين راح الكل (انجليزا وعفاريتا) يستفسرون عن الأكاديمية الفرقعانية التى خرج منها بذلك العلم الرهيب ، الذى استطاع به أن يغطس تلك القنبلة الربع ذرية ، كان جوابه هو أنها مجرد هواية ، بدأت معه منذ الطفولة بالبمب ومدفع الفل (بكسر الفاء) ومسدس الكبسول و « صواريخ شمس وقمر » ، ثم تطورت ـ بعد تخرجه . . عفريتا مدفعيا ـ الى هواية القذائف والقنابل والألغام وت.ن.ت وسائر المفرقعات .

وحين سئل عن شعوره وقتما كان يزغزغ القنبلة فى بطنها ، أجاب « ولا حاجة » .. فدهش صاحب السؤال وقال « والقنبلة .. والانفجار ؟ » . فأجاب العفريت « أنا أصلى واخد على قنابل وانفجارات أرهب بكثير » ... فسئل « ازاى ؟ » فأجاب « اولا .. عندك مراة أبويا » ، فصاح العفاريت فى جزع « يا منجى من المهالك » فقال « وثانيا .. أنا ساكن مع ماى ماذر ان لوو (حماتى) » ، فهتف الانجليز فى فزع « ذات اكسبلينز افرى ثنج » (هذا يفسر كل شىء) ..

نحو الأمية

فى الأربعينيات كانت نسبة الأمية فادحة بين صفوف الشعب، وبالتالى فانها فى الجيش كانت كذلك .

ويذكر الكاتب انه كان للمربى الكبير مظهر سعيد فضل عظيم فى لفت الانظار نحو ذلك الداء الخطير وفى التصدى لعلاجه فى المدن والقرى ، وقد استجاب الشباب لنداءاته وتطوعوا لأداء ذلك الواجب النبيل .

وبينما كانت اللجان تنعقد لتنفض وبالعكس ، فى مختلف الجهات الحكومية ، على سبيل المساهمة ولو فى الظاهر ، فى مشروع محو الامية ــ الذى أطلق عليه بعض المتفكهين اسم « نحو الأمية » ــ فان الجيش لم يتردد فى اتخاذ قرار فورى بهذا الشأن . وفى خلال ايام قليلة انشئت ادارة خاصة بالمشروع ، وبدات عملها بعقد فرقة للضباط المرشحين لتولى هذه المهمة فى الوحدات .

وفى احدى الوحدات كان يوجد عفريت أديب ، كان مشهورا بتوليف الكلام الحلمنتيشى مثل قوله :

لمن الهوى والحب ياقطقوطة ومن الذى يبقى يصفى القوطة

الا حبيبة مهجتى، بنت التى	ليست تسلمها بلا زغروطة
ان كان ذاك فاننى متعهـد	بالدبلتين وشـبكة لعلوطة
والمهرـ نصف المهر بسـ بدفتر	وفرت فيه المال من أسيوطة
والنصف محجوز لاجل مؤخر	يلتف من حولى كما الأنشوطة
كالاحتياط او الرديف نعوزه	فى شن حرب أو لنمنع شوطة
وعلىّ عهـد الله الا ارتدى	ثوب الطلاق ولا أفك الفوطة
فاستعجلى امر الشوار وهللى	كى أصبحن وتصبحى مبسوطة

ونبادر هنا بتفسير ما يكون قد خفى على القراء من هـذه القصيدة العصماء . فنقول ان « أسيوطة » هى « اسيوط » ، التى يقع بجوارها معسكر « منقباد » . وفى ذلك المعسكر النائى لا يجد الضـابط بدا من التوفير . وعن « الفوطة » نقول ان العفريت كان من هواة لعبة « الطرة » . أما « الشوطة » فهى الكريرة (الكوليرا) عليهـا لعنة الله والملائكة اجمعين . . وكانت قد تسللت من المعسكرات الانجليزية ـ فى القرين ـ سنة ١٩٤٧ واستطاعت ان تجتاح القطر وان تغتال عـددا كبيرا من المواطنين ، وكان شعارها هو « الاسهال التام والموت الزؤام » .

ومع أن كل الأجهزة قد تصدت لتلك الشوطة الرهيبة ، فان الفضل الأكبر فى اخمادها وفى احباط مساعيها الشريرة كان للجيش وحده . فقد طوق المدن والقرى بالكوردونات وأقام الكارنتينات وغمر القطر بفرق التطهير .

ولولا تلك الجهود لتمكنت الكوليرا من تحديد النسل تحديدا مبرما ، فليس باللولب وحده تتقلص عدد السكان . .

ونعود لموضوعنا فنقول ان قائد الوحـدة كان يستمتع بأشعار العفريت ويحسن الظن بمواهبه . ولذا فانه رأى فيه خير منقذ من الأمية ، ورشحه لحضور الفرقة التى انعقدت لمحوها .

وحضر العفريت الفرقة واستطاع بكل سهولة أن يقلبها « باللو » بأشعاره التي كان ينسبها بكل جراة لعتاولة الشعراء من امرىء القيس ونازل . حتى انه نسب الى ذلك الشاعر الجاهلي انه كان من انصار محو الأمية ، وادعى انه اشاد بذلك في معلقته الشهيرة . فقال :

مكر مفر مقبل مدبر معا
كيوبو رماه السواد بالخيط من علٍ
يكافح جهل الشعب جهلا مربعا
يخلي كثيف الذقن يبقى قرندلي
ولكنما اصبح الأمر عكسما
وحل محل العلم شيء شمردلي
تشبشب فيه الست سحرا لزوجها
وتشبع يوم الزار بالرقص بالبلي (١)
فاذ لم يلاقي ذاك الشعب نجدة
تخلي بناء البيت غير مخلخل
وتعطيه علما يفلق اليوم ذرة
ويجعل عقل الناس غير مكعبل
ويمحو له أمية مثلما البلا
ليصبح حرا من قيود التجهلل
فسوف يطاطي ذلك الشعب راسه
ويمشي سريعا في طريق التحللْ
وسوف يولي وهو يمشي بظهره
ليصبح عن ركب الحياة بمعزلٍ
فتديه أوروبا قماشا مهلهلا
وتلهف منه القطن بالبخس يا علي

---

(١) Belly يعني بطن

وتسحب منـــه الجاز نورا وطـــــاقة
فيبيضُ فيها الليـــل ، والصبح ينجلى
ويمسى نهـــــار الشعب كحلا وضلمة
وتخلو غصون البـــان من أى بلبـــل
اذا لم تكن لى والزمان مشــعلل
فلا خــير فيكم والزمان ســــبهللى

واعجب من شأن العفريت ، كان شأن بعض طلبة الفرقة الذين صدقوا أن امرىء القيس يمكن ان ينظم مثل ذلك الكلام الذى يستحيل أن يرضى أبأس شعراء الربابة بنسبته اليه . وفى اعجاب وانبهار كان هؤلاء الطلبة ينقلون عن العفريت تلك الأشعار ويذيعونها بين الناس . ولقد تعرض واحد منهم بسببها لأزمة دؤلية (١) . وكان ذلك عندما راح ينشد الأبيات المشار اليها بعاليه فى مقهى الفيشاوى . ولسوء حظه فان بعضا من أحفـــاد سيبويه كانوا يحتلون المائدة المجــاورة فدخلوا معه فى معــركة فورية ، واتهموه بالشعوبية . ولقد انزعج العفريت من ذلك الاتهــام لأنه حسب أن الشعوبية هى من الأمراض العقلية ، ولذا فانه ناول أقرب سيبويه ضربة فنيــة من ضربات « التكتيــك العنيف » ، وكاد ان يتبعهــا بأخرى لولا أن بادر سيبويه دبلوماسى فأكد له براءة القصد والنية . ولم يتردد ذلك الديبلوماسى ــ بعد ان راى كيف كادت قبضــــة العفريت أن تفتح صدر زميله فتحا مبينا ــ فى التخلى عن التفسير الأصلى للشعوبية وفى استبداله بتفسير يربط بينها وبين الوطنية برباط وثيق .

وكانت النتيجة هى « دور شاى أخضر » على حســــاب العفريت . ونعود الى العفريت الأديب فنقول انه بقـــدر ما كان مصدر بهجة وترويح عن زملائه ، فانه كان مصدر رعب للمدرسين

---

(١) نسبة الى ابى الاسود الدؤلى .

المدنيين ، الذين رأوا فيه خطرا على مهنتهم . وكان احدهم يقول ان قصائد العفريت لا تقل فى طاقتها التدميرية عن القنابل الذرية . وعندما أحس العفريت بسخط المدرسين عليه ، وبما يمكن ان ينتهى اليه ذلك السخط من ترسيبه واعادته الى الوحدة صفر اليدين ، فانه لم يتردد فى تناولهم واحدا بعد الآخر بتهديدات كان أخطرها هو « استصدار أوامر تكليف وتعيينهم برتب لا تزيد عن رتبة شاويش مكلف » . وحين استفسر واحد منهم عن ماهية الشاويش وعلم أنها لا تتجاوز ــ فى أحسن حالتها (وقتها) ــ جنيها واحدا فانه لم يتردد فى منح العفريت كل ما كان يحتكم عليه من الدرجات النهائية .

وفى حفلة التخرج فاجأ العفريت زملاءه ومدرسيه بقصيدة كانت تتناقض فى بلاغتها مع سوابقه الركيكة وتتناقض فى كآبتها مع سمعته التهريجية ، وها هى أبيات منها :

يا نديمى اين كأس الحب منى   فالجحيم المر قد أفرغ دنى
حــرت ما بين التأسى والتمــنى
اين شعرى اين خمرى اين فنى
ضـــاع قيثارى وغاب اللحن عنى

وتلك نفثات تدل على أن العفريت كان يطوى ضلوعه على هم مقيم . . . ومن ذا الذى يخلو من الهموم .

ونعود الى محو الأمية ، فنقول ان العفريت عاد الى وحدته ــ بالاسكندرية ــ بدرجة الامتياز وعلاوة مقدارها جنيهــان فى الشهر ــ كانت هى العلاوة التى قررتها القيادة لضباط المشروع ــ . ونظرا لأن العفاريت بطبيعتهم كالأشعريين الذين يتقاسمون طعامهم بالسوية ، فان تلك العلاوة راحت تدخل فى جيوب زملائه «الدفعة» بالدور . وكم من خلة سدتها تلك العلاوة الأمية ، وكم من سهرة أحيتها ، وكم من رانديفوه انقذته من الضياع ، وكم من عفريت بيضت وجهه فى محطة الرمل .

ولقد تعاون كل العفاريت فى كل الأسلحة على النهوض بمشروع محو الأمية . ومع ان المشروع لم يحقق النتائج المرغوبة (١) على مستوى الشعب ، فان نتائجه فى صفوف الجيش كانت افضل على كل حال . ويرجع ذلك فى المقام الأول الى طبيعة النظــــام العسكرى الذى يؤمن بانتظام الدروس ويوفر الأدوات والوسائل بسرعة ودقة لا تتوافران فى الحياة المدنية ، كما انه يرجع الى طبيعة العفاريت من حيث وفرة الحيوية والطاقة ومن حيث التصميم على تحقيق الرسالة وبلوغ الهدف .

أما عفاريت هذه الذكرى فانهم مروا ــ بالنسبة لمحو الامية ــ بثلاث مراحل كانت أولاها « آخر رعب » وثانيتها «آخر انسجام» وثالثتها كانت « آخر عفرتة » . ونتناول المراحل الثلاث بنفس ترتيبها السابق .

فقد انعقدت الحصة الأولى برعاية قائد اللواء . وهنــاك فى صالة الطعام وقف اللواء ــ وكان عفريتا مفترسا ــ وبدلا من أن يبــدأ بالبسملة والحمــدلة ثم يدخل فى الموضــوع كأى خطيب كلاسيكى ويشــيد بالمشروع وفوائده وكيف أن « العلم نور » ، اذ به ينطلق راسا على درب زياد بن ابيه .. فقد هجم على الحاضرين بخطبة بتراء بداها بسب الأخضرين للجهالة الجهلاء والضـــلالة العمياء ، ثم زجر بيده كما كان يفعل الحجاج بن يوسف ، وراح يعلن انه ابن جلا وطلاع الثنايا وانه يرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها . ثم اعلن انه سوف يقطف هذه الرؤوس ، ابتداء من رأس قائد الوحدة وانتهاءا برؤوس العساكر ، اذا لم تنمح الأمية بنسبة ٥٠٠٪ . ثم غادر المنصة وجلس فى متعد الصدارة وهو ينفث لهبا عفاريتيا كثيفا .

---

(١) يعتقد الكاتب أن العقبة الكبرى امام جهود محو الامية تتمثل فى الاصرار على الانتقال بالاميين من الأمية العامية الى الزمخشرية الفصحى .

ووقف العفريت الأديب ـ وقد ركبه الرعب ـ وراح يشرح المشروع ويحاول ان يصلح ما أفسده الحجاج . فقال عن المشروع ما قاله مالك فى الموز (١) ، ثم فسر تهديدات « سعادة الباشا » (٢) بأنها تعبر عن مدى اهتمامه بالقضاء على داء الأمية الوبيل .

وهنا صاح العفريت اللواء « داء وبيل واللا داء هابيل .. لازم كل عسكرى يقرا الأهرام قدامى والا ماحدش حاينفد من ايدى » .

وفعلا أحدثت تلك التهديدات المرعبة أثرها المنشود . فلم تعد تظهر فى الوحدة غير جريدة الاهرام ، ورؤى بعض الجنود وهم يقرؤونها بالمقلوب . وصرت لا تسمع فى الوحدة سوى ترانيم الحروف الأبجدية .. « الف فتحة أ » ، وتراتيل « ابجد هوز حطى كلمن .. » . وحتى قائد الوحدة كان لا يسأل الا عن صحة « زرع وحصد » ، حتى صار الجنود يتهربون من مواجهته ، أما العفاريت الضباط فكانوا يبادرونه بالتمام قبل أن يسأل عنه « تمام يا فندم الفصيلة حفظت لحد قاف » . فكان القائد يصرخ « انت موش مدينى تمام عن قاف من يومين .. نوبتجية زيادة يا أفندى »

فى خلال تلك المرحلة كان الرعب هو طابع الحياة فى الوحدة .. ولقد أثبت ذلك الرعب جدواه ، واثمر حفظا صما للابجدية . ومن ساعتها بدات المرحلة الثانية . فصارت الحياة فى الوحدة سعيدة ، وصار الجنود (من حملة الأبجدية) يحصلون على امتدادات فى الأجازة والتصاريح ، وصار العفاريت يتبادلون اخبار تقدم الجنود فى القراءة والكتابة باهتمام يفوق اهتمامهم بأخبار محطة الرمل ..

---

(١) قال انه من ثمار الجنة .

(٢) الترقية الى رتبة اللواء ـ وقتها ـ كانت تصاحبها براءة الباشوية .

اما عن العفريت الأديب فقد انتفع ايما انتفاع من المشروع . وكان يكفى أن يطلب مبـادلة نوبتجيـة مع أى عفريت آخر لكى يوقع الآخر على ورقة المبادلة بغير أدنى تردد . وكان السر فى ذلك الخضوع التلقائى كامنا فى قدرة العفريت على سحب المعلم الممتاز من هـذه الفصيـلة أو تلك .. الأمر الذى كان يمكن أن يهـدد ال ٥٠٠٪ (التى طلبهـا العفريت الباشا) تهـديدا يتعرض به قائد الفصيلة لقطف رأسه صبرا ..

ولقد كان ضابط الميس أكثر العفاريت خضوعا للعفريت الاديب لأن فصيلة الأول كان معظمها من الجنود المستجـدين ولم يكن بها ـ لسوء حظه ـ من سبق له أن فك ولا عقدة واحدة من الخط ، وبالتالى فانه كان أحوج العفاريت الى عون العفريت الاديب . ولهذا السبب فان طبقا جيد التحبيش كان يصـل الى الأديب فى حجرته كل ليلة بعد « نوبة رجوع » .

وجاء دور المرحلة الثالثة وكانت هى مرحلة الامتحان الذى يكرم المرء فيه أن يهـان . وكانت بدايتهـا هى هبوط اللواء هبوطا مفاجئا على الوحدة . وكان ذلك لأنه فوجىء بخطاب رسمى ينبئه بان لجنة الإمتحان فى طريقها الى الاسكندرية .

وانتهى مرور اللواء على خير لأن الجنود كانوا قد اجادوا حفظ الأبجدية وكتابتها . ولو كان اللواء قد راجع برنامج المشروع لكان قد تبين ان قراءة الكلمات والجمل كانت هى مربط الفرس فى المشروع . ولكنه ـ لحسن حظ العفاريت ـ كان قد القى باهتمامه كله الى الابجدية . ولقد تنفس العفاريت الصعداء وهم يعظمونه عند مغادرته للوحدة . وما ان اجتازت عربته « القرة قول » وتلقت منه « عظيم سلام » حتى هتف العفريت الأديب فى ابتهاج « مدد يا أم العواجز » . ومن بعده صاح ضابط الميس « لو

كان الراجل سأل فصيلتي عن جملة واحدة لكان قطف راسى وعملها صيادية » .

وجاءت لجنة الامتحان وكان على رأسها عفريت قائمقام ، كانت شهرته فى « محو الامية » قد بلغت المشرقين . وكان لا بد للعفاريت من استحضار كل ما فى طاقاتهم من الفنون العفاريتية لكى يخرجوا من بين يديه بالـ ٥٠٠٪ المطلوبة .

ومع ان النتيجة فى حقيقتها كانت تدخل فى نطاق ٦٠٪ على الأقل فان شبح الحجاج ابن يوسف كان كافيا لان يجعل العفاريت يستقتلون فى سبيل الوصول بها الى اضعف الايمان وهو ١٠٠٪ .

وكانت أول لعبة للعفاريت هى دعوة لجنة الامتحان الى عشاء طيب . وفى خلال العشاء تمت سرقة حقيبة العفريت القائمقام . وبعد « نقش » الأسئلة والذى منه أعيدت الحقيبة الى مكانها بسلام .

وفى اليوم التالى دخلت اللجنة وكتبت على السبورة قطعة ادبية كانت من الهـــول بحيث يمكن ان يختل توازن ابن المقفع أثنـــاء قراءتهـــا . وكانت القطعـــة تبدأ ببيت من الشـــعر الوطنى يقول :

لا القـــوم قومى ولا الأعوان أعوانى
اذا ونى يوم تحصـــيل العلا وانى

ولكن تلك القطعة لم تفزع العفاريت فى شىء فقد كانوا قـــد قضوا الليل فى تحفيظ الجنود اياها حتى صار كل منهم يرددها بأفصح من كروان الاذاعة (١) .

وراحت اللجنة تستدعى الجنود واحدا بعد الاخر وتمتحنهم ، ثم تصفق اعجابا بقراءاتهم البليغة . اما الأديب وسائر العفاريت

---

(١) هو محمد فتحى . ومن الذى ينسى اغرودته الخـــالدة « كل شىء رائع البهجة حولى ها هنا » .

فقــد راحوا يفركون ايديهم في ارتيــاح ويتواعــدون على الاحتفال بالنتيجة المرتقبة بسهرة فى « نادى الجحيم » (٢) .

وبينما كان الامتحان يسير من حسن الى احسن ، واللجنة توزع على الجنود أوسمة « شاطر » و « جدع » جاء الدور على جندى كان هو الفافورية ، لأنه كان أسرع الجنود حفظا وكان العفاريت يعلقون عليه أملا كبيرا . ودخل الجندى وهو فى غاية الحماس . ولكنه ما كاد يخطو من باب القاعة (وكان ظهر السبورة يواجه البــاب) حتى راح صوته يلعلع بالبيت المقفعى

لا القوم قومى ولا الأعوان اعوانى ...

وبذلك انفقس الملعوب ، وهمس أكثر من عفريت « رحنا فى أبو نكلة » ، وزعق القائمقام « بقى كده ؟ » .. ، ثم قفز الى السبورة وراح يوجه اليها ضربات عنيفة « بالبشـــاورة » حتى محا البيت والقطعة ثم استبدلهما ببيت اهول وقطعة أشد تقفعا وكان البيت يقول :

اصالة الراى صانتنى عن الخطل وحلية العقل زانتنى لدى العطل

وقسما .. لو كان فؤاد المهندس هو الجندى الذى دخل بعد ذلك لما استطاع أن يضيف الى كوميدية الموقف أكثر مما حــدث وقتها . فقد راح الجندى – وقد اشتم روائح الخطر – يدقق النظر فى السبورة ثم يقرا متئدا « لا .. تق .. ربوا .. ال .. نيل » ، وكذلك فعل سائر الجنود من بعده ، تاركين « أصالة الرأى » تنعى مؤيد الدين الطغرائى (١) » .

---

(٢) هو ناد خاص بالعفاريت وعنوانه من اسرارهم .

(١) هو الشاعر الذى نظم ذلك البيت .. ولا يزال العفريت الاديب عدوا له حتى الآن .. وكانت فرحة عفريت المبس طاغية حين علم أن الشــاعر مات مقتولا

وجاء قائد الوحـدة ليطمئن على النتيجة . فاطمان فعـلا على ضياع اجازته السنوية أما العفريت الاديب فراح يسأل عن مقـدار مرتب الاستيداع ...

ولكن القائمقام كان انسانا حسن الادراك ، ثم انه كان أيضا من « دفعة القائد » ولذا فانه طوى أوراقه وأعلن عن تأجيل الامتحان لمدة اسبوعين . ثم عاد بعدهما وهو متشبث تماما بحقيبته .

وكانت نتيجة الامتحان هى ٧٠٪ .

ولدهشة العفاريت الكبرى وقف الباشا اللواء فى حفلة اعلان النتيجة وقد تخلى عن عمامة الحجاج وصرف النظر عن قطف الرؤوس وتطليع الثنايا . وبعد حمد الله والثناء عليـه ، أعلن عن رضـائه العفاريتى عن النتيجة ، ومنح كلا من العفـاريت الشـبان أجازة استثنائية وضم الى ملف العفريت الأديب خطاب شكر وتقدير .

وكان ختامها مسكا .

ســـــنوهوايت والعفاريت السبعة

المفروض فى العفريت ـ بالاضافة الى سائر مؤهلاته الأخرى ـ أن يكون قوى الملاحظة ، وقادرا على أن « يفهمها وهى طايرة » . أما أن يصدق « اى كلام » وان يأخذ معلوماته من السينما ، فانه يستأهل عندئذ ما يجرى عليه . وهذا هو ما حدث بالضبط لعفريت معين .

ففى يوم مثلج من أيام شتاء سنة ١٩٤٧ كان ملازم عفريت عائدا (من اجازة خاطفة) الى وحدته بالاسكندرية . وكان الافلاس قد اضطره الى القيام بتلك الاجازة ، التى قدم فيها فروض الطاعة الى السيد الوالد ، ومعها استرحام يفيد بانه « طالب من الله ولا يكتر على الله » . . واذا علمنا بأن مرتب الملازم الثانى وقتها ـ بعد كافة الخصومات الأميرية ـ كان يقف عند رقم محدود من الجنيهات ، فان الاجازة والاسترحام يكون لهما ما يبررهما . والواقع هو أن مرتب الملازم وقتها كان رمزيا أكثر منه واقعيا ، وكأنما كان من المفروض على الملازم أن يعيش على الماء والهواء ، أو أن يكون من سلالة مليونير امريكانى (وسوف يتضح من الأحداث التالية سبب ادخال ذلك المليونير طرفا فى هذه الذكرى) . ونتيجة لذلك فانه كان من التقاليد الثابتة أن يعود العفريت من مثل تلك الاجازة ومعه

« الزاد والزواد » فيعطى زملاءه مما اعطـاه الله ، ثم ينطلق منهم واحد لأداء فريضة الزيارة بدوره وهكذا دواليك .

على ان ذلك بطبيعة الحال لم يكن هو شأن كل العفاريت فقد كان من بينهم من يمت الى البنك الأهى بسبب أو بآخر ، كأن يكون سليلا لأسرة «متريشة» او ابنا لواحد من الحكام ، الخ اسباب الثراء. واذا كان صحيحا ان البعض من هؤلاء كان ـ بحكم الغنى والدلال ـ عفريتا رهيفا ، او انه كان من البشر الذين قال فيهم عفاريت شوقى الشـاعر :

وكم متعـوذ بالله منـا   تعوذ الأرض منه والسـماء

اذا كان ذلك صحيحا ، فانه من الصحيح ايضا القول بأنه كان من بين هؤلاء الأخيرين عفاريت أصلاء أدوا واجبهم على احسن ما يكون ، وكان منهم أبطـال وشـهداء . وعذرا فقـد سرح القلم والحـديث ذو شجون . ونعـود الى العفريت الملازم فنقول انه قصد الى شباك الدرجة الثانية ـ فى محطة مصر ـ وقطع التذكرة النصفية المعتادة .

ونظرا لأن العفاريت متعودون على ركوب الدرجة الأولى ، فان عفريتنا قصد الى صالون خال بالدرجة الثانية وانزوى فيه ، على نية ان ينتقل الى الدرجة الأولى وينزل منها فى سيدى جابر .

وما كاد ناقوس القيام يدق حتى فوجىء العفريت بحقيبة طائرة وهى تدخل عليه من النافذة ، فتلقاها بيديه قبل أن تصيب رأسـه الثمين . وقبل ان يقرر ماذا يفعل بها وقعت فى حضنه حقيبة ثانية ثم اطلت من ورائها لحية لا يقل طولها عن ربع متر ، ومن تحت اللحية جاءه صوت يقول « بليز سير » (من فضلك يا سيدى) . ثم انفتح باب الصالون واطلت منه نسخة طبق الأصل من « قمر أربعتاشر » . ومن ثغر كان فى حجم النبق ولون التفاح ، ومن وجه كان فى بياض

« سنو هوايت » تلقى العفريت « بليز » ثانية وحقيبة ثالثة وبديهى انه اختار ان يتعاون من النبق والتفاح فرمى بحقائب ذى اللحية وتناول حقيبة سنو هوايت ووضعها بكل اعتبار فوق الرف ثم تناول منها حقائبا اخرى كثيرة واكياسا اكثر وقام برصها كأمهر عمال المانيفاتورة .

ثم جلست سنو هوايت بجواره وراحت تشكره بالأمريكية الفصحى . وبجوارها جلست سيدة نصف ومعها اطفال عديدون وامامهم جلس صاحب اللحية ومعه اطفال اكثر عددا ، وكان الجميع اسرة واحدة .

وطبقا لنظرية عبد الوهاب فى « وابور الوادى » فان العفريت وسنو هوايت وصاحب اللحية دخلوا فى سؤال وجواب « وبعد شوية صبحوا احباب » .. فعرفوا انه لفتنانت وعرف هو انهم من طائفة الكويكرز ، وهى طائفة تمارس طقوسها بطريقة الاهتزاز .

وكانت الأسرة فى زيارة لبعثة كويكرية فى كينيا وفى غيرها من بلاد الله .

ومن هنا فان الظنون لم تخالج العفريت فى حيثية الكويكرى ، فقد كان الاخير امريكيا صرفا . ولقد خطر فى بال العفريت فى بداية الأمر انه من الغريب ان يركب الأمريكان فى الدرجة الثانية، وهم القوم اللذين « يلعبون بالفلوس لعب » . ولكن سنو هوايت أفهمته أن « دادى » ذو طبع ترابى وانه رجل عطاردى لا يرى فرقا بين الدرجة الأولى والثانية وانه يعمل فى « الرانش » (العزبة) بيديه مع انه يحتكم على عشرة آلاف راس من البقر . وعلى حساب أن سعر الأقة وقتها كان فى حدود « بريزة » ــ قائم ــ فان الكويكرى يكون «عاكما» على نصف مليون اهيف بالراحة . وتلك كلها كانت حسابات العفريت .

وكان رد الفعل التلقائى هو انه راح يحدث سنو هوايت عن الابعاديات التى تمتلكها أسرته وعن العشرين ألف بعير التى يقتنيها والده .. « ومافيش حد أحسن من حد » .

على انه فى قرارة نفسه كان منزعجا من حكاية النصف مليون ، وكان يخشى أن يحول ثراء سنو هوايت بينها وبين قبول الدعوة لزيارة حديقة انطونيادس . وهى حديقة تتميز بكثافة أشجارها ، وبخلوها أيضا من الزوار فى مثل ذلك الوقت من السنة .. ولذا فانه وجه اليها الدعوة بصوت مبحوح .. ولكنها اخلفت مخاوفه وقبلت الدعوة على الفور . وواعدته على اللقاء فى اليوم التالى فى صالة الفندق . ثم ابتسمت فى تواضع وهى تنبئه باسم الفندق .

ولكيلا نتعرض للوقوف امام الدائرة المدنية بسبب قضيةتعويض يشنها علينا ورثة صاحب هذا الفندق ، فاننا نكتفى بالقول بأنه يقع على مرمى حجر من محطة الرمل ، وبأن اسمه الافرنجى يعنى الغنى والثراء ، وذلك على طريقة مسميات الاضداد .

وعاد الفار يلعب فى عب العفريت . فلم يكن المقام بهذا الفندق المتواضع مناسبا لأمريكانى يملك ١٠٠٠٠ بقرة حتة واحدة . ولكنه رأى ان اسم الفندق يمكن أن يكون قد خدع الرجل النصف مليونير فرضى به فى الاسكندرية مقاما .

ولو لم يكن العفريت سينمائيا مزمنا ، بحيث لم يكن يرى فى الامريكان غير ما كانت تصبه الأفلام فى عقله من قصص الغنى الفاحش والثراء المهول والترف الخيالى .. لولا ذلك لما اكتفى يومها بظاهر الأمر ولما ابتلع حكاية الرانش والبقر . ولو أن عقله كان متحررا يومها من سيطرة هوليوود لكان قد تبين مظاهر الفقر المدقع فى ملابس الكوبكرى واسرته وفى الحقائب التى كان الكثير منها قد فقد تماسكه وصار اشبه بالبقج . ولو كان قد قام بالاستطلاع التكتيكى — الذى

كان واجبه كعفريت يفرضه عليه ـ لكان قد رأى فى القطار اشـياء أخرى كانت جديرة بان تجعله يؤثر السلامة وينزل فى اقرب محطة.

وقبل ان ندخل فى بقية أحداث هذه الذكرى نود أن نشير الى ان عشيرة سنو هوايت كانت تنتسب بالأكثر الى القوم الذين لا يسألون الناس الحافا والذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ..

أما عن مزاعم سنو هوايت (وكان اسمها الحقيقى هو جيرترود) عن الرانش والبقر فلا بد وانها كانت مزاعما صادرة عن رغبتها فى الوقوع على « ابن الحلال » وتلك رغبة مشروعة بغير شك ، وتزيد من مشروعيتها ـ يومها ـ تلك البحبحة التى انطلق فيها العفريت الى حد الاستيلاء على ٢٠٠٠٠ بعير بغير اذن أصحابها .. أضف الى ذلك انه كان ـ كأى عفريت آخر ـ قمحى اللون ممشـوق القوام مصقول القايش لامع الزراير مما جعله أقرب شىء الى أمير احـلام سنو هوايت .

ووصل القطار الى محطة سيدى جابر فنزل العفريت من الدرجة الثانية بين دهشة واستنكار العفاريت الذين كانوا بأنتظاره ثم مضى بهم بعيدا عن سنو هوايت التى كانت تطل ساعتها من نافذة القطار وهى تكاد ان تأكله بعينيها أكلا .

ومضى القطار واتجه العفاريت الى معسكر مصطفى باشا . وهناك ـ وللمرة الاولى فى تاريخ التقاليد العفاريتية ـ راح العفريت يتهرب من عملية توزيع ثروته بالعدل والقسطاس على زملائه المتلهفين . وراح هؤلاء يجادلونه بالتى هى أحسن ويخاطبونه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكنه عمل أذنا من طين وأذنا من عجين واصم اذنيـه عن توسلاتهم ، وسمح لهم فقط باقتسام كل ما جاء به من « منين » وفعلا وزع أحدهم المنين بعد ان قام بتفنيطه .. ثم عادوا الى العفريت وطرحوه أرضا واستولوا على ما كان قد جاد به الوالد الكريم وراح أحدهم ينشد :

يجود علينا الخيرون بمالهم   ونحن بمال الخيرين نجود

ولولا ان العفريت لم يتردد فى رفع كلتى يديه متوسلا لما حصل ليلتها على نصيبه المشروع .

وفى صباح اليوم التالى (وكان لحسن حظه يوم جمعة) كان يقتحم صالة الفندق وهو يمنى نفسه بنزهة قد يكون لها ما بعدها . وهناك كانت سنو هوايت تنتظره وقد ارتدت ثوبا كان – بمقياس العصر – فاضحا ، وان كان – بمقياس المينى والميكرو – يعد محتشما .

وبعد « الجود مورننج » و « والهاودويودو » سألها « ردى « مستعدة؟) فأجابت بالايجاب ثم أضافت أنها قد أعدت له مفاجأة . وللتو تخيل نفسه وهو بملابس الكاوبوى .. ليس فى امريكا وانما فى العزبة التى يمكن أن تكون هى هدية الزواج من الوالد الكويكرى الكريم ، والتى كان العفريت يرى أن انسب مكان لها هو زمام كفر أبو سالم . ، وابتسم لحظتها فى تواضع وراح ينتظر المفاجأة.

وكانت تلك المفاجأة هى جماعة امريكانية لا يقل عددها عن ثلاثين ما بين كهل ذى لحية وكهل غير ذى لحية ومسز كهل أول ومسز كهل ثان ، ثم أطفال كانوا كلهم – بقدرة قادر – ما بين الرابعة والتاسعة من اعمارهم المديدة . ونزل الكل عليه نزول الصاعقة وراح المساتر والمسزات يصافحونه بينما كان الأطفال يتنططون من حوله ويتجاذبون بدلته المدنية – التى كان مرسلته قد قضى الليل فى كيها – كما لو كانوا قرودا يتنازعون سباطة من الموز .

وراح يتلمس بعينيه تفسيرا لذلك ، فضحكت سنو هوايت وقالت ان دادى قد قبل (هو وسائر الطائفة) دعوته لزيارة المدينة . ودخل العفريت ساعتها فورا فى حالة كويكرية نموذجية ، وراح يهتز كما لو كان قد قضى عمره كله فى التكوكر .. على ان ذلك لم يجده شيئا

فقد هجم به « المساتر والمسزات والكيدز » على الشارع وهناك سألته سنو هوايت « على فين ؟ » وكان جواب العفريت هو همسة حائرة « أودى دول كلهم فين ؟؟ وأزوغ ازاى ؟؟ » . وحتى يعطى نفسه فرصة للتفكير سار بهم على الكورنيش . وعند محطة الرمل ناب عنه الكواكر الصغار فى اتخاذ القرار فقد هجموا على ترام الرمل واحتلوا طبقته العليا وهم يتصايحون . وقام الترام وجاء الكمسارى وانتظر العفريت على أمل أن يبادر صاحب الرانش بدفع الاجرة ولكن الاخير تصامم عن نداءات الكمسارى وتعامى عن نظرات العفريت المحرجة وكذلك فعل الآخرون . اما سنو هوايت فقد وجهت نحوه ابتسامة كانت من « الطعامة » بحيث لم يجد بدا مما ليس منه بد فدفع الأجرة فى استسلام .

وفى محطة كليوباترا نزل ومعه اهل الطائفة وهو لا يدرى اين يذهب بهم . وللمرة الثانية تولى الكواكر القيادة فراحوا يجرون آباءهم وامهاتهم نحو البلاج . وتنفس العفريت الصعداء وسار معهم وقد استعاد ثباته . فقد كان مطمئنا الى خلو البلاج فى الشتاء من الناس .

وفى البلاج راح الكواكر يلعبون وراح الكويكريون يهتزون طربا واعجابا بمنظر البحر وبنسيمه العليل . وعلى أقرب مقعد حجرى جلس العفريت وجيرترود وراحا يتناجيان .

وكانت جيرترود سنو هوايتية على أعلى مستوى حين راحت تبثه ارق العواطف وتعبر له عن سعادتها بتلك النزهة الرائعة ، ثم راحت تقلده عقود الشكر والعرفان .

وانتفش العفريت كالطاووس .. وبذلك صار جاهزا للضربة الكويكرية التالية . ولم تبطىء تلك الضربة فى المجىء . ففى نفس اللحظة التى كان قد اطمأن فيها تماما على أن الجنيهات الثلاثة

الراقدة فى جيبه الداخلى لن تتعرض لأكثر من ثمن تذاكر العودة . ومن بعدها ، فان تلك الجنيهات كانت قادرة على تحقيق نزهة « اسبسبال » له ولسنو هوايت . . فى نفس تلك اللحظة دوت فى اذنيه صيحة كالرعد « سميط وبيض . . سميط وجبنة » . وكما لو كان صاحب الصيحة من عفاريت الميانجة – الذين يظهرون فى الزارات تلقائيا – ظهر بائع السميط وكأن رمال البلاج قد انشقت عنه . وفى مثل لمح البرق كان القرود الكواكر قد هجموا على سبت السميط وتخاطفوا محتوياته ، حتى تركوه سبتا صفصفا . ثم جاء أكثر من مستر رمسز وراحوا يصافحون عفريتنا شكرا وامتنانا على تلك المفاجأة الفرعونية الكريمة . أما سنو هوايت فقد راحت تنظر اليه فى وداعة الملائكة وتضم يده بين يديها وهى تناوله « ثانك يو » بعد « ثانك يو » . واستسلم العفريت لقدره ومد يده بجنيه البائع وهو يحسب انه سوف يسترد من الجنيه ريالا على الاقل . ولكن البائع قال له فى برود « يلزمنا كمان جنيـــه ونص يابيه » فسأله « ليه ياأخ ؟ » فأجاب وهو يعد على أصابعه « عندك بالعدد خمسين سميط وبيض وجبنة وشكولاته ونداغة . . والدقة والملح علينا » . ونظر العفريت فوجد فى يد كل طفل (وكل كهل وكل كهلة) سميطة وبيضة وجبنة وشيكولاتة ونداغة وورقة دقة ، وحتى نفس تلك التشكيلة كانت فى يد سنو هوايت ايضا ! ! !

ودفع العفريت المبلغ وفقدت هوليوود ساعتها – الى الأبد – واحدا من خيرة زبائنها . ولكن خسارة هوليوود لم تقتصر يومها على عفريتنا وحده . فقد عاد بسنو هوايت وعشيرتها الى الفندق ، بعد أن تحولت هى فى نظره الى « ريا أو سكينة » . . وبعد ان تحـول بنو كويكر فى نظره من زهاد ورعين الى قوم أشعبيين . وعلى باب الفندق أكدت عليه سنو هوايت بأنها سوف تنتظره فى الصباح التالى فوعدها بالحضور وهو يقسم بينه وبين نفسه ألا يرى لها وجها بعد اليوم .

وفى الميس استقبلته نظرات الاستغراب من زملائه ، بسبب عودته المبكرة . فقد كانت كمية الأناقة التى خرج بها فى الصباح دليلا لا ينقض على انه كان فى طريقه الى رانديفوه مفتخر .

وعز على العفريت أن يصارحهم بانه خرج من الرانديفوه مدحورا ومصابا بثلاثة جنيهات ، فالتفت اليهم ، ثم اسال لعابهم بقصة رومانتيكية كانت ملفقة من اولها الى آخرها ، ثم راح يتأسف على عجزه عن ملاقاة سنو هوايت فى اليوم التالى بسبب ارتباطه بمأمورية صرف مهمات . وللتو تدافع العفاريت متطوعين لأداء واجبالضيافة نحو سنو هوايت العزيزة . وبعد تمنع ، رضى العفريت أن يوكل ذلك الواجب لعفريت بور سعيدى فى مقابل « جنيه وطقم زراير وتوكيل نوبتجية » . .

وبكل اختصار نقول أن العفريت البور سعيدى عاد فى ظهر اليوم التالى وقد خسر الجلد والسقط . ولكنه تجلد كما تجلد أخ له من قبل . ثم منح سنو هوايت لعفريت منياوى « بجنيه وبنطلون ركوب » .

وقبل ظهر اليوم الثالث بساعات عاد المنياوى بعد أن جردته سنو هوايت وبنو كويكر حتى من اجرة العودة .

ولم يتورع ذلك المنياوى عن بيع سنو هوايت وعشيرتها بالمزاد العلنى ـ بينما كان الثلاثة السابقون يتكاتمون الضحكات ـ وظلت العجلة دائرة حتى بلغ عدد ضحايا سنو هوايت سبعة عفاريت ولولا أن الباخرة التى كان مقررا لها أن تقلع ببنى كويكر وصلت بعد أيام ، وحملتهم الى حيث ألقت لحل الخراب بكل عفاريت معسكر مصطفى باشا .

وبقدر ما خسرت هوليوود يومها العفاريت السبعة ، بقدر ما كسبتهم السينما المصرية . وتلك حسنة تحسب لسنو هوايت بغير شك .

ليلة الهبلى ببلى

كان عفريت هذه الذكرى من اعدى اعداء « الهبلى ببلى » بفتح الهاء فى الأولى والباء فى الثانية .

ولما كان « اللى ما تعرفه تجهله » فان جهله بالهبلى ببلى دخل به فى موقف رهيب ، ثم خرج به من نفس الموقف .. معززا مكرما ، وكذلك أضاف الى ملف خدمته عددا من خطابات الشكر والتقدير .

ونظرا لأن سلامة الجرة ليست مؤكدة فى كل مرة ، فاننا نؤثر أن نعرف القارىء بهذه الهبلى ببلى ، حتى لاتدخل به ذات يوم فى تهمة قد لا يخرج منها بأقل من عشر سنوات فى « أبى زعبل » . وبكل إختصار نقول ان الهبلى ببلى هى الجوزة التى هى من الهند ومركب عليها غاب .. وكفى بذلك تعريفا .

وكان ذلك فى عام ١٩٤٧ ، وهو العام الذى بلغت فيه المظاهرات والاعتداءات على جنود الاحتلال حدا أجبر الحكومة البريطانية على سحب قواتها من كل انحاء القطر وتركيزها فى منطقة القنال . وللتو بدأت سلسلة من حفلات تسليم وتسلم المعسكرات بين القوات البريطانية والقوات المصرية . وفى تلك الحفلات كان يصطف حرس

شرف من الجانبين ثم كان يهبط «اليونيون جاك» (العلم البريطانى] على دوى الطبول الاسكتلندية وعلى تزمير الآلات النحاسية بسلام « جود سيف ذاكنج » (حفظ الله الملك) ، ثم يرتفع العلم المصرى على « البندارى » بين عزف « السلام الملكى »وزئير العفاريت « تحيا مصر » .

وللتاريخ نسجل ان ذلك الزئير لم يكن مقررا فى مراسم الاحتفالات وانما كان المقرر هو نشيد يقول أيضا « حفظ الله الملك » وكان ذلك النشـــيد نسخة أراد بها المنافقون أن يجاملوا مــلك مصر ، فكانت النتيجة هى انهم عرضوه لسخريات رهيبة . وبيان ذلك هو ان ذلك النشيد كان يقول :

حفظ الله الملك	ورعى الله حماه
عاهل فى ظـله	بلغ المجد مداه

وحين فرض ذلك النشيد فرضا على العفاريت ، فانهم راحوا يدربون الجنود على حفظه بنصه وفصه ، مع استبدال حرف اللام فى « عاهل » بحرف الراء . واذا كان الضباط قد ارتكبوا ذلك الخلط مع سبق الاصرار والترصد فان الجنود كانوا يقومون بعملية خلط أخرى ــ بدون جصدوحج الله ــ . فقد كانت كلمة غاهل من الفصاحة والتقعر بحيث لا تعنى لديهم شيئا محــــددا ولذا فانهم تطوعوا بتصحيحها عن طريق استبدال حرف الألف والهاء بحرف اليــاء المشددة . وبذلك كانت تلك الكلمة تدوى فى الحفلات والتشريفات، مرة بحرف الراء ومرة بحرف الياء ، ونعوذ بالله من شر الخلط وسوء المنقلب .

واذا كان العفاريت فى عمومهم قد اختاروا من تشـويه النشيد سبيلا الى التعبير عن رأيهم فى الملك ، فان واحدا منهم قد اختــار الطريق الصعب ، فعبر عن رأيه فى صاحب الجلالة بصفعة على خده الملوكانى .وكان ذلك فى ملهى الأوبرج .

فقد حاول جلالته ان يستولى على حسناء امريكية كانت قد ذاقت على يد العفريت « حنان الحب وقساوته » وحين رفضت الحسناء دعوة الملك للرقص راح هذا يعاود الدعوة فى الحاح فكان الرد هو الصفعة التى اتحفه بها العفريت وخـــرج فى مقابلها الى الاستيداع سنتين . وهو الآن سفير لامع .

ونعود الى حفلات التسليم والتسلم فنقول ان موضوعها كان هو المعسكرات التى كان الانجليز قد نزلوا فيها ضيوفا ثقلاء لمدة ٦٥ سنة والتى كانت تخرج تماما عن نطاق السيادة المصرية ، وكان لا يدخلها من المصريين الا طائفة العمال (فى الورش المختلفة) وطائفة الجناينية (للعناية بالحدائق) ، وكان لهذه الطائفة الأخيرة الفضـــل الأكبر — ان كان يعد فضلا — فى أحداث هذه الذكرى .

وبذلك كان نزلاء هذه المعسكرات (انجليزا كانوا ام مصريين) محصنين ضد القوانين المصرية وعلى رأسها « قانون العقوبات » .

وفى غيبة ذلك القانون دار اللعب على أشده . ومن بين الالعاب التى جرت كانت هناك عمليات وطنيـــة كتخريب الورش ونسرب المطاوى فى الظلام وشف الوثائق والخرائط وتسميم الطعام فى الميسات وتهريب الأسلحة والذخائر .. ليس فقط الى رجال المقاومة وانما الى الجيش المصرى ذاته .

(وبهذه المناسبة نقول انه لولا العـــدد القليل الذى حصل عليه الجيش بتلك الطريقة — من ميناء الادبية — من قذائف المدفع ٦ رطل الشديدة الانفجار ، وهى القذائف الوحيدة التى كانت قادرة على تحطيم الدشم ، لما سقطت مستعمرتا دير سنيد ونيتساليم فى حرب ١٩٤٨) .

ومن الجانب الآخـــر فقد كانت هناك عمليات خصوصية بحتة

مثل عمليات (الهلب) (١) وهى معروفة ، ومثل عمليات تقطير السبرتو وكانت ـ فى وقتها ـ « تكسب دهب » ، ومثل العملية التى هى موضوع ذكرى اليوم . وقد آن الأوان للحديث عنها .

فبعد ان جرى تسليم المعسكرات الرئيسية (القلعة ـ قصر النيل ـ المعادى ـ مصطفى باشا ـ الرمل . .) فى احتفالات ضخمة ـ انتهى واحد منها بحريق متأجج ، أشعله شاويش انجليزى حقود فى احد عنابر مصطفى باشا ـ بدأت عمليات تسليم المعسكرات الفرعية فى احتفالات صغيرة . وتوزع عفاريت الوحدات على تلك المعسكرات وكان معسكر الدخيلة من نصيب عفريت ملازم ثانى .

ولسوء حظ ذلك العفريت (ولحسن حظه أيضا) فان قائد سريته كان مريضا وكلان زميلاه (من قادة الفصائل) فى اجازة . ولذا

فان عبء قيادة السرية وقع على عاتقه . ولم تكن تلك بالمهمة الصعبة عليه . ولذا فانه توجه بالسرية الى معسكر الدخيلة وتسلم المعسكر من كابتن سكوتش كان من قوة «الكولد ستريم» . وكانت مع الكابتن فرقة من عازفى القرب ، وبعد نزول علم هذا ورفع علم ذاك ، قاد الكابتن جنوده الى خارج القشلاق وهم ينشدون « ات از اى لونج وأى تو تيبرارى » (انه لطريق طويل الى تيبرارى) ، وهو نشيد كان مطابقا حقا لمقتضى الحال .

---

(١) هذا الاصطلاح ، الذى ما زال يعيش حتى اليوم (علما على البضاعة الواردة من مصدر غير مشروع) يرجع الى هلب حقيقى (مرساة) كان الشطار يلقون به على قطارات البضاعة الانجليزية ، فيجلب ما فيه القسمة من الصناديق .. وكل شاطر وبخته ، فمنهم من جاءه الهلب بصندوق مكتظ بعلب البولوبيف ، أو زجاجات الويسكى ، أو المعاطف ، ومنهم من جاءه الهلب بتابوت يحتوى على جنرال محنط ، ولقد تعلق الهلب ذات يوم بدبابة شيرمان ، فلم يتردد صاحب الهلب فى تفكيكها وبيعها لتجار الخردة ..

وانتهت مراسم الاحتفال على خير ، وراح العفريت بوزع الجنود على العنابر ويعين الداوريات اللازمة . ثم قام بمرور شامل على المعسكر . وحين وجد مخزنا مغلقا بالقفل لم يتردد فى تحطيم الباب. وهناك وجـد تلالا فوق تلال من صناديق الذخيرة ، فبادر بابلاغ وحدته وتلقى اشارة اختلط فيها الشكر الممتع بالمسئولية المزعجة ، فقد كان نصها هو « ردا على اشارتكم رقم .. بتاريخ .. نفيدكم بالشكر والتقدير ونحملكم مسئولية فقد أو تلف هذه الذخيرة » .

ومن بعد المرور والتفتيش الذين استغرقا النهار بأكمله ، رأى العفريت أن لبدنه عليه حقا فقام بمرور أخير على مطبخ السرية . وبعد أن تذوق اليمك واطمأن الى جودة طهيه ، أمر بتوزيعه على الجنود ثم توجه الى حجرته ليرتاح .

وفى طريقـــه الى الميس توقف أكثر من مرة أمام الشجيرات واحواض الزهور ، التى كانت بالغة الروعة والتنسيق وراح يثنى على الجناينية المصريين الذين انتجوا تلك البدائع . وفى الميس تناول لقمة سريعة ثم راح فى نوم عميق .

وبعد اقل من ساعة استيقظ على أيد كثيرة وهى تهزه وعلى اصوات تتصايح « الحق يا فندم ، العساكر بيموتوا » . وانتفض العفريت وقد طار النوم من عينيه وجرى الى عنبر الجنود وهنـــاك رأى أكثر من عشرين جنديا وهم ممدون على الأرض ووجوههم فى صفرة الموت ، بينما كان ضباط الصف يخبطون كفا على كف ويوجهون الاتهامات لليمك بانه كان مسمما . ومع ان العفريت لم يهضم ذلك التفسير لأنه كان قد تذوق اليمك صنفا صنفا فانه لم يضيع الوقت فى التفسير والاستفسار وانما جرى الى التليفون وطلب الاسعاف .

وبديهى ان عربة اسعاف الدخيلة لم تكف لحمل أكثر من اربعة جنود ، فطلب الاسعاف من المستشفى العسكرى بالحدرة . وقبل

أن يضع السماعة كان باشجاويش السرية يقف امامه ويضرب تعظيما عنيفا وهو يقول « تمام يافندم عندنا خمسين متسمم » . فصاح العفريت بضابط نوبتجى المستشفى « سامع ؟ » فأجاب هذا « ولا يهمك أنا حاقلب لك الدنيا » . وفعلا قلب ذلك العفريت الطبيب دنيا الطب فى الاسكندرية كلها وراح يطلب عربات الاسعاف من مستشفى المواساة ومن مستشفى كوتسكا ومن نقط الاسعاف .. ولو كان الأمر بيده لطلب أيضا عربات مستشفيات السند والهند .

ومع توافد عربات الاسعاف راح عدد المتسممين يتزايد حتى بلغ مائة بالتمام والكمال . وكان آخر المتسممين هو باشجاويش السرية بلحمه وشحمه ..

وفى أقل من ساعتين كانت قيادات المنطقة الشمالية تقف كلها على رأس العفريت وتنهال عليه بالأسئلة والاتهامات :

س : ذقت التعيين حسب الأوامر ؟
ج : حصل والله العظيم .
س : فتشت على ادوات المطبخ ؟
ج : فتشت
س : مافيهاش حاجة مجنزرة ؟
ج : أبدا
س : والقراونات ؟
ج : آخر نظافة
س : آمال التسمم جه منين ؟
ج : لو فيه تسمم كنت اتسممت أول واحد
س : اذن ما هو تفسير للحادث ؟
ج : عين وصابت .. الانجليز حسدونا
س : انت بتهزر يا افندى ؟
ج : ماهو شر المصائب ..

س : **انت عارف لو مات ولو عسكرى واحد .. ، راح تتحاكم؟**

جـ : اذن لو ماتوا كلهم حاتحرقونى زى جان دارك .

س : **يا افندى بلاش هزار**

جـ : أجيبه لجنابك واحد شاى ؟

س : **بس خليه تقيل .**

ونادى العفريت على مراسلته فجاء هـذا وعلى وجهه ابتسامة عريضة .

ودهش العفريت لتلك الوقاحة فسأل المراسلة « انت يا واد جرى لعقلك حاجة ؟ » ، فأجابه ـ وابتسامته تزداد اتساعا ـ « تسمح بكلمة يافندم » . فقام العفريت وخرج معه الى الحديقة وهناك أشار المراسلة الى مئات الشجيرات المزدهرة وهو يقول « التسمم جه من ده يا فندم » . فسأله « وايه ده ؟ » فأجابه « أبو النوم » فعاد يسأله « يعنى ايه ؟ » فأجابه « يعنى المزاج الهندى يا فندم » . فصرخ فيه « يا واد اتكلم عربى » فأجابه « بالعربى يبقى شجر حشيش وخشخاش وكمان فيه شوية داتورة » وكاد العفريت أن يقع من طوله ، فقد كان قد سمع عن ذلك الشجر الساطل ما فيه الكفاية .. وحسبك من شر سماعه ..

وبذلك ظهر سر التسمم .. فقد تعرف بعض الجنود على أوراق الحشيش ، وعلى ثمار الخشخاش ، وهى ثمار كانت الى وقت قريب تستخدم فى الريف لتنويم الأطفال ، ومن هناك جاءها اسم « أبو النوم » (١) . ومن تلك الثمار والأوراق الغضة راح بعض الجنود

---

(١) فى كتابه ـ من التصوف الاسلامى ـ اكد « الدكاترة » زكى مبارك أن مكتشف الحشيش كان متصوفا يدعى الشيخ حيدر ، ثم أورد أبياتا من نظم شاعر « حيدرى » فى تقريظ الحشيش ، ومنها :

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر ... معنبرة خضراء مثل الزبرجد

هى الخمر لم تخلط بمـاء سحابة ... ولم تعتصر يوما برجـل ولا بـيـد

يأكلون أولا ، ثم راحو يعزمون بها على زملائهم ثانيا ، فتسمم الجميع ثالثا .

وعاد العفريت بالتفسير الى المحققين ، فلم يصدقوه حتى صاح واحد منهم محذرا « يا نهار أسود . الحقوا يا بهوات عساكركم . . دا أنا شفت الشجر ده فى كل المعسكرات » .

وجرى البهوات الى عرباتهم وطاروا الى معسكرات مصطفى باشا وحجر النواتية والرمل وأبى قير ثم أطلقوا اشارات التحذير الى القاهرة وسائر المحطات العسكرية .

ودار التفتيش على حدائق المعسكرات فكان الخشخاش (٢) واحدا فى الجميع وكذلك كان أخواه (٣) .

وفى ساعات دار الخلع والقلع على الشجيرات الشريرة ، ولم تطهر المعسكرات منها . وتلقى العفريت بعد ذلك العديد من خطابات التقدير والشكر على اكتشافه العلمى الكبير لأشجار الهبلى ببلى . الأمر الذى دعم من عقيدته فى البعد عن الشرور والرذائل . والعاقبة للمتقين .

---

(٢) هو الاب الشرعى للافيون .

(٣) ظهرت أيضا فى بعض المعسكرات شجيرات « التتن » (الدخان) المخبر . ولو كان الجنايني قد زرعوا « القات » أيضا لاكتمل شمل عائلة الممنوعات .

انا الصاغ ابو طالب

فى شتاء عام ١٩٤٨ ، ضاقت صدور الأشقاء العفاريت من ضباط الشرطة ، من فرط ما كانوا يعانونه من ظلم فى المرتبات ومن اجهاد فى الواجبات . فقد كان على الواحد منهم أن يحافظ على الأمن ، فى الوقت الذى كان هو نفسه لا يحصل على شىء من الأمن ، لأن الأهواء كانت تسيطر على حركة التنقلات والترقيات . وكان ضابط الشرطة يعيش ـ لهذا السبب ـ فى حالة انعدام وزن ، ولا يطمئن على يومه أو غده . كما انه كان يعمل ٢٤ ساعة فى اليوم بنفس أجر الموظف المدنى الذى ينتهى عمله فى الثانية بعد الظهر .

ومع أن ضيق هؤلاء العفاريت كان له ما يبرره فان تعبيرهم عن ذلك الضيق كان تعبيرا عفاريتيا بكل معنى الكلمة . وكان القرار الذى اجمعوا عليه ونفذوه قرارا لم يحدث له مثيل فى عالم الشرطة ، ولعله كان هو الوحيـــد من نوعه فى التاريخ . وكان ذلك القرار هـــو « الاضراب » . .

وفى اليوم الموعود لزم عفاريت الشرطة بيوتهم وتركوا الأمر ينعى من بناه . ولنتصـــور مجتمعا بغير شرطة ، وليكن هو مجتمـــع الاسكندرية . فقد شمر كل « أبى أحمد » عن ذراعيه ثم راح يناول

هذا بالروسية ، ويلبس ذاك كرسيا ، ويضرب ثالثا مقصا ، ويخرشم رابعا ببونية حديد .

كما انتهز كل زوج حليم تلك الفرصة المباركة فغضب غضبة مضرية وراح يرص زوجته العنيدة رصا محكما بخيزانة شرعية (لا تزيد تخانتها عن أصبع) . اما المجرمون فقد انطلقوا على « حل شعرهم » ،فراح النشالون يقشطون ركاب الأوتوبيس والترام تقشيطا كليا ، وراح الخطافون يخطفون حقائب السيدات بكل بساطة، وأراح اللصوص انفسهم من عناء التستر والحيطة فراحوا يقششون المحلات جهارا نهارا (١) . كما نزلت عصافير الليل ورحن يعملن بهمة فى وضح النهار ويطلبن من عين الشمس ان تترفق و « ما تحماشى» وبقيت من بعد ذلك طائفة المطالبين « بالجلاء التام أو الموت الزؤام » .

فقد راحوا ــ منذ تبين الخيط الأبيض من الخط الأسود ــ يدورون فى شوارع المدينة ويحتلون قواعد التماثيل وقمم الأرصفة لم يخطبون ويهتفون فتهتف من ورائهم جموع المواطنين وتنطلق من حولهم الزغاريد .

وكل من شاهد مظاهرة اسكندرانية يعرف أن شعار الاسكندرانيين فى المظاهرات هو :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

وكم ذاق الانجليز من ويلات ذلك الشعار ، ولذا فانهم كانوا يبادرون تلك المظاهرات باطلاق النار ، أو يدفعون بالشرطة لمواجهتها بالعصى . وفى ذلك اليوم الرهيب لم يكن هناك انجليز ولا كانت هناك شرطة . ولذا فان تلك المظاهرات قد اجتاحت الاسكندرية من

(١) لولا أن بادر المرحوم اللواء عبد المنصف محمود بحراسة مخازن الجمارك [illegible] لصارت اطلالا يتغنى بها الشعراء .

اقصاها الى اقصاها وراحت تبحث عن اى دماء سكسونية لتريقها فلم تجد منها شيئا . ولذا فانهاكادت ان تنفض بغير دماء تذكر ، لولا ان متظاهرا ألمعيا رأى ألا يعود الى بيته وهو خالى الوفاض فأخرج مشطا من الكبريت ثم أشعله ثم رمى به على محطة بنزين شل فى شارع سعد زغلول .

وعلى صوت انفجار تلك المحطة أفاقت وزارة الداخلية ، فراح وزير الداخلية يستغيث بنفسه ، لأنه كان هو أيضا رئيس الوزراء . وللتو أصدر أمره الى الجيش بأن يقوم بعمل الشرطة .

وفى تمام العاشرة صباحا كان عفاريت الجيش قد تحولوا بقدرة قادر الى حكمدارية ومأمير ومعاونى مباحث وملاحظين . ومن هنا تبدأ بعض الطرائف العفروبوليسية .

ففى قسم محرم بك جلس عفريت بكباشى فى نفس مقعد المأمور (الصـــــاغ ابو طالب) وراح يتلقى الأوامر من المحافظ ومن وزارة الداخلية .

وكانت كل دقات التليفون تطلب الصـــــاغ ابو طالب ، فيروح العفريت يحكى ويشرح كيف أنه ليس هو الصاغ ابو طالب وانه هو البكباشى علان بن ترتان .

ثم يعـــــود التليفون فيدق ويطلب نفس الصاغ ، حتى زهق العفريت وراح يصيح بأعلى صوته « انا الصاغ أبو طالب » . ودق التليفون فى نفس اللحظة التى كان فيها العفريت فى ذروة الاعلان عن اسمه الجديد ، فرفع السماعة وصاح فى المتحدث « أيوه يا سيدى انا الصاغ أبو طالب » فرد المتحدث «أنت متأكد ؟ » فأجابه «والمسيح والعذراء انا أبو طالب » . فأقفل المتحدث تليفونه وهو يقول « يبقى لازم تحقيق مع البكباشى علان بن ترتان » . وسمع العفريت ذلك الخبر الرهيب فصرخ فى السماعة « استنى وحياةأبوك . أنا البكباشى علان بن ترتان» . ولكن الخط كان قدانقطع ، فراح العفريت يلعن ذلك

اليوم المهبب ، وينذر لمار جرجس دستتين من الشمع ان هو افلت من التحقيق المنتظر، الذى كان لا يدرى من اين سيأتيه . ولم يبطىء ذلك التحقيق فى الوصول ، على شكل قائمقام كان فى غاية التكشير . وبينما كا نالبكباشى يقسم بأنه حضر للقسم واستولى عليه فىالساعة المحددة بأمر العمليات (والقائمقام ينظر اليه متشككا) دخلتالحجرة حسناء ذات أنف رومانى بديع وراحت تشكو « لخدرة المأمور » من خادمتها ، التى كانت قد انتهزت فرصة اختفاء رجال الشرطة فناولت سيدتها روسية رهيبة ثم فتحت الكومودينو وافرغت مخزونه من المجوهرات فى الفجوة التى زودت الطبيعة صدور بنات حواء بها ، ثم خرجت من البيت بعد أن ودعت المدام بقلم رنان ..

وعلى توسلات مدام بامبانينى (تقريبا كان ذلك هو اسمها) تزلزلت أعصاب القائمقام فترك أوراق التحقيق وراح يتأمل فى بديع صنع الله .. وانتهز العفريت البكباشى الفرصة فعزم على القائمقام بقضية المدام . وبكل همة شمر الأخير عن ذراعه وراح يأخذ اقوالها، ثم جمع عددا من الجنود وخرج ليطارد ذات الفجوة . وكان عجبا من العجب انه نجح فى ضبط تلك اللصة وفى استعادة المجوهرات بتمامها وبذلك يكون قد أضاف الى امجاده العسكرية مجداً بوليسيا عظيما .

وننتقل الى قسم العطارين ، فنرى هناك عفريتا ملازما وهو يحقق مع بواب نوبى فى أسباب استخدامه لشومة غليظة فى التفاهم مع افندى معتبر . فكان ملخص اجابة البواب هو « الأفندى دى بييجى البيت عشان هاجات وهشة (حاجة وحشة) . كتير جلت له اهتشى (اختشى) ما اهتشاش .. مسكته دجيته (دقيته) . آجبك (عاجبك) واللاموش آجبك ؟ ؟ .. » وانبهر العفريت بهذه الشهامة فقال « عاجبنى » .. ولم يلق أى اهتمام الى بلوكامين الشرطة الذى كان يجلس بجواره ويغمغم فى تفزع « الراجل فيه اصابات أكثر من ٢١ يوم علاج .. تسيب البواب ازاى يا بيه ؟ دى فيها مجلس تأديب » .

وفى قسم آخر اطلق عفريت ـ كانت زوجته « مكفراه » ـ سراح زوج شهم استطاع ان يحيل جلد زوجته الى خطوط بلون النيلة ، مستخدما كرباجا سودانيا رهيبا .

أما حين وقع لص عتل (كان قد اطار البقية الباقية من أسنان رجل عجوز ، حين حاول هذا أن يتشبث بمحفظته) فى يد عفريت يوزباشى ـ فى قسم باكوس ـ فان العفريت يتردد فى تطبيق قانون « السن بالسن » فقام بتطريم أسنان اللص كلها ، ثم ألقاه فى الحجز بغير محضر ، بعد أن نصحه بضرورة تركيب طقم أسنان كامل .

ونختتم تلك الطرائف بمنظر عفريت (ضابط شرطة) عز عليه ما جرى على الأمن من البهدلة فارتدى بدلته واتجه الى مقر عمله . وعلم قادة الاضراب بذلك الخبر فلحقوا به فى القسم وراحوا يلحون عليه بأن يواصل « الثبات على المبدأ » . وتجمع من حولهم عفاريت الجيش وهم يتعجبون . ولكن الجدل طال والنقاش احتدم ، وبدت على واحد من المضربين علامات الشر ، فضرب الصاغ (المأمور المؤقت) بيده فى جيبه وعزم على الجميع بالسجائر فتقبلوها شاكرين ، ثم دعاهم الى تناول الشاى فى مكتبه (على الأصح ، فى مكتبهم) وهناك اقترح عليهم حلا وسطا .. هم يستمرون فى الاضراب وعفاريت الجيش يستمرون فى ادارة شئون الأمن ، ولكن بشرط ـ ونحن هنا ننقل التعبير بحرفيته ـ أن « يتمجلس » كل مختص من الشرطة مع بديله الحربى ، ويعاونه بالنصح والارشاد . ورضى عفاريت الشرطة بهذا الحل الدبلوماسى وتمجلسوا فى القسم .

وكان ذلك القسم ، الذى غاب اسمه عن الكاتب ، هو الوحيد الذى سيطر على الأمن فى منطقته كأجدع « سكوتلانديارد » .

وانتهى اليوم ، وانتهى الاضراب . وعاد كل يغنى على ليلاه .

وفى اكثر من مناسبة (بعد ذلك) كان العفريت من ضباط الجيش يدخل على صديقه عفريت الشرطة وهو يقول « انا ايدى بتاكلنى على محضر » ..

تعظيم للعفريت

عندما نشبت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ تعرضت قواتنا لاكثر من مفاجأة . ويطول بنـا الحديث لو تناولنا تلك المفاجآت بالعرض والاحصاء ، كما ان البعض منها (مثل الاسلحة الفاسدة ، واخلاء اللد والرملة) لم يعد مجهولا .

وكان النقص فى الحملة ــ أو العربات .. باللغة المدنية ــ واحدا من أشد تلك المفاجآت واكثرها ازعاجا . ومع ذلك فقد استطاع عفـاريت مصر ان يواجهوا تلك المشكلة بحلول سريعة ، كان منها ــ على سبيل المثال ــ استخدام العربات الصالحة كقاطرات لجر العربات المعطلة بحمولاتها ، ثم نقل القوات والذخائر بهذه الطريقة المبتكرة ، وكان منها استخدام أتوبيسات « شركات بامية » ــ وهى شركة غزاوية ــ وكان منها خطف اكبر عدد ممكن من عربات الجيش الانجليزى . ومن هنا تبدأ قصتنا .

فقـد استطاع عفريت ــ برتبة الصـاغ ــ أن « يهلب » عربة جيب انجليزية ، بينما كان يتجه بقوته من الاسماعيلية الى القنطرة وكانت الجيب الجديدة لنج .

وبعد عدة معارك ناجحة استقر ذلك العفريت بقوته فى احد المواقع . وبعد ان قام بتحصين الموقع ، رأى ان يقوم باستكشاف عميق فى المواجهة ، فركب الجيب واصطحب معه عفريتين آخرين (يوزباشى وملازم) .

وكل من زار فلسطين يعرف ان ارضها مفعمة بالتلال والوهاد ، ولذ فان الجيب راحت تتسلق تلا ، وتهبط واديا ، وتدور من حول خور جاف ، وتقفز فوق كوم ترابى مرتفع ، وتصطدم بحجر كبير .. حتى تخضخضت أمعاء العفاريت الثلاثة ، وحتى راح العفريت الملازم يقهقه بصوت عال ، وهو يتصور نفسه راكبا فى القطار الثعبانى بمدينة الملاهى . وساعتها نظر اليه العفريت القائد فى سخط وهو يقول « يا جدع انته خلى اليوم يفوت على خير .. واللا بلاش نحارب يعنى ! ! ! » ، فانقطع الملازم عن الضحك وراح يعدل من وضع الخوذة على رأسه ويتحسس طبنجته بيده ..

وبعد ان قطع العفاريت عدة كيلومترات بغير ان يلتقوا ولو « بصريخ ابن يومين » قرر القائد أن يختم الجولة الاستكشافية بدورة من حول تل بعيد .

ودار العفريت بالجيب من حول التل ليجد نفسه فى وسط « هردبيسة » اسرائيلية ، مكونة من عدة آلاف من الجنود ، الذين كانوا يرتدون خليطا من اعجب الازياء العسكرية . ولولا أن الاقدمية العسكرية كانت قد وضعت العفريت الملازم فى مقعد الجيب الخلفى ، ولولا ان الجيب كانت مغطاة ، ولولا أنها كانت مسروقة ، لكان العفاريت الثلاثة قد دخلوا فى سجل التاريخ كشهداء لا ريب فيهم ، ولكان موقعهم الدفاعى قد راح – هو ورجاله – بلاش .. وهاك التفاصيل .

فقد سحب العفريت الملازم طبنجته عندما رأى بنى اسرائيل ، وراح يزيح العفريت اليوزباشى من طريقها وهو يهتف « يانهار اسود ومهبب » . أما اليوزباشى فانه كان أعقل من ان يتصور ان

الطبنجات قادرة على خوض معركة متكافئة مع آلاف الرشاشات والبنادق التى كانت تتأرجح فى أيدى بنى اسرائيل ، ولذا فانه دفع بيد الملازم الى الخلف وهمس به « انكتم يابلوه » ، ثم التفت الى العفريت القائد منتظرا قراره .

ويحكى الاخير عن نفسه ، انه ـ وقد كان وقتها « مقطوعا من شجرة » .. بمعنى انـه كان أعزبا ويتيم الاب والام ـ لم يشـعر بالخوف على نفسـه بقدر ماشـعر بذعر رهيب على زميليه وعلى قواته التى كان ذلك الحشد الاسرائيلى يتجمع بغير شك للهجوم عليها ، ولذا فان همه كله كان مركزا على البحث عن اى حل يحقق « العودة بالسلامة » ، باعتبارها السبيل الوحيد للتبليغ عن الهجوم المنتظر وللعمل على صده . وقد ساله عفريت معين ـ بعد ذلك بأيام ـ لماذا لم يبادر ساعتها بالتبليغ عن الحشد الاسرائيلى بواسطة الجهاز اللاسلكى ، فأجابه بانه كان من المستحيل عليه أن يتحدث فى اللاسلكى بالعامية الفصحى ، بينما كان المئات من بنى اسرائيل متكأكئين من حوله على مسافات تتراوح بين مترين وعشرة أمتار ، أو على حـد قوله ـ حرفيا ـ « على الطـلاق بالتلاتة .. لو كنت حطيت أى منطق لكانوا خرطونا للوز » ..

المهم هو انه راح يدير عقله باقصى سرعة .. بحثا عن الحل ، فكاد الا يجـد امامه من حـل غير تفريغ الطبنجـات فى صـدور بنى اسرائيل .

ولكن المعجـزة وقعت .. فقبل ان تؤثر فى عفريتنا زغـدات العفاريت الملازم ـ الذى كان اسـكندرانيا اصـيلا ـ واقتراحاته الهامسة « نضربوا يافنـدم .. انى مانروحشى بلاش ابـدا » اذا بجندى اسرائيلى قزم يضرب قدميه فى الارض ثم يرفع يده بتعظيم مهيب .

والتفت العفريت يمينا ويسارا فلم يجـد من صنف الضباط أحدا سواه هو وزميليه .. فراى ان يأخذ الجندى القزم « على قدا

ولم يصدق احد من الثلاثة عينيه ؛ وهم يرون حكاية التعظيم وهى تنقلب بجد ، فقد راحت الأيدى الاسرائيلية ترتفع فى تعظيمات متتابعة ، بينما كانت اعين بنى اسرائيل تتركز فى احترام واضح على التاجين المنقوشين بالخيوط على كتفى العفريت الصاغ .

وفهم الاخير « الفوله » .. فقد كان التاج هو العلامة المشتركة بين رتبة الصاغ الانجليزية ورتبة الصاغ المصرية ، وكانت الجيب من عربات الجيش الانجليزى ، كما انه لم يكن - فى غمرة المعارك المتتالية - قد خطر بباله ان يستبدل ارقامها بالانجليزية بأرقام مصرية ، وكانت السمرة صفه مشتركة بين المصريين وبين الكثيرين من اليهود الشرقيين ، واخيرا فقد كان الكثيرون من بنى اسرائيل ضباطا فى اللواء اليهودى بالجيش الانجليزى . ومن كل تلك العناصر خرج العفريت بالمعادلة التالية : -

الجيب + التاج + التعظيمات = « الحيوانات دول افتكرونى صاغ يهودى » .. وعنها - يقول العفريت - « وماكدبتش خبر ودست على البنزين ومشيت سلانسيه .. والحيوانات تعظم وتدب على الأرض برجليها .. واخوك يعظم وهو بيدعى فى سره : يا حسين .. يا بدوى .. يا امبابى .. » ، وبأعصاب من الفولاذ همس من ركن فمه لليوزباشى « اثبت » ، وهمس للملازم « اتعدل يابعكوك » . واعتدل الاثنان وجلسا كالتماثيل .. بينما راح هو يدور بالجيب فى بطء بين تلك الحشود الهردبيسية ، وهو يبادل بنى صهيون التعظيمات من ناحية ، ويسجل فى ذاكرته تشكيلاتهم وأسلحتهم من ناحية أخرى - وكذلك كان يفعل زميلاه - .

وفرغ صبر العفريت اليوزباشى أخيرا فهمس « جنابك زودتها قوى » . ويقرر الصاغ أن اليوزباشى كان على حق ، وانه فعلا كان

قد « استحاى » التعظيمات المتتالية ، وانه كان يقول لنفسه ساعتها انه وان كان الانجليز قد زودوا بنى اسرائيل بكل تلك الأسلحة الكثيفة ، فانه لم يفتهم « كتر الله خيرهم » أن يزودوهم بالآداب العسكرية وعلى راسها التعظيمات القانونية ، ولو انهم كانوا قد اتموا الجميل وزودوهم بفرقة موسيقية ، لما تردد فى النزول واستعراض الجنود كأى جنرال أصيل !!!

المهم هو انه وصل اخيرا الى حافة التل ، فدفع بذراع الفتيس الى السرعة الثانية وهو يقاوم رغبته فى الانتقال فوريا الى السرعة الثالثة و « بانكيك » . ومع تزايد المسافة بين الجيب وبين بنى اسرائيل راح هو يزيد من سرعتها تدريجيا ، ثم انطلق بها نحو تل جانبى بعيد ـ لكيلا يكشف عن اتجاهه نحو موقعه ـ ، ثم دار من حول التل وطار بالجيب طيرانا حتى وصل الى الموقع . ونزل العفاريت الثلاثة وهم يتبادلون نظرات خبيثة للغاية !! ، واستقبلهم الضباط والجنود بصيحات الفرح . وكان بعضهم قد راح يستعد للبحث عنهم .

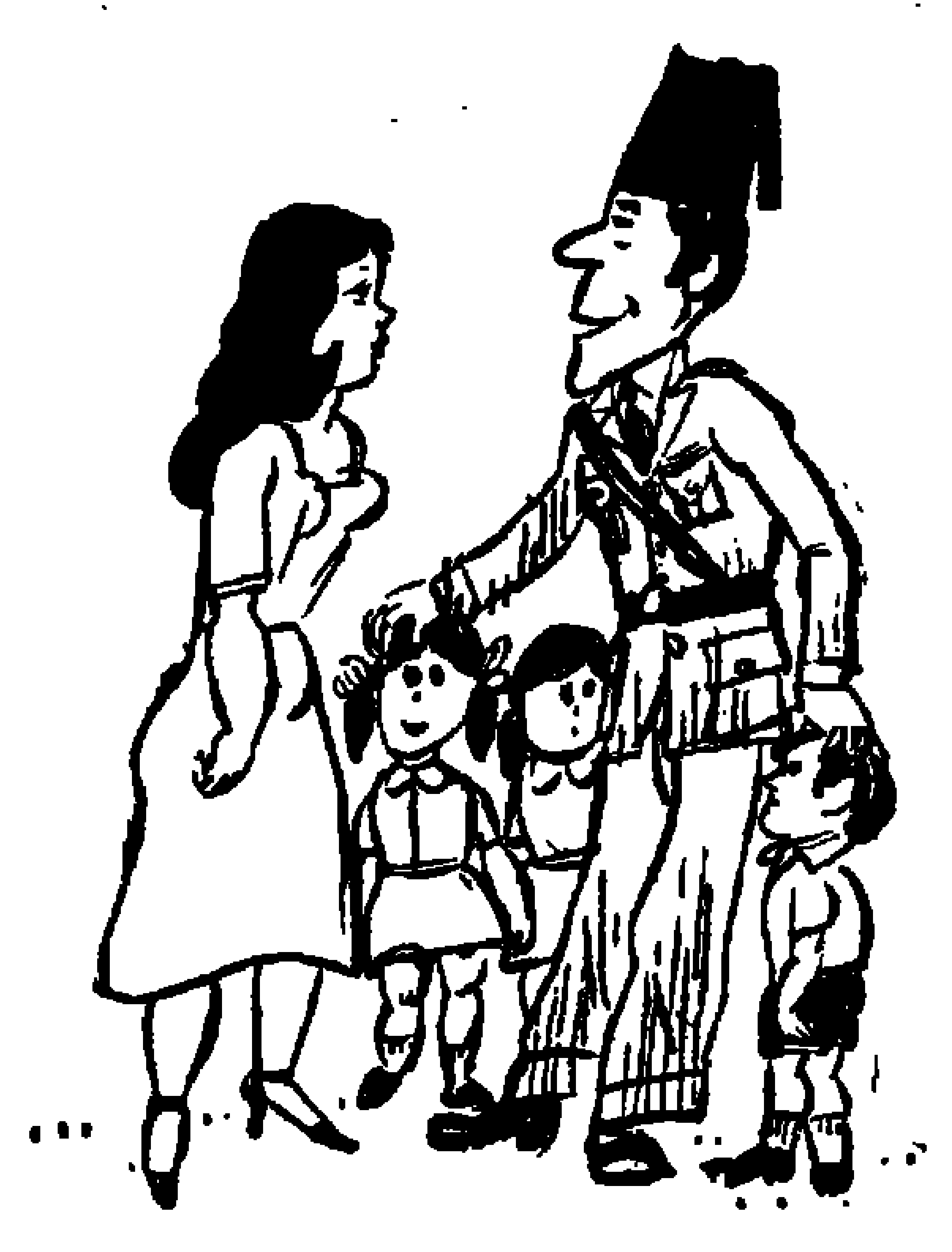
وجمع العفريت ضباطه واصدر اليهم « أمر عمليات » قل ان استطاع قائد ان يصدر امرا يماثله فى الدقة من حيث التخطيط ، او فى السعة من حيث المعلومات . فقد كانت تلك هى احدى المرات النادرة « وقد تكون الوحيدة » فى تاريخ الحروب التى يتمكن فيها قائد من زيارة واستعراض قوات اعدائه ، ومن دراسة كل تشكيلاتها واسلحتها على الطبيعة ، ومن العودة مودعا منها بالتعظيمات والسلامات . . و « ماكانش ناقص الا انهم يعزمونا على العشا . . » . ثم أبلغ العفريت القيادة بالموقف ، وبعدها اشعل الجميع سجائرهم وراحو يدخنون فى تلذذ خبيث .

وتماما ـ كما تقضى اساليب التكتيك الانجليزية ـ بدا الهجوم الاسرائيلى على الموقع قبل آخر ضوء .

وتماما ـ كما رسم العفريت ـ قويل الهجوم بنيران الجحيم .
وليس ذلك التعبير مجازيا بأى حال من الاحوال .. فقد راحت النيران تنطلق من افواه المدافع والبنادق والرشاشات بقدر يتجاوز كل ماحـددته النظم والقوانين من كميات الذخيرة اللازمة لقـوة بحجم قوة العفريت . وكانت كمية الصواعق التى انهمرت وقتها على رؤوس بنى اسرائيل كمية اكثر من جهنمية . ولعلنا لا نكشف هنا سرا حين نقول ان « ايد » عفريتنا الصـاغ كانت « خفيفة » دائما فيما يختص بالذخـيرة وانه قلما كان يقنع ـ عند اسـتلام الذخيرة ـ بأقل من اربعة اضـعاف العدد المدون فى مسـتندات الصرف . وقد طبق يومها كل مهاراته فى خفة اليد ، ثم راح يبرر لعفريت معين عملية السـطو المهولة التى قام بهـا هو وضـباطه ـ على اقرب نزل للذخيرة ـ بأنه كان واجبـا شرعيا عليه ان يرد التحيات التى تلقاها من « الحيوانات » باحسن منها .. باختصار كانت مذبحـة ووصـل الـدم الاسرائيلى يومهـنا « للركب » .
ولا تسل عن نظرات الحقد التى راح الاسرى الاسرائيليون ينظرون بها الى العفريت وهو يستعرضهم فى صباح اليوم التالى .

وامام شاويش اسرائيلى نحيف توقف العفريت وراح يتمعن فى وجهه ثم اخرج علبة سجائره واتحفه بكبشـة منها وهو يقول « انت واد جدع .. بتعظم كويس » .

بين الحب والحرب



وهذه حكاية معركة ، حدثت فى فلسطين عام ١٩٤٨ ، وانتصر فيها العفاريت .

وهى معركة لم يدو فيها رصاص ولم تنفجر فيها قنابل . ولكنها تستحق التقديروالتسجيل بنفس القـدر الذى تستحقه معارك دير سـنيد وكفـار ديروم ونيتساليم وتبة الفنـاطيس الخ تلك المعارك الشريفة التى خاضها جيش مصر الباسل .

فقد تحركت احدى الوحدات الى فلسطين . وطوال الرحلة التى استغرقت يومين ، عاش العفاريت فى مرح وابتهاج . وكانوا يوزعون وقتهم بالعدل والقسطاس بين مراجعة الخرائط ، ودراسة خطط العمليات ، واعداد العفاريت الجنود للمعارك المقبلة ، وبين الغناء والشعر وتدبير المقالب . وتماما ، كما تتوزع الاختصاصات بين الناس كان للغناء والشعر والمقالب عفاريت متخصصون فكان

مطرب الوحدة عفريتا يوزباشيا ، يحفظ من الاغانى والتواشيح قدرا مهولا ، وكان يرددها بقــدر اكبر من الهــول ، وكان مغرما باشعال المعارك بين انصار عبد الوهاب وانصار أم كلثوم فكان يغنى لعبد الوهاب « كلنا نحب القمر » ، ثم يتبعها بالاغنية التى رفضت فيها أم كلثوم رأى عبد الوهاب فى القمر وقالت « مين اللى قال ان القمر يشــبه لمحبوب الفؤاد ! » . وتكـون النتيجة هى مناقشات تفاضلية ساخنة بين المحبين للقمر والمفضلين لمحبوب الفؤاد . وهى مناقشات كانت تتخللها فى بعض الاحيان زغدات متوسطه القوة على سبيل التأكيد والاقناع .. وان كانت احدى الزغدات قد تجاوزت العيار القانونى ، ذات مناقشة ، فرسمت هالة سوداء حول عين عفريت كان من المتعصبين لمحبوب الفؤاد . هذا عن الأغانى ، أما عن صوت العفريت المطرب فانه كان اقرب ما يكون الى صوت شاكمان مكسور . وكان عفريت آخر يتابعه ، كلما راح يغنى ، بصـيحات « اطفى النور ، اقفل الشبابيك » . وفى رأى الكاتب أن عبد الوهاب وام كلثوم ، ماكانا ليترددا فى اطلاق النار على العفريت المطرب لو كانا قد سمعاه وهو يهربد اغانيهما . على أن الفرصة ما زالت متوافرة أمام عبد الوهاب لكى يطلق النار عليه فهو ما يزال حيا يغنى ..

أما عن الشعر فكان قطبه هو عفريت ملازم ، كان يجيـد تفنين تراكيب عجيبة من الشــعر الزجلى ، فمن ذلك انه راح يتغزل فى الحسان و « اليمك » معا بقوله :

القلب به الف وليــه	كاللحمة جوا التســقية
والحب يسبك فى كبـدى	ويحط عليــه التقليــة
والشــوق يشعلل منقدنا	فتصــير الكفتة مشــوية

أما عن تدبير المقالب ، فانه كان قاسما مشتركا بين الجميع . ومن عيناته ان عفريتا ارسل عند بدء الرحلة تلغرافا موقعا باسم عفريت ملازم الى والده ــ الذى كان من أعيــان ريف الشرقية ــ

وطلب فيه اعداد وجبة من الخرفان المشـوية والانتظار بها على المحطة . . وكان بها .

وعينة اخرى ،فقد نزل العفاريت فى القنطرة شرق ، لحين تغيير القاطـرة ، وفى مطعم يونانى صـغير جلس ثلاثة عفاريت لتنـاول الافطار ، وبينما هم فى حالة حتتك بتتك على اطباق الفول المدهوك بزيت الزيتون دخل عليهم قائد الوحدة — وكان رجلا طيبا حقا — وشاركهم فى الافطار ، بعد ان اقسم أن يدفع هو الحسـاب . وكانت عاقبة تلك الروح الحاتمية وبالا عليه . فقـد تسلل واحـد من العفاريت ، ثم عاد بعد قليل ومعه اكثر من ١٥ عفريت . . ودفع القائد حساب افطار ١٨ عفريت وهو يتنهد . وعينة ثالثة ، حدثت بعد منتصف الليل ، عندما كان القطار واقفا فى احـدى محطات سـيناء . فقد تناول عفـريت رتالة (١) وادارها ، معلنا عن غارة جوية ، فانطلق العفاريت قفزا من ابواب ونوافذ القطـار وراحوا يصوبون أسلحتهم نحو السماء . وسمع عفريت منهم صوت موتور عربة قادمة فلم يتردد فى اعتباره صـوت طائرة ، فركب الرشاش على السيبية ، وراح يطلق نيرانا دقيقة التصويب على احد النجوم. ولولا ان العفريت — مطلـق الرتالة — رأى ان يكتفى بما احـدثه الانذار من مئـات القفزات البهلوانية ، فأطلق الرتالة معلنـا عن الأمان . . لولا ذلك لما نفد من مجلس عسكرى ميدانى .

وبعد ، فقد كـان ذلك التمهيد — الذى يصور حالة المرح والبهجة بين العفـاريت — ضروريا لكى نعرض على ضـوئه حالة مناقضة تماما .

فقد كان هناك عفريت واحد تسيطر عليه الكآبة بنسبة ١٠٠٪ . فلا الغناء يطربه ، ولا الشعر يمتعـه ، ولا المقالب تستثيره . وكان قبل الحرب عفريتا مرحا . أما منذ بدأت الرحلة فانه انطوى

---

(١) الرتالة جهاز انذار ميدانى يدار باليد فيطلق ترنمات داوية

على نفسه تماما . ولقد احترم زملاءه كآبته وانطوائه ، فقد كانوا يعرفون السبب .. كانوا يعرفون أن زوجته يهودية .. ومنذ بدات رحلة الحرب ، ومع تتابع المعارك ، كان الرجل يؤدى واجبه بكل الطاقه والاخلاص . ومع أن العفاريت حاولوا أن يشعروه بمختلف الوسائل ان صفة زوجته لا تؤثر باى حال على علاقتهم به او على تقديرهم له ، فانه أبى ــ بحكم الحرج الذى كان يسيطر عليه ــ ان يأخذ تصرفاتهم الطيبة الا على محمل المجاملة فقط . ولقد فكر الرجل اكثر من مرة فى تطليق زوجتــه ولكن حبه لهــا ، واخلاصها له ، وأطفالهما الثلاثة ، حالوا بينه وبين تنفيذ فكرة الطــلاق . وبذلك عاش وهو مشــتت الفكر ، ممزق النفس . وحين حــل دوره فى الأجازة الميدانية ، لم يتردد فى رفضها وفى التطــوع للاشتراك فى معركة كانت وحدة اخرى على وشك القيام بها . ولكنه فوجىء فى صباح اليوم المحدد لأجازته بعــدد من العفاريت ، يقتحمون عليه خندقه ويحملونه حملا الى القطار ، وبعد جدل شديد معهم ، لم ير بدا من الرضوخ ، لأنهم اقسموا بأنهم لن يسافروا بدونه ، وراح كل منهم يحمله مسئولية حرمانه من الاجازة .

وفى الطريق الى القاهرة ، فشلت محاولات العفاريت فى اخراجه من صمته ووجومه . وكان اخشى ما يخشــونه هو أن يتسلل من القطار عائدا الى الميدان . ولذا فانهم راحوا يراقبونه أشد مراقبة ، وبذلك تمكنوا من القبض عليه متلبسا بمحاولة النزول فى محطــة الاسماعيلية . وكاد ضابط البوليس الحربى هنــاك ان يتدخل ، وهو يرى ضابطا يتخبط بين ايدى مجموعة من الضباط والجنود ويستحلفهم « سيبونى لوجه الله يا عالم » ، ولكن عفريتا منهم تناول ضابط البوليس الحربى بالأحضان ــ وكان من دفعتــه ــ وراح « يلاغيه » حتى قام القطار . وفى محطة الزقازيق ســمع الناس جلبة وصياحا من احــد صالونات القطــار . ولكن نوافــذ وباب الصالون كانوا مغلقين باحكام لم يتمكن معه أحد من تبين الموضوع

او التدخل فيه ، وان كانوا قد سمعوا صوتا عفاريتيا ، صادرا من الصالون ، وهو يقول « ثلاثة بالله العظيم ان ما سكت لأبطحك » ثم ساد بعدها الهدوء .

واستسلم الرجل اخيرا ، على اعتبار ان مافاته فى محطتى الاسماعيلية والزقازيق يمكن تداركه بعد النزول فى القاهرة .. بالعودة فى القطار التالى . وعندما كان القطار يدخل محطه القاهرة راح العفاريت يتناولون الحقائب ويستعدون للنزول بغير ان يبدوا اهتماما بحراسة زميلهم .. الأمر الذى أقلقه واثار شكوكه .

ونزل الرجل من القطار ليفاجا بدراعين حنونتين وهما تلتفان حول عنقه وبصيحات ملائكية تهتف من حوله « بابا .. بابا » ..

وشهدت المحطة يومها منظرا لا ينسى .. الزوجة تحتضن الرجل فى حب ولهفه والأطفال الثلاثه يتجاذبون ثوبه فى براءة ، وكل منهم يحاول ان يصل الى حضنه قبل غيره ، والعفاريت يتقدمون واحدا بعد الآخر نحو الزوجة ويحيونها فى احترام ، ثم يقدمون هدايا لطيفة لعفاريت الصغار .

وكانت الحكاية هى أن العفاريت المتزوجين كانوا قد اتفقوا ــ منذ بدأت الاجازات ــ على اصطحاب زوجاتهم وزيارة أسرة زميلهم وتبليغها تحياته وموعد وصوله .

ثم دبر الآخرون عملية اجباره على السفر . وفى محطة مصر قدموا للزوجة والاطفال تلك المشاعر الكريمة التى تعبر عن حقيقة ذلك الشعب السمح الذى لا يعرف التعصب سبيلا . ولا يخلط بين الأمور ، ولا يأخذ بريئا بجريرة غيره .

ومن يومها عاد الرجل الى ركب العفاريت .

واللاه الأزيم أهرشمك

كان عفريت هذه الذكرى من اعجب العفاريت شكلا وموضوعا .
فقد كان ازرق العينين اشقر الشعر ، وهاتان من صفات الجنس
الأوربى . ولكنه كان أيضا أكرت الشعر خمرى اللون ، وهاتان من
صفات المصرى الأصيل . ويرجع ذلك الخلط فى ملامحه الى أن والده
كان مصريا من اعماق الصعيد اما والدته فكانت من صميم
اسكوتلاندا . وكانت ملامحه النفسية تعبيرا بليغا عن ذلك الصراع
الذى كان يدور فى عروقه بين الدم المصرى الساخن وبين الدم
الاسكتلندى الرزين . فقد كان مثالا للجنتلمان فى الأوقات العادية ،
أما اذا استثير ، فانه كان يتحول — من حيث ضرب الروسية وشك
المقالب — الى فتوة من فتوات الحسينية ، كما أنه كان يتحول — من
حيث اجادة السب العلنى وفرش الملاية — الى فتواية من صميم
حوش بردق . ولما كانت الحياة لا تخلو مما يغضب الحليم ، فان
عفريتنا كان لا يمضى عليه يوم الا وهو ضارب أو مضروب . ولعل
تخصصه فى اسالة الدماء بقبضته الحديدية أن يجد له تفسيرا
فى أنه قضى طفولته وصباه فى شارع مراسينا بحى السيدة زينب .
أما جنتلته فانها ترجع الى محاولات والدته المستميتة لتعويده على
الاتيكيت والبروتوكول وسائر الآداب الاسكوتلاندية . وأخيرا فان

مهنته كان لها دخل كبير فى تعوده على منظر الدماء وفى اقدامه على اسالتها بكل بساطة .. فقد كان طبيبا وكان تخصصه هو الجراحة ونقل الدم . أى أنه كان مؤهلا لأن « يجرح ويأسو » فى آن واحد .. وكان عفريتنا قد أتم دراسته فى جامعة ادنبرة ، ثم عاد الى مصر وهو يحلم « بالثلاثة ع » ، وترجمتها هى :

العين الأولى = عيادة .

العين الثانية = عربية .

العين الثالثة = عمارة

وفى قول آخر هى « عيادة ، عروسة ، عزبة » ، والعيون فنون ..

وفى منزل الأسرة بشارع مراسينا وبين زغاريد سيدات الأسرة والجيران راح والد العفريت يوزع أكواب الشربات بيده على أفواج المهنئين بسلامة الوصول (١) . وكان ذلك فى تمام العاشرة من صباح يوم ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ .

وفى اليوم التالى هجمت الجيوش العربية على فلسطين لتخليصها من مخالب الصهيونية ، كما هجمت ادارة كاتم أسرار الحربية على الاطباء بأوامر التكليف .

وفى صباح يوم ملتهب من أيام يونيو سنة ١٩٤٨ كان العفريت يقدم نفسه الى قائد مستشفى بير سبع . وهناك راح يؤدى دوره المزدوج . فقد كان يسعى وراء المعارك سعيا ويشترك فيها كمقاتل شرس ، ثم يعود الى المستشفى وينزل بمشرطه « حتتك بتتك » على المصابين فينقذهم ويشفيهم . وكم من مرة أسعف فيها ذوو النزيف

(١) حاولت والدته أن تعبر عن فرحتها بزغرودة فكانت النتيجة هى اصابتها بالزغطة .

بزجاجات الدم . وحين كان ينفذ رصيد زجاجات الدم فانه لم يكن يتردد فى اصطياد العفاريت الزائرين وفى الاستيلاء على دمائهم لصالح جرحاه . وكم من مرة تلقى فيها عفريت من المشاة او المدفعية دعوة من عفريتنا الطبيب لقضاء أمسية ظريفة فى حديقة المستشفى ، فكان عند وصوله يتلقى الابرة فى ذراعه ثم يعود بعد ان يكون قد فقد نصف لتر من دمائه الزكية .

وبالخيانة والتآمر دارت عجلة الحرب الى الوراء وسقطت بير سبع فى أيدى بنى صهيون . وهناك ، وعلى باب المستشفى ، وقع عفريتنا أسيرا . وما كاد بنو صهيون يرون زرقة عينيه وشقرة شعره حتى صاحوا بكل اللغات فى ذعر شديد « المانى .. المانى » . وتراجع معظمهم وهو يتمتم بالابتهالات والاستغاثات . ومع أن عفريتنا كان أعزل وكان يرتدى البالطو الأبيض ، فان أحدا من بنى اسرائيل لم يجرؤ على الاقتراب منه . وشاء ذكى منهم أن يحسم تلك الفضيحة ، فأشار عليهم بأن يطلقوا عليه النار من بعيد .. وللتو صوبوا بنادقهم ورشاشاتهم وانتظروا اشارة الضرب . وما كاد العفريت يتبين هذه النية السيئة فى وجوههم وحركاتهم حتى صاح « المانى ايه يا ولاد .. انا مصرى ابن مصرى» فرد عليه يهودى يمنى « تبغى تخربطنا يا ولد هترر » .. فصرخ العفريت « هتلر مين يا جدع انت ! أنا من أبو تيج » . وكان من حظه العجيب ان قائد الصهاينة كان محاميا من قبل أن تفسده الصهيونية وتحوله الى لص يحاول سرقة الأرض العربية ، ولذا فانه تردد فى اصدار الامر باطلاق النار ، ثم راح يستجوب العفريت ــ من بعيد لبعيد ــ باللغة الانجليزية . وللتو انطلق الأخير فى الدفاع عن حقوقه « بمقتضى اتفاقية جنيف » .. وبديهى ان كان يلقى دفاعه فى بلاغة شكسبيرية . وكانت النتيجة [illegible] من الموت ونقله الى معسكر الأسرى . وهناك نفعته مواهبه [illegible] رقية . فقد ظن به الاسرى

المصريون الظنون (بسبب نفس الملامح التى كادت أن تهدر دمه فى بير سبع) . ولولا انه فرش الملاية على آخرها المتشككين فيه لرجمه هؤلاء بصفته دسيسا عليهم .

وفى الأسر كان هو الفارس المعلم . فقد كان يعالج الأسرى والاسرائيليين على حد سواء . وعن طريق الأخيرين كان يحصل على ما تيسر من الأدوية والضمادات للأولين . ولقد عصاج معه اسرائيلى متزوج ذات يوم ، ورفض أن يحضر له بعض الضمادات . فما كان منه الا أن انتهز فرصة وجود بثرة عابرة على جلد الاسرائيلى فأوهمه بأنه مصاب بمرض من صنف « الفينيريال » (١) ، ثم وعده بأن يعالجه منه فى الخفاء « ولا من شاف ولا من درى » . ومن يومها ـ وحتى نهاية الأسر ـ تحول الاسرائيلى الى مهرب عات للأدوية والضمادات وفوقها ما تيسر من علب المعونة الامريكية .

وعاد العفريت من الأسر وهو يحسب أن انتهاء الأسر يعنى بالتبعية انتهاء علاقته بالقوات المسلحة ، ولذا فانت خطف رجله بكل بساطة الى اسكوتلاندا حيث قضى أجازة بهيجة فى مزرعة خالته . ثم خطف بنت خالته (وكانت لعساء لمياء ، وبعيدة مهوى القرط أيضا) ، وعاد بها زوجة شرعية .

ولما كان قد سجل زواجه بها فى سفارتنا بلندن ، ولما كانت السفارة تبلغ القاهرة بما يتم فيها من زيجات ، ولما كانت القوات المسلحة لا تعترف بمثل تلك الحرية السبهللية التى قطع عفريتنا بها علاقته مع القسم الطبى بقرار من جانب واحد ، فانها سجلته عندها غائبا ثم هاربا من الخدمة العسكرية ، وابلغت بذلك كل الجهات وكل الموانى . ولكل تلك الأسباب فان العفريت هبط فى مطار القاهرة لكى تستقبله لجنة ترحيب مكونة من ضباط البوليس

---

(١) هو مرض رهيب يصيب « اللاعبين بذيولهم » بعذاب اليم ويفضحهم ..

الحـربى . وبسبب تلك الأهميـة الكبرى التى اضفاها استقبال اللجنـة على شخصه العظيم فان اجـراءات مروره هو وعروسه « الاسكوتش » من الجمـارك لم تستغرق أكثر من دقائق . الأمر الذى أبهج العروس وجعلها تحسب أن عريسها هو .V.I.P (٢) .
ومع ان عفريتنا تنرفز من تلك المفاجأة الرهيبة ، فانه رأى أن يبقى على احلام عروسه الوردية ، واكتفى بأن تعامل ــ فى همس ــ مع عفاريت البوليس الحربى بكل ما كان يمتلكه من الألفـاظ الحوش بردقية . وقـد رد عليه واحـد منهم تحياته بأحسن منها ، مع ابتسامات حسبت معها العروس أن التقاليد الشرقية تفرض على الطرفين يتبادلا تلك العبارات الهامسة مثل « .. واللى خلفوك » و « يغور الأبعـد » و « والله العظيم أخرشمك » . وكان أنهـا ــ عنما عرفت الحقيقة بعد ذلك ــ أصبحت تتعامل مع العفريت ، كلما اغضبها ، بعبارة « واللاه الأزيم أهرشمك » . .

وفى ميس احدى الكتائب نزل العفريت ضيفا مكرما !!. . فقد كان الضابط الموقوف يتناول أفخر الطعـام على حساب الجيش ويرافقه ضابط « حرس » يرتدى البـدلة والنياشين (بالقيـافة التامة) ومن حزامه تتدلى طبنجـة وبيلى . اما العـروس فقـد صحبها عفريتان من البوليس الحربى الى منزل الأسرة . وفى الطريق تنبهت الى وجومهما فلعب الفأر فى عبها وطلبت منهما أن يصارحاها بالحقيقة . وبدلا من يتلقيا منها ــ عنـدما صارحاها بالحقيقة ــ صيحة « يا لهوتى » اذ بها تقول فى ثقة وايمان « لابد ان هناك غلطة فى الموضوع ، فهو بطل ، والأبطال لا يعاملون هكذا . . أليس كذلك؟ » واحرج العفريتان فلزما الصمت . وفى البيت فوجئت العروس بأن خالتها كانت قد تأقلمت فى شارع مراسينا بحيث انها راحت تدب

---

(٢) يعنى « فرى امبورتانت بيرسون » اى « شخصية مهمة جدا » .

على صدرها بالحيل حين علمت بأن ابنها سوف يمثل فى خلال أيام أمام مجلس عسكرى عالى .

وانعقد المجلس ثم انفض على خير لسببين . أولهما هو أن قانون الأحكام العسكرية يعفى المتهم من تهمة « الهروب » الرهيبة ان هو عاد بسرعة وبمحض ارادته ، وهـــذا هو ما حـدث من العفريت . وثانيهما هو أنه كان مكلفا ، وكان جهله بالنظم والقيود العسكرية واضحا ، كما ان سجله فى الحرب كان مشرفا . وبنـاء عليه فقد براه المجلس مع التوصية بمحاسبته ايجازيا على ما جنت يداه . والواقع هو أنه كان يمكن أن يخرج من المجلس بالسجن مع الأشغال الشاقة ، لو أن حراســه من العفاريت كانوا قد تركوه لسلاطة لسانه . ولكنهم كانوا يبادرونه بلكزات متتالية كلما هم باستخدام مواهبه فى فرش الملاية للمجلس . وكان هو يرد لهم تلك اللكزات فى الميس واحد بواحدة . وكم شهد جنود الميس من منظر عجب .. ضابط فى الايقاف يطارد حارسه (الضابط المسلح) والأخير يفر منه الى ذات اليمين وذات اليسار ويتحصن منه بالموائد والكراسى . على ان سلاطة لسان العفريت نفعته بعد ذلك . فقد ابت كل القيادات أن تستبقيه ولو لدقائق . وكان ضباط القسم الطبى وادارة كاتم أسرار وادارة الجيش (التنظيم والادارة حاليا) يتسابقون على انجـــاز اجراءات فك تكليفه ، حتى أعادوه الى « بعيدة مهوى القرط » وهم يتنفسون الصعداء .

وفى أول مســــتشفى مدنى تعين العفريت فيه ، وقع نائب الجراحة صريعا تحت قوائم كرسى من الخيزران .. كان العفريت قد البسه اياه ، لأنه .. ولكن تلك قصة أخرى ،،

زغرودة فى باب النصر !!

وهذه ذكرى ، تردد الكاتب كثيرا فى تسجيلها هنا ، وذلك لأنها ترتبط بموقف انسانى تسوده الرهبة وترطبه الدموع . ولكن ما ذنب الكاتب اذا كان هذا الموقف يناقض نفسه احيانا ، ويصوغ احداثا هزلية تفرض الضحك فرضا وتقهر الناس عليه . وبضدها تتميز الأشياء ..

وبديهى أن القارىء قد ادرك قصد الكاتب وعرف ان الموقف المشار اليه بعاليه هو موقف الموت . ولا ضير هنا من التمهيد للاحداث ببعض الفلسفة . فهل يعلم القارىء الكريم ان شعبنا هو الوحيد – فى العالم – الذى يصطبح يوميا بالصفحة السوداء .. صفحة الوفيات .. وبدلا من أن تتلقى الزوجة والأبناء تحيةالصباح من رب الأسرة ، فانها غالبا ما تتلقى منه صيحة « يا خبر أسود .. فلان مات » ، وعندئذ تلقى الزوجة بصينية الافطار من يدها وهى تطلق صيحة « يا دهوتى » وقد تتبلها بصيحة « يا خرابى » ..

وفى ثوان ينقلب الصباح الجميل الى غم ثقيل وتدور الكرافتة الكرافتة السوداء حول عنق الأب ، وتدوس المكواة على الفستان الأسود ، ويفقد الأبناء افطارهم المشتهى .. بينما قد يكون الفلان

الفقيد هو مجرد ابن بنت عم جدة خال جارة الأسرة .. ورحم الله أستاذنا أنطون الجميل ، الذى قال « من لم ينشر نعيه فى الأهرام فانه لم يمت .. » ، ورحم الله فيلسوف العامة بيرم التونسى الذى كان يقول انه يكاد أن يجن بسبب انه زار لنـــدن وباريس فلم ير فيهما « .. واحدة بتجرى ف وش الصبح وماليه الدنيـا صوات ، قال ايه جوز خالتى أم أحمـــد سلفة أخوها السيد مات !!! »

وبعد فليس ينسى الكاتب انه حضر دفن عظيم من باشـوات العهـد القـــديم ، وبينما كانت مراسم الدفن تدور بين الرهبة والوجوم ، تقدم سيد مهيب من صهر الفقيـد وراح يعزيه قائلا « ربنا يجعل ده آخر أحزانك » . فلم يتمالك الصهر (وكان عفريتا طيبـا) من الرد بسرعة « يا شـيخ فال الله ولا فالك .. لو ده يبقى آخر أحزانى يبقى لازم أكون أول ضحية لعزرائيل » . وللتو انفجر معظم المعزين فى ضحك مكتوم ، وكاد زمام الوقار أن يفلت من الجميع ، اولا ان التربى خشى على رزقه فصاح «وحدوه» فهتف القوم « لا اله الا الله » وتم الدفن بالاحترام اللائق بمقام البـاشا .

وننتقل من الفلسفة الى موضوع هـــذه الذكرى فنقول ان عفريتها اليوزباشى كان قد عاد بعد انتهاء حرب فلسطين (عام ١٩٤٨) وهو مصاب بربو شديد وقد تعطفت عليه « ادارة كاتم أسرار » بنقل كان ظاهره الرحمة وباطنه العذاب . وكان ذلك النقل الى كتيبة الخدمات . وكان من المفروض ان يكون العمل فى تلك الكتيبة هينا لأن واجبها كان محصورا فى حراسة الكبـارى والمنشآت المدنية وفى توريد المراسلات لضباط القيادات . ولكن « قليل البخت يلقى .. » فقد تلقت كتـائب الخدمات أمرا بأن تقوم أيضا بتشييع الجنازات . وكانت النتيجة هى ان عفاريت تلك الكتائب (وكانوا كلهم ما بين مريض وجريح) راحوا يدورون

فى دورة « دوخينى يا لمونة » . فما يكاد الواحد منهم يعود الى بيته وهو مجهد الجسم والنفس من مشوار « بطيئا مارش » ، حتى تلحق به اشارة تقول « تعينتم حضرتكم ضابطا لفصيلة ضرب النار وعليكم التواجد بالفصيلة بمدافن الغفير فى تمام الساعة كذا » . ولعلم القارىء فان السير بالخطوة البطيئة ليس مريحا أبدا لأنه يتم بقياسات محسوبة وحركات متصلبة كما انه يدور مع أنغام مارش بيتهوفن الرهيب .. أضف الى ذلك ما تيسر من اللطم والصوات والدموع . وكم من عفريت أصيب بالانوركسيانورفوزا (فقد الشهية) أو دخل فى نيوروسس (انهيار عصبى) بسبب اصطباحه بذلك المارش وتمسيه بتلك الاشارة .

ورأى عفريتنا (وقد كان وما يزال انسانا مرحا) انه اذا لم يكن من الجنازات بد فمن العجز أن يكون ساخطا كئيبا . ولذا فانه رضى بقضاء الله وراح يقطع المسافة يوميا بين القبة الفداوية ومدرسة فؤاد (وقتها) وهو يحمل السيف خلف ظهره « منعكسا سلاح » . وعلى دوى الطبول وصياح الآلات النحاسية وقعقعة عجلات عربة المدفع ودربكة خيول سلاح الفرسان ، كان عفريتنا يقسم المشوار بين اهتمامين ، أولهما هو تفتيش الأرض بعينيه فى حرص شديد .. فقد كان يرهب المطبات ويخشى الوقوع فيها (وقد وقع زميل له فى حفرة عميقة ثم خرج منها بساق مكسورة) ، أما ثانى الاهتمامين فكان هو الترنم بقصائد الرثاء وكان اكثر ما يعجبه منها هو قصيدة ابى الحسن التهامى .

حكم المنية فى البرية جارى — ما هـذه الدنيا بدار قرار

وكثيرا ما كان يختلط عليه الشبه بين الدنيا وكتيبة الخدمات لأن كل منهما « ليست بذات قرار » ..

وعند نقطة معينة فى الطريق كان العفريت يتوقف عن الترنم ويرفع رأسه وينظر الى شرفة معينة .. ففى تلك الشرفة كانت تقف السيدة عمته ومن حولها أطفالها ، ثم تشير فى فخر نحو العفريت . وعندئذ كان الأطفال يهللون فى فرح شديد ، فكان العفريت يسرع بالتظاهر بالوجوم ويسير وكأن تهليل الأطفال لا يخصه فى شىء . ومع ان تلك الظاهرة التهليلية قد استلفتت نظر قائد الكتيبة أكثر من مرة فانه عجز عن تبين الشخص المقصود بها .

وكما تحب أنت البامية ويكرهها غيرك ، فان عفريتنا كان يفضل السير فى الجنازات عن قيادة فصيلة ضرب النار . وكان السبب فى ذلك هو عقدة نفسية أصابته يوم كان يتولى قيادة فصيلة فى سرية ضرب النار التى ودعت الخديوى السابق عباس فى مدفنه بثلاث طلقات . فقد حدث ان اختلطت صناديق الذخيرة على شاويش الفصيلة ، فاستحضر معه صندوقا من الذخيرة الحية بدلا من ذخيرة الفشيك المعتادة ، وحين تبين غلطته ــ فى المدفن ــ لم يفكر الا فى اخفائها عن العفريت وبادر بتوزيع الذخيرة الحية على الجنود . وكانت النتيجة هى ان الطلقات التى خرجت من بنادق الفصيلة لم تتردد فى اختراق الأشجار والأغصان الكثيفة التى كانت تغطى حديقة المدفن . وللتو هربت الأسرة المالكة بربطة المعلم من الحديقة .. وشهدت منطقة المدافن عددا محترما من الردنجوتات واليشامك وهى تجرى فى خفة الغزلان نحو العربات الرولزرويس .

أما التحقيق الذى جرى بعد ذلك مع العفريت فانه استمر لأكثر من اسبوع ، ثم انقطع فجاة حين همس المعى محنك فى اذن القصر بأنه من المستحسن ان « يكفى على الخبر ماجور » لأن ذيوع الخبر قد يؤدى الى اتهام « مولانا » بأنه قد دبر الحادث

على سبيل تهزىء الخديوى فى مرقده الأخير (١) .

وبسبب تلك العقدة فان العفريت كان يدبر اموره مع اركان حرب الكتيبة حتى يعفيه الأخير من قيادة « نصيلة ضرب النار » . ولقد نجح ذلك التدبير حتى جاء يوم لم يجد فيه أركان الحرب أمامه سوى عفريتنا لقيادة تلك الفصيلة فى ذات جنازة .

ولم تجد محاولات العفريت للافلات من ذلك الواجب ، فجمع الفصيله وشحنها فى اللورى ثم توجه ساخطا الى بيت الفقيد ، حيث كان عليه أن يؤدى له التحية العسكرية « سلام سلاح » ، ثم يطير باللورى الى المدافن ليودعه بالطلقات الثلاث .

وبدلا من أن يتجه اللورى الى حى راق أو حى متوسط ، اذ بجندى البوليس الحربى ـ الذي كان عليه أن يقود اللورى الى البيت ثم الى المدفن ـ يتجه بموتوسيكله الى أعماق حى باب الشعرية . وهناك ، وأمام بيت لا يقل عمره عن مائتى سنة وقف اللورى ، واستقبلته لعلعات الصوات من الشرفات والنوافذوكانت المصوتات كلهن من طراز « خالتى أم احمد » ..

وضرب العفريت يده فى جيبه واستخرج الاشارة وراح يبحث فيها عن حيثية الفقيد ، فاذا بها تقول انه « ملازم أول » . وبعد صين وجيم مع بعض المعزين اتضح ان الفقيد كان يقيم فى المعاش منذ عام ١٩٠٥ ..

---

(١) كان العداء بين الخديوى عباس وبين عمه الملك فؤاد (ومن بعده الملك فاروق) يرجع الى الانجليز ان عزلوا الاول سنة ١٩١٤ بسبب ميله الى الاتراك وعينوا عمه حسين سلطانا ، وقد اعتذر ابنه « كمال الدين » عن ولاية العرش من بعده ، فعين الانجليز فؤاد من بعد موت حسين . وفى عهد فؤاد ماتت أم الخديوى عباس (وكانت تلقب بأم المحسنين) ففرق البوليس المشيعين لجنازتها . وفى ذلك قال خليل مطران :

برا الرفق من الكف الذى . منع الام ملاقاة البنين

القصد .. نزل الفقيد الملازم (الذى كان عمره فوق الثمانين) الى الشارع الضيق بين اللطم والصوات ، فوجه اليه العفريت « سلام سلاح » ثم ترك فصيلة الجنازه تسير به الى مسجد سيدى الشعرانى . أما هو فشحن فصيلته فى اللورى وسار وراء جندى البوليس الحربى ، الذى انطلق بموتوسيكله راسا الى مدافن باب النصر .

وامام حوش (كان مرشوشا بعناية) توقف الموتوسيكل . ونزل الجنود وراحوا يصطفون امام المدفن فى نشاط . وفى حرص شديد أخرج شاويش الفصيلة طلقات الفشيك وراح يوزعها ثلاثا ثلاثا على الجنود . وكم كان جزع الشاويش حين اكتشف نقص عشر طلقات ولكن العفريت طمأنه الى انه لا يرى بأسا فى ذلك ما دامت الطلقات غير حية .

ومن بعيد جاءت الجنازة وهى تهرول ومن حولها كانت تدوى الولولات وتجلجل الصرخات . وللتو صاح العفريت بالفصيلة « انتباه . كتفا سلاح » وحين مر النعش من أمامه صاح « سلام سلاح » . وما كاد المشيعون والمشيعات يسمعون تلك النداءات ويرون « الكتف والسلام سلاح » حتى صمتوا كما لو ان ساحرا مر باصبعه على حلوقهم ، وراحوا ينظرون فى رهبة ودهشة الى العفريت والجنود . أما الفقيد فانه اندفع فوق اكتاف حامليه الى مقره الأخير بغير أن يعير مظاهر الدنيا الفانية اى اهتمام . واشار العفريت الى البروجى فراح هذا ينفخ فى النفير « نوبة نوم » وما كاد ينتهى منها حتى أمر العفريت الفصيلة باطلاق النار . وفى توقيت دقيق خرجت الطلقات ورجت سماء باب النصر رجا وعبأت جو المدفن برائحة الكورديت . ثم راح الجنود يفرغون بنادقهم من كعوب الطلقات ، ثم صاح بهم العفريت « سلام سلاح » ، ثم دوى صوت النفير بنوبة « صحيان » وانتهت بذلك مراسم الدفن . وهجم الاقارب والمشيعون على العفريت وراحوا يصافحونه

فى اكبار وانبهار ويعبرون له عن عميق الشكر والمنونية . ونسيت واحدة من المشيعات نفسها فاطلقت زغرودة تزلزلت لها شواهد القبور !. وفى تواضع رد العفريت على الشكر ب «العفو دا واجب» ثم انطلق بالجنود نحو اللورى . وسار اللورى من وراءالموتوسيكل ولكنه لم يقطع أكثر من مائة متر حتى فوجىء الجميع بجنازة تهرول نحو مدفن آخر وكان يتقدم تلك الجنازة عفريت منضباط البوليس الحربى ـ وكان من دفعة عفريتنا ـ . وصرخ عفريت البوليس الحربى « على فين ؟ » وللتو فهم عفريتنا سر الزغرودة، وعرف انه انفق السلام والنوبات وطلقات الفشيك على فقيد مدنى بحت (كان من أكابر معلمى الكارو) . وفى كلمات سريعة روى المقلب الذى شربه لزميله الذى ارتبك وصاح « دى مسئولية .. أنا ما ليش دعوة » . ونظر العفريت الى المشيعين فلم ير من بينهم اى رجل عسكرى ، فوجد الحل ، وأمر الجنود بالاصطفاف أمام المدفن الجديد . وهناك قدم للفقيد كل المراسم اللازمة ، وحتى ضرب النار تم على خير بواسطة طلقة فشيك واحدة كان احد الجنود « مدكنها » فى جيبه .

وتلقى العفريت آيات الشكر من أهل الفقيد ، بغير زغاريد فى هذه المرة . والى هنا تنتهى احداث هذه الذكرى . وان كانت الأمانة التاريخية تقتضى منا ان نسجل هنا ان العفريت قد انتقم من زميله عفريت البوليس الحربى ـ على رده الأنانى ـ انتقاما رهيبا .

وكان ذلك حينما أنهى الأخير عزوبته بيديه ، واستسلم للمأذون بدون قيد ولا شرط . ثم راح يقضى مع العروسة اجازة كان يختلط عسلها بالقلق .. فقد كان قائده من النوع الذى يجيد الافادة من قانون الأحكام العسكرية الى أقصى حد ، وبالتالى فانه كان يرى ان استدعاء الضباط ـ فى اى وقت ولأى سبب ـ أمر مشروع ومن صميم سلطاته ..

وكانت النتيجة ـ فيما يختص بالعفريت الأنانى ـ ان ذلك القائد استدعاه بالتليفون فى نفس اللحظة التى كان المـأذون يلقنه فيها عبارة « قبلت زواجها على كتاب الله وسنة رسوله » .. وطار العفريت ـ مكرها لا بطل ـ الى قائده .. ولم يعد الا بعد ان ادرك شهر زاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح . ولنفس السبب فانه قضى شهر العسل (وكان فى حقيقته أسبوعا واحدا) والتليفون عن يمينه وشهر زاد عن يساره .. علما بأن التليفون كان مثبتا فى جدار الصالة .. !!

ومن هنا جاءت الفرصة الذهبية للانتقام . فقد راح عفريتنا يقلد صوت القائد ويطلب « شهريار » ليل نهـار ويهدده بالغـاء اجازته ان هو ابتعد عن التليفون لمسافة تزيد عن مترين أو ان هو رفع السماعة .. ثم كان يعود فيطلبه ليسأله عن أى شىء أو ليقول له أى كلام .

وبذلك أفسد عليه أسبوع العسل تماما ، ووضعه فى مأزق حرج أمام الاهل والأصهار ..

ولكل شىء آفة من جنسه !!!

عفريت البيس

كان « قاس ؟ ك ؟ ل ؟ » عفريتا طبيعيا . ولما كان من طبيعة العفريت أن يكون هيوليا وشفافا ومن سكان « وادى عبقر » فان « قاس الخ » كان كذلك .

فعن هيوليته نقول انه كان يعيش وكأنه مشدود بخيوط غير منظورة الى النجوم والأفلاك . وذلك بمعنى انه كان يتوه بين حارات قريته بنفس السهولة التى يتوه بها فى العتبة الخضراء . ولكن العكس كان صحيحا تماما بالنسبة للملاحة الصحراوية فقد كان ـ لشدة ارتباطه بالسماوات العلا ـ يستطيع أن يهتدى بالنجوم وأن يستعين بكل الكواكب وعلى رأسها « كاسيوبيا » ، وبذلك كانت الصحراء بين يديه كالكتاب المفتوح . وفى المشروعات والمناورات كان هو صاحب القدح المعلى وكان يذهل المحكمين بالوصول الى الأهداف بدقة اينشتينية .

أما فى الحرب فانه كان نجم الداوريات اللامع وكان القادة يتبادلون الاستيلاء عليه ويتخاطفونه من بعضهم ، ويرسلونه فى داوريات الاستكشاف وداوريات القتال وداوريات الواجبات الخاصة . وكم من معلومات (بالغة الدقة) كان يعود بها ، وكم

من ضابط اشكنازى (أو عسكرى سفرديم) هبط عليه العفريت — فى أقصى الخطوط الخلفية — كالقضاء المستعجل ، وكممه وعصب عينيه ثم عاد به وقدمه هدية خالصة الى « ضامخ » * ، وكم من داورية اسرائيلية انتهت مهمتها قبل أن تبدأ بعدة دفعات متلاحقة من مدفعه الرشاش .

وبعد عودته من حرب فلسطين ، نزل العفريت بوادى عبقر .. وأى شىء يكون هـذا الوادى غير « ميس المشـاة » .. الذى يقع تماما فى المركز الهندسى لقشلاقات العباسية . وعن الميسات نقول انها عبارة عن فنادق مصغرة تحتوى على كل مطالب الحيـاة من غرف للنوم ومن قاعات للطعام وللمعيشة ، كما انها لا تخلو من مطالب الاستجمام والترفيه والرياضـة ، كالطاولة والشـطرنج والدومينو والراديو — لم يكن التليفزيون قد ظهر بعد — والكتب والمجلات وادوات وملاعب الرياضة . فاذا أضفنا الى كل ذلك العز أن الميسـات تقوم أيضا بعمليـات غسل وكى الملابس ، فان ارتياح بعض العفاريت الى العزوبية يكون له ما يبرره .. هذا اذا كان الكلام عن ميسات الوحدات فقط . أما اذا طبقنا نفس المقاييس على ميسات الأسلحة (ميس المشاه — ميس الفرسـان — ميس المدفعية الخ) فان المقارنة لا تكون هنا الا على نفس مستوى المقارنة بين شيراتون والهيلتون وبين اللوكاندة التى هى « تعلق الحاج سالم نعمة الله حبيب » ..

ولـما كانت الميسات تؤثث ثم تدار باشتراكات العفاريت ، فان الفرق يكون واضحا بين ميس الوحدة ، الذى يموله عدد محدود من العفاريت ، وبين ميس المشاه الذى تموله اشتراكات ضـباط سلاح باكمله .

(*) اذا كان القارىء مقاتلا فانه سـوف يتعرف على الاسماء والمختصرات العسكرية بسهولة اما اذا كان مدنيا فانه لا يحتاج اليها فى شىء .

وبديهى ان المعيشة فى الميسات توفر على العفاريت كثيرا من المـال . لانها تقدم خدماتها بسعر التكلفة فقط . ونهاره اسود . . ضابط الميس الذى يفلت العيار من يده بحيث ترتفع تلك التكاليف عن معدلاتها المعتادة ولو بدوانق معدودات . ولقـد اضطر عفريت ـ كان ضابطا للميس فى وحدة فرسان ـ الى القفز من نافذة مكتبه ذات يوم عندما سمع صوت المهاميز وهى تقترب منه فى خطوات غاضبة . وكان العفريت ساعتها يقرا عدية ياسين على طباخ الميس، الذى كان قد انتقاه بنفسـه من دفعة المستجدين . ولقد أثبت ذلك الطباخ كفاءته على الفور . . لا من حيث مهارته فى فن الطهى فقط ، وانما أيضا من حيث مهارته فى تلفيق الحساب بمعادلات لوغاريتمية يعجز بول ديراك (١) ذاته عن مجادلتها .

وكان العفريت قد ارسل بكشف الحساب فى الصـبـاح الى ضابط الماهيات ، على أمل أن يبعث اليه باستحقاقات الميس من سكات . ولكن المبالغ المطلوبة كانت من الهول بحيث اضطر الأخير الى اذاعتها على العفاريت العائدين من طابور الصباح . وللتو اتجه هؤلاء بربطة المعلم الى حيث كان ضابط الميس . ونظرا لان عفاريت السوارى يكونون مسلحين فى مثـل ذلك الوقت بعـدد وفير من الكرابيج فان ضابط الميس لم ير بدا من القفز من النافذة ، ثم راح يجرى بسرعة « الغار » (١) . ولكنه كان لسوء الحظ يرتدى التزلك والمهاميز بدوره ولذا فان صلصلة مهاميزه نمت عن هروبه، فتعـالت صيحات العفـاريت خلفه ، فانتقل من « الغـار » الى « المضاعف » ثم الى « الهجوم » . ولكن تلك السرعة القصـوى

---

(١) فهو العـالم الذى اكتشـف بمعـادلات عبقرية وجـود البوزيتـرون ، والبوزيترون هو نقيض النيجاترون الذى هو الالكترون .. ويقف علم الكاتب عند هذا الحـد .

(١) هـو « التروت » بالافرنجيـة ، و « الضـبر » بلغة بنى قحطان ، و « الرمح » بالعامية .

لم نجده شيئا . فقد لحق به العفاريت وراحوا يحاسبونه حساب الملكين . وفى نفس تلك اللحظة ظهر قائد السوارى فى أرض المعركة فاندفعت الكرابيج الى تحت الآباط وارتفعت الأيدى بتعظيمات متتابعة . ونظرا لأن ضابط الميس كان أولهم تعظيما فانه كان أولهم انصرافا . وبذلك حصل من الثوانى على قدر أتاح له أن يختفى عن الأنظار .

ونعود الى عفريتنا الهيولى فنقول ان اقامته فى وادى عبقر قد دعمت من هيوليته بحيث صرف النظر تماما عن فكرة الزواج وراح يوزع نشاطه بين العمل فى الوحدة وبين الاستعداد لخوض امتحان القبول لكلية اركان الحرب . ولعلم القارىء .. فان عذاب محاكم التفتيش يعد شيئا هينا بجانب العناء الذى يبذله العفاريت فى الاستعداد لذلك الامتحان الرهيب .

أما عن علاقة العفريت بالقاهرة وملاهيها فانها كانت علاقة متقطعة ، بحكم قدرته الخارقة على التوهان . وكم من مرة وجد نفسه خارجا من سينما ديانا بعد ان كان ـ حسب اعتقاده ـ قد دخل سينما مترو ..

وفى الحق فان عفريتنا لم يكن ساذجا ولا هو كان آتيا من جبل قاف حتى يتوه بمثل تلك البساطة . وانما هو كان فى حقيقة الامر لا يبالى بالملاهى والمتع التى تكتظ بها المدن وكان يفضل الحياة الطليقة فى الصحراء . ولذا فانه كان يسير على غير قصد ويدخل أى سينما ويشاهد أى فيلم ثم يعود وهو مقتنع بان أفضل مكان فى القاهرة هو « وادى عبقر » .. بغير أن يدرى بأن ذلك الوادى كان يدبر له مصيرا آخر .

ويحسن بنا ان نبدأ بوصف مسرح الأحداث .

فقد كان ميس المشاة يقع بين عدد من التكنبات ومساكن العائلات . فعن يمينه كانت توجد عدة فيلات سكنية ومدرسة

عسكرية وامامه كانت توجد مدرسة اخرى وعدة فيلات وكذلك كانت توجد كتائب الخدمات ومن بعدها عدد آخر من الفيلات ، وعن يساره كانت توجد اكثر من ادارة عسكرية وبينها فيلات كذلك . أما ظهره فكان يستند الى وحدة من سلاح خدمة الجيش .

وبذلك يكون المناخ من حول الميس مناخا مختلطا .. فلا هو عسكرى بحت ولا هو سكنى بحت وانما هو شيء بين هذا وذاك . وكم من مفارقات كانت تحدث بسبب ذلك . فقد كانت العفاريت يعتمدون فى ايقاظهم على أصوات نوبة صحيان التى تصدر فى الفجر من قرة قولات الوحدات ، ولكنهم كثيرا ما كانوا يستيقظون قبل الفجر على واواة ثاقبة من رضيع ينتمى صوته الى طبقة السوبرانو . وكان موسم الولادة السنوى (ويقع عادة فى الشتاء) هو الموسم الذى تضج فيه الفيلات بالزغاريد ، ثم يضج فيه أيضا عفاريت الميس من فرط الواوآت . أما العفاريت الجنود فكم راحوا يدعون على ازمة المساكن التى جاءت بالعفاريت الضباط وعائلاتهم الى الفيلات . فقد كان معنى ذلك هو أن الوحدات صارت فى متناول العفاريت فى الليل كما هى فى النهار . فصاروا يمرون على العنابر والمخازن والقرة قولات والداوريات مرارا وتكرارا حتى أصبح حكمدارية الخدمات يعيشون فى هم مقيم ، وحتى صاح واحد منهم ــ بعد أن مر عليه فى ليلة واحدة قائد الوحدة وقائد ثانى وقائد السرية وضابط عظيم وضابط نوبتجى ــ « هو كل ضابط غاوى يمر يمر .. مفيش حد منهم عاوز يحلى ؟! » ..

وفى ذات ليلة عاد عفريتنا من شارع فؤاد وهو فى غاية الانبساط . فقد دخل كعادته احدى السينمات ، بغير قصد سوى الاستجمام من عناء مذاكرة « أمر العمليات وتقف وكفس وعكيل و ع/مخ الخ » . ولحسن حظه ، كان الفيلم حربيا وكان للملاحة الصحراوية فيه دور كبير . وكما يخرج المبسوطون من

بار السلسلة (١) ، خرج هو من السينما . ثم راى ان يستكمل الانبساط فتناول ـ فى مطعم كان صـــاحبه مشهورا بشواربه الضخمة ـ رطلا كاملا من الكباب .

وفى تلك الأيام كانت الحركة تقل فى المساء وكان الهدوء يســود المسافة بين القبة الفداوية والقشلاقات . ونزل العفريت عند القبة الفداوية وسار وهو يدندن بأغنيته المفضلة « يا صحرا لمهنــدس جاى » . وعندما وصل فى الأغنية الى حيث توجد « عيون المى » سمع صوتا كان مألوفا لديه ، وكان هو صوت كعوب الغزلان وهى تجرى امام صياد لحوح . والتفت فراى آنسة كانت هى بذاتها الريم الذى هو على القاع بين البان والعلم . وكانت عينا تلك الريم متسعتان وكان كعباها العاليــان يدقان على الأرض دقا ينم عن الفزع . ومن وراءها كانت تتابع خطوات الصياد اللحوح .

ولم يتردد العفريت فى صرف النظر عن « لمهندس وعيون المى » وفى التصدى للافندى الرقيع الذى كان يحاول صيد الغزال. وفى هدوء طلب العفريت منه ان « يختشى على دمه » ، ولكن الافندى لم ير داعيا لأن يختشى .. أولا لان ريم (٢) كانت من الروعة والبهاء بحيث يعز على أى صياد ان يتخلى عنها ، وثانيا لأن النسبة بين حجم العفريت وحجم الصياد كانت لا تزيد عن ١ الى ٢ ، وثالثا لأن حيثية العفريت كانت غير ظاهرة لأنه كان يرتدى قميصاوبنطلونا وصندلا .

وقد عبر الصياد عن رأيه فى العفريت لحظتها بان دفعه بيده ثم عاد يهرول من وراء ريم .

---

(١) هذا الاسم واقعى . وكان صاحب البار يقيد الكراسى بالسلاسل حتى لا يتمكن زبائن آخر الليل من استخدامها فى التفاهم مع بعضهم .

(٢) ذلك هو اسمها فعلا .

ولقد دفع الصياد ليلتها ثمنا غاليا لرعونته فى الصيد ولجهله بفن المصارعة ، فقد اختطفه العفريت (كما فعل اخ له من قبل بالامير قمر الزمان) وفى غمضة عين وجد الصياد نفسه سابحا فى الهواء ، ثم انه هبط هبوطا اضطراريا على أرض العباسية ، ثم قام وجرى هاربا بعد ان ترك على الأرض كل أسنانه الامامية وقد اريق على جوانبهـا الدم .. و « متشكرة خالص » و « العفـو يا فندم » وسار كل من العفريت وريم فى طريقه . وعاد العفريت الى « لهندس والى » . ولكن خط سـير ريم عاد يقطع عليـه اغنيته ، لأن ذلك الخط كان يتجه راسا الى بوابة القشلاقات . وهناك قدمت ريم ورقة الى حكمدار القرقول فحياها هذا وسمح لها بالدخول . وواضح طبعا ان ريم كانت تنتمى الى عشـيرة العفاريت وانها كانت من سـكان الفيلات . ولم تلحظ ريم أن العفريت قد دخل بعدها الا وهى على بعد خطوات من «وادى عبقر » فقد تنبهت هناك الى خطواته فالتفتت ثم صرخت فى ذعر لأنهـا تصورت ان الصياد قد عاد لمطاردتها .

وعلى صرختها انفتحت نوافذ الفيلا المقابلة وميس المشاه معا . ومن نوافذ الميس دوت صيحات « امسكوه » ومن نافذة الفيلا دوت زارة هائلة .

وفى ثوان وجد العفريت أمامه صـاحب الزارة . وكان ماردا يسـبق العفريت بثلاث رتب كاملة .

ومن نفس الباب الذى ظهر منه المـارد كانت ريم قد اختفت ، ومن باب الميس تدفق العفاريت بالدستة . ومن الثكنات القريبة جاء الجنود وكان بعضهم مسلحا والبعض الآخر كان يحمل العصى وفروع الشجر .

وكل من عاش فى قشلاقات العباسية فى تلك الفترة يعرف انه كان هناك عهد غير مكتوب يحكم سلوك الجميع ، وكان ذلك العهد

يدور حول العائلات حفظا ووقاية ورعاية . وتلك طبيعة اصيلة فى شعبنا ، اما بين العفاريت فانها كانت اكثر من مقدسة . وفى ظل ذلك العهد المقدس كانت عائلات الضباط تعيش فى أمان تام .

ومن هنا كان هول الموقف الذى وجد عفريتنا نفسه فيه .. فقد كان المارد من أمامه والعفاريت والجنود من ورائه ، وكان الأول يزأر وكان فى حنجرته سبعمائة مكبر صوت وكان الآخرون يحيطون بهما احاطة « الهالة بالقمر والاكمام بالثمر » ، وكانوا ينظرون الى المارد وينتظرون منه اشارة يمزقون معها العفريت اربا . ولم يكن التمزيق اربا هو ما يخشاه الأخير ، وانما كان هو الخوف على سمعته والفزع من اتهامه بالخروج عن العهد . ولذا فان حجمه راح ينكمش ووزنه راح يتضاءل .. فلو كانت بجواره ساعتها زجاجة « ببسى » لدخل فيها بكل سهولة .

وبينما كان المارد فى أوج الغضب والزئير ظهر عفريتان من عفاريت وادى عبقر وراحا يهدئان من غضبه ويعرفانه بأن العفريت هو « اليوزباشى .. » وبدلا من أن يهدىء ذلك التعريف من غضب المارد فانه زاده اشتعالا وجعله يقذف بالحمم « وكمان ضابط .. وبتعاكس بنتى .. نهارك اسود ـ مع أن الوقت كان ليلا ـ حضرتك تقدم نفسك فورا للوحدة » وكان تمام الجملة الأخيرة طبعا هو « وتضع نفسك فى الايقاف » ولكن تلك الجملة لم تصدر . فقد جاءت صيحة نسائية تقول « يا فلان بيه .. استنى يا فلان بيه » . وكانت صاحبة الصيحة هى السيدة الفاضلة قرينة المارد . والتفت الاخير اليها ـ وكانت تطل من النافذة ـ وصاح بها « ادخلى .. انا جاى بعدما أدب الأفندى » فعادت تطلب منه أن يتريث وأن يعود الى الفيلا لكي تقول له كلمة فاشار الى العفريت بأن ينتظر فى مكانه ثم احكم ربط حزام الروب واتجه الى الفيلا . وراح العفريتان يسألان عفريت الببسى عن الحكاية ولكنه كان قد فقد صوته ـ فعلا ـ من هول ما لقى .

وعاد المـارد وهو يهرول ثم هجم على العفريت هجمة ظن الجميع انها القاضية ، فاذا به يتناول العفريت بالاحضان وهو يقول « حقك على يا ابنى أنا آسف جدا .. أرجوك سـامحنى » وبديهى ان القارىء قد ادرك ان « ريم » كانت قد تبينت غلطتها واخطرت والدتها بالحقيقة . ولكن العفريت لم يكن لديه صـوت يسامح به أحد ، فظل واقفا بغير حراك بينما كان المـارد يعـاود احتضانه ويطلب منه المسامحة .

وفى الوقت الذى لم يتبين فيه المـارد سبب صمت العفريت المطلق فان السيدة الفاضلة كانت قد اسـتطاعت ـ بنظره الأم واحساسها ـ أن تدرك ان العفريت قد فقد صوته . فصرخت بالمـارد « يا فلان بيه » فالتفت اليها وقال « أنا خلاص صالحته » فاجابته « بس تعالى » فذهب اليها ، ثم عاد الى العفريت وراح يسأله « فيه حاجة يا ابنى ؟؟ صوتك جرى له حاجة ؟؟ » .. وبديهى ان الاجابة على هذا السؤال كانت هى آخر شىء يتوقعـه الانسان من شخص فقد صوته .

وكان كل ما استطاعه العفريت هو ان يهز رأسه هزة المشدوه ثم خرجت من فمه حشرجة فزع لها المـارد والحاضرون .

وتحول وادى عبقر عندئذ الى واد تراجيـدى وصار المنظر اقرب ما يكون الى الفصل الختامى من مأساة عنيفة .

وعادت السيدة الفاضلة الى السيطرة على الموقف فبادرت بطلب عربة المـارد بالتليفون ثم طلبت منه ان يبادر بنقل العفريت المستشفى .

وقضى العفريت فى المستشفى أكثر من اسبوع ، كان فى خلاله موضع الرعاية والاكبار من المـارد ومن الأطباء ومن العفاريت من كل الرتب . ومع انه راح يسترد صوته شيئا فشيئا ، فانشخصية معينة من بين زواره كانت هى التى ظلت تجهل هذه الحقيقة حتى

نهاية الاسبوع . وكانت تلك هى شخصية السيدة قرينة المارد . ففد زارته فى اليوم التالى واغرفته بسيل من الزهور وعلب الحلوى. والكن ظاهرة معينة فى وجهها دفعت بفكره عفاريتية الى راسه فراح ينفذها على الفور . وكانت تلك الظاهرة تنتسب الى العلاقة المشهورة بين القدرة وفمها والبنت وأمها . فقد كانت السيدة صورة طبق الأصل من ريم — مع اختلاف طبيعى فى الوزن — . ولقد تلقى العفريت هداياها بكل الامتنان ولكنه اصر على التظاهر بأنه فقد صوته تماما . ومع أن عينى السيدة أغرورقتا بالدموع وقتها فانه لم يضعف واستمر فى أداء دوره طيلة الايام التالية .

وبذلك كان الحديث فى كل زيارة يدور من جانب واحد هو جانب السيدة . وحصل العفريت على كل ما كان يلزمه من معلومات .. فعرف ان ريم طالبة فى كلية الاداب بجامعة فؤاد (القاهرة الآن) وانها عادت ليلة البيسى وحدها بسبب مرض شقيقها (الطالب فى كلية الطب) . ومن يوم الى يوم راحت المعلومات تتكامل حتى اطمأن الى أن فكرته يمكن ان تصلح للتنفيذ .. خصوصا بعد ان كسب فى شخص السيدة حليفا قويا .

وأى شىء يكون ذلك التنفيذ غير شهر عسل سعيد مع ريم ، تليه سنوات فى فيلا على يمين وادى عبقر ومن بعدها سنوات فى شقة على النيل .

واليوم يقيم عفريت البيسى وريم ومعهما عفروت وريمتان فى فيلا بمدينة الضباط .

ومنذ شهور كان العفريت وريم يجلسان فى الشرفة ويتساءلان عن سبب تأخر « ريم الثانية » الى ما بعد الغروب . ومن بعيد جاءت ريم الثانية وهى تهرول فى فزع ، ومن خلفها كان عفريت جندى — ظهر فيما بعد أنه مهندس زراعى مجند — يقوم بترقيع اصداغ صياد لحوح آخر .

وساعتها التفت كل من العفريت وريم الى بعضهما وهتفا فى صوت واحد « تانى !!! » .

الهرفون صاغبرج

فى أوائل الثلاثينيات ، فوجىء مهندس مصرى بالماضى البعيد وهو يقف أمامه على صورة شاب شديد الشبه به . وحياه الشاب قائلا « جوتن مورجن ماينى هيرن» (صباح الخير يا سيدى العزيز) . وانتفض المهندس فى ذعر شديد وتناول اليد الصلبة الممتدة اليه وراح يصافح صاحب « الجوتن مورجن » وهو يقول « أهلا يا ابنى » . وكان الشاب هو ثمرة زواج خاطف بين المهندس وجارته البرلينية ، عندما كان الأول يدرس الهندسة ، ويدرس معها كل فنون الغزل الالمانية . ونظرا لأن عين المهندس كانت فارغة فان زواجه لم يكن موفقا ، ولذا فانه لم يتردد ، بمجرد تخرجه ، فى التسلل من المانيا ، تاركا برلينيته الحسناء وهى حامل فى شهرها الأخير .

وكل متتبع للتاريخ الاقتصادى يعرف أن الأزمة المالية ، التى بدأت سنة ١٩٢٩ — واستمرت لسنوات بعدها — قد طحنت المانيا طحنا حتى كان الناس فيها يتقاتلون أمام المخابز . ومن هنا فان أقراو المهندس الهارب لم تتردد فى بيع ما تيسر من الأثاث والمصاغ وفى شحن ابنها الى مصر ... فلعل وعسى .

وكان بلعل وكان بعسى ... فقد وجد المهندس نفسه فى مأزق رهيب . فقد كان ابنه النصف ألمانى أمامه وكانت زوجته المصرية وأبناؤها الأربعة وراءه . وكان تخليه عن الابن ـ الذى كانت عيناه تطقان بالشرر الجرمانى المعتبر ـ يشتمل على مخاطر اقلها قضية نفقة شرعية امام المحكمة المختلطة ، واقصاها رصاصتان من المسدس الباربللوم الذى كان يطل من حزام الابن العزيز . كما أن ايواء ذلك الابن فى البيت كان يعنى فضيحة بجلاجل وانهيارا لا شك فيه لكيان « الأسرة » التى لم تكن تعرف شيئا عن ماضى الباشمهندس « ذى اللحية الزرقاء » ...

واسعفه صديق محنك بالحل المثالى . وكان ذلك الحل هو الحاق الابن بالمدرسة الحربية . ولم يتردد الابن فى القبول ، لأن الألمان يقدسون الرداء العسكرى من ناحية ، كما أن الغذاء والكساء كانا مضمونان فى المدرسة

وعن طريق « الواسطة » (١) . استطاع المهندس أن يلحق ابنه بالمدرسة الحربية فى منتصف العام الماضى الدراسى . ولقد اضطرت ادارة المدرسة الى استحضار سمسار (كان يجيد الألمانية والعربية) لكى يعلم ذلك العفريت الألمانى ما تيسر من اللغة العربية . وقد بلغ من لهفة الأخير على الحياة العسكرية انه استبدل لفظ « اختوم » بلفظ « انتباه » فى ثوان . ثم راح يعب من اللغة العربية عبا ، حتى صار يتحدث بها فى فصاحة تصاحبها لكنة خفيفة ، أما عن العامية فانه صار من بنى بجدتها .

---

(١) من اعجب الامور أن شعبنا قد ارتبط بالواسطة الى حد انه لم يتردد فى اطلاق ذلك الاسم الاسكندالى على مدينة ومركز كبير فى محافظة بنى سويف . واعجب من ذلك ان مدينة « الواسطة » تقع بعد مدينة « العياط » وقبل مدينة « الرقة » . والعياط ظاهرة ملازمة لطلب الواسطة ، والرقة نتيجة طبيعية لتأثير الواسطة !!

وتخرج العفريت ، وصار ـ على حد تعبيره ـ جديرا بلقب « هرفون ملازمبرج » . ومن ملازم ثان الى بكباشى ، سار العفريت بسرعة « البليتز » (البرق) . كما انه تزوج وانجب وصار من سكان شبرا الاخياف .

وسبحان مغير الأحوال . فقد نسى ذلك العفريت كل ما كان قد جاء به من الأنماط الألمانية ، وصار يأكل فى البيت على الطبلية ويجيد طهى الملوخية ويفضل المبار على الفرانكفورتر ويشرب الكركديه بدلا من البيرة . وتلك كلها خلائق محمودة تبشر بأن مقسم الأرزاق قد اصطفاه ، وانه سبحانه وتعالى قد شاء له أن يستبدل الطبع بالتطبع وان يتأقلم فى شبرا كأى مصرى عتيد .

ولكن العرق الدساس شاء ان يتدخل فى حياته ، فسلبه كل ما كانت والدته البرلينية وجدته البروسية قد طبعتاه به من نظام وانضباط ، ثم راح ذلك العرق يطبعه باللا مبالاة وبالجهجهونية اللذين كانا من السمات المميزة للوالد الباشمهندس .

ومن هنا فان المشاكل راحت تصاحب العفريت فى حله وترحاله ، وكان بعضهاخفيفا ، أما معظمها فكان « أرسين لوبينى » .

فقد حدث ذات يوم أن غاب قائد كتيبة العفريت ، وبقى الحصان الذى كان يمتطيه فى طابور الصباح بغير راكب (كان قادة كتائب المشاة يديرون الطوابير من فوق ظهور الخيل) ، فما كان من العفريت (وكان ملازما مستجدا) الا أن قفز فوق الحصان وراح يرمح به فى أرض الطابور بين صيحات أركان حرب الكتيبة « انزل يا افندى لحسن اوقفك » .

وبلمسة بروسية فنية قفز العفريت بالحصان من فوق سور السلك الشائك فاذا به يقع فى وسط غابة من سلك الكونسرتينا العنكبوتى . الأمر الذى نتج عنه « تشريك » الحصان وبيعه بثمن

بخس دراهم معدودات لحديقة الحيوانات ، حيث اكلته الأسود بالهناء والشفاء . اما العفريت فانه خرج من الكونسرتينا بعدد رهيب من الجروح . ومع ذلك فانه ظهر فى طابور الصباح التالى والضمادات تكسوه كما لو كان مومياء فرانكشتين . وحين صمم القائد على أن يخصم عليه ثمن الحصان ، فانه لم يتردد فى الحصول بطريقة لولبية على حصان من خيل المدفعية ، وفى تقديمه الى القائد بصفته حصانا عربيا أصيلا . وما أن امتطى القائد ذلك الحصان الطوبجى حتى جمح به الأخير الى تلال الجبل الأحمر ثم القى به هناك ، ثم ناوله رفسة مفتخرة ، ثم عاد الى الاسطبل وهو يتبختر فى كبرياء .

وفى رتبة اليوزباشى دخل العفـريت فى هواية ترتبط بالكرم الحاتمى ارتباطا وثيقا . واذا كان حاتم الطائى قد اشتهر بأنه كان يقرى أضيافه باللحم والثريد فان عفريتنا قد اشتهر بدوره بأن قراه المفضل هو الموسيقى النحاسية .

ولقد استمتع حى شـبرا فى تلك المرحـلة من حياة الهرفون يوزباشبرج ، بموسيقات الجيش وهى تعزف فيه ... فرحا بعد فرح ، ودخلة بعد دخلة ... وما من سيدة تزوجت فى شبرا فى ذلك الوقت ، الا وهى تذكر مع الفخر كيف ان موسيقى الجيش قـد احيت ليلة زفافها ، وكيف أن تلك الموسيقى قد استقبلت عريسها بالسلام الملكى ، وكيف كان حامل العصا المفضضة يقذف بها فى الهواء ويلعب بها لعبا عجيبا وهو يتقدم موكب الزفاف . وكان الفضل فى ذلك كله للعفريت . فقد كان هو قائد سرية الرئاسة . وكان قائد سرية الرئاسة يحتكم على فرقة موسيقى الكتيبة .

وكانت الكتائب تؤجر فرقها الموسيقية للافراح بتسعيرة ذات شعبتين . شعبة خاصة بالضباط واقاربهم ، وشـعبة خاصـة بالجماهير . وكان سعر الشعبة الأولى ـ فيما يذكر الكاتب ـ هو جنيهين فقط لا غير (شاملين أيضا لنقل الفرقة من الباب للباب) .

اما السعر الجماهيرى فكان هو ثمانية جنيهات (عدا اجر النقل ، وكان جنيهين) .

وكانت البداية حين تزوج واحد من أصدقاء العفريت من عروس فطقوطة فى « جزيرة بدران » . وكان العفريت يومها مفلسا فلم يتردد فى أن يعرض على العريس نقوطا مقداره ثمانية جنيهات كاملة (هى الفرق بين السعر الضباطى والسعر الجماهيرى) . وقبل العريس الصفقة ودفع الجنيهين على الفور . فتقدم العفريت الى نفسه بطلب استئجار فرقة موسيقى الكتيبة لاحياء فرح شقيقته ، ثم وافق على الطلب ، ثم اخذ تصديق القائد عليه . ثم صحب فرقة الموسيقى بنفسه الى الفرح . وهناك استقبله القوم استقبال الأبطال ، بينما راح العريس يقسم بأن صديقه العفريت « اجدع ناس » . ولما كانت موسيقى الجيش لا تقبل النقوط ولا تمارس طقوس « ولاد الحتة ، والجدعان وأنا وانته » ، فان وجودها قد اضفى على الفرح من البهجة والوقار والعظمة ما جعل والدة العريس تحلف بحياة تلك الليلة الملوكانية حتى اليوم .

وغار عريس آخر من أصدقاء العفريت فقصده طالبا ليلة مماثلة ، فلم يتردد اليوزباشبرج فى تقديم طلب لنفسه لاحياء فرح شقيقة اخرى . ثم اضاف عازفى القرب الى الفرقة . وبذلك جعل ليلة الفرح من ليالى العمر بحق وحقيق .

ومن بعدها راح العرسان يتوافدون على العفريت و « ربنا يخليك يا سعادة البيه ويعمر بيتك .. عاوزين المزيكة » .

ولعبت الدماء العربية (التى كانت أسرة الباشمهندس تحتكم على قدر طيب منها) دورها ، فانطلق العفريت على درب الموسيقى ، واصبح ديدنه — كل يوم — هو كتابة طلب « لفرح شقيقته » فى الصباح ، ثم تصدر المائدة الرئيسية فى الفرح فى المساء . وبذلك

أمضى أكثر من الف ليلة فى أفراح وولائم وصار سيد شبرا بغير جدال .

وفى صباح الليلة الثانية بعد الألف خطر على بال قائد الكتيبة ـ الذى كان لا يقرأ البوستة أبدا ، وكان يمضى عليها بطريقة عشوائية بحتة ـ أن يقرأ الطلب الذى قدمه اليه العفريت ، ففعل ، ثم مسح زجاج نظارته بقطعة من جلد الغزال ، ثم أعاد قراءة الطلب ، ثم سأل اليوزباشبرج « أنت عندك كام اخت ؟ » . وبكل بساطة كان الجواب « كتير » . فسأله القائد « يعنى كام تقريبا ؟ » . فأجاب العفريت « اللى تشوفه سعادتك » ، فصرخ الرجل « احنا بنبيع لب واللا ايه ؟ !! يا فندى عندك كام اخت » ، فقام العفريت بعدة حسابات عقلية سريعة ثم قال « أكثر من ١٥ » . فصاح القائد « ولو انها واسعة شوية ، لكن راح أصدقك من باب الجدل . حضرتك مجوز لحد دلوقتى أكثر من خمسين أخت . يبقى عليك ٣٥ » . وبغير أى تلعثم رد العفريت « أصل الوالد يا فندم كان بحبوح ؟ اتجوز كتير ... عندك حكايتى أنا سعادتك عارفها » . وهرش القائد راسه (كانت توجد بها ثلاث شعرات بالعدد) ، ثم أصدر النداء « انتباه يا أفندى » ، فتصلب العفريت فى وقفة انتباه ، بعد ان ضم كعبيه الى بعضهما على الطريقة البروسية العنيفة . وكان النداء التالى « بالأمر تبطل جواز الاخوات بعد كده . انصراف » . وخرج العفريت من المكتب وهو لا يصدق بالنجاة .

ومن يومها ، وحتى نقل العفريت من الكتيبة ، تتالت طلبات ضباط الكتيبة باستئجار الموسيقى لأفراح شقيقاتهم !!! . وحين نفد رصيد العفريت من شقيقات الضباط لم يتورع عن اقناع القائد ذاته بأن يعيره أحدى شقيقاته . وكان سر نجاح العفريت (فى لعبة الكراسى الموسيقية هذه) كامنا فى قدرته العجيبة على الحصول على خراطيش السجائر الكرافن والبحارى بكميات تفوق كل خيال .

وحين خطر على بال زميل للعفريت أن ينبهه الى ان تاجير الموسيقى بتلك الأسعار الزهيدة يوقع خسارة مالية بالحكومة ، لم يتردد العفريت فى توليع سيجار توسكانى ، وبعد عدة أنفاس متتابعة نفض رماد السيجار فى عظمة ثم قال للزميل « هو كان مال أبونا يعنى ! » ...

وفى رتبة الصاغبرج وقع العفريت فى مطب رهيب ، ولكنه خرج منه بطريقة مازالت ذكراها تثير الرعدة فى أوصال العفاريت الذين كانوا من شهودها .

فقد مرض قائد الكتيبة والقائد الثانى فى وقت واحد . ومن المؤكد أن مرض واحد منهما على الأقل كان مرضا تكتيكيا أكثر منه عضويا ... فقد كان موعد التفتيش السنوى على الابواب . كما ان القائد الكبير ـ الذى كان سيقوم بالتفتيش ـ كان مشهورا بالقسوة البالغة ، وكان لا يخرج من اى وحدة باقل من ملء وطابه ... ضباطا موقوفين وجنودا محبوسين . وكم من بيت خربه ذلك الرجل وكم من مستقبل قضى عليه .

وبمرض القائد والقائد الثانى وقع العفريت فى مطب قيادة الكتيبة ، واصبح فى « وش المدفع » . وعندما سمع أصدقاؤه وعفاريت دفعته بالنبأ الاليم راحوا يتقاطرون عليه ويغمرونه بمشاعر الأسى وعواطف الرثاء ، ويعرضون خدماتهم عليه . فواحد راح يتبرع له بالجير اللازم لتبييض العنابر ، وآخر راح يهدى اليه صندوقا من علب البراسو (لزوم تلميع الزراير) ، وثالث أعطاه دواءا معينا (يزيد من ضربات القلب ويساعد على دخول المستشفى) ، ورابع رأى أن يعمل بقول المتنبى .

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

وبكل الكبرياء البروسية راح العفريت يستقبل المحسنين بالشكر والامتنان ويعتذر عن قبول اى مواساة واى معاونة ، ويؤكد لهم انه

قادر على مواجهة معمعة التفتيش ، بنفس الشجاعة وحسن التدبير الذين واجه بهما جده المارشال بلوخر جيوش نابليون فى واترلو !! ثم وعد الجميع وعدا قاطعا بأن نتيجة التفتيش لن تختلف عن نتيجة معركة واترلو ، و « احلق شنبى ان ماكنت أفقده » . ولم يكن أحد ممن سمعوا تلك الادعاءات الضخمة يتصور ان العفريت كان يعنى كل كلمة منها بالحرف الواحد . . .

وجاء اليوم الموعود . واهل موكب القائد الكبير . وعلى باب المعسكر استقبله العفريت بفرقة موسيقى مهولة ، كان قد فركها من مجموع فرق الكتائب المجاورة .

وفى أرض الطابور كانت الكتيبة تقف فى اصطفاف رائع . وبصيحة من العفريت « سلام عظيم .. سلام سلاح » صلصلت السيوف واصطفقت الأيدى على البنادق وجلجلت الآلات النحاسية ودوت الطبول .

وفى وقفة عسكرية اسمنتية رفع القائد الكبير يده ورد على « سلام عظيم » بسلام أعظم . وصاح العفريت « كتفا سلاح » ثم « جنبا سلاح » ، ثم دعا القائد للمرور على الطابور . وذهل الاخير وهو يمر على الجنود ، فقد كانوا كلهم من العمالقة بحيث انه كان مضطرا لأن يشب على قدميه ، فى محاولة مستميتة للتخفيف من وقع المقارنة بين طوله وطولهم . ثم أن الجنود كانوا من بعد ذلك بقيافة القيافة ، بحيث عجز الرجل عن العثور ولو على ملاحظة واحدة يتخذ منها سبيلا الى ممارسة عمليات تقطيع الاوصال التى كان يجيدها .

وكانت الفقرة التالية هى « افطار عمومى » . وهى من التقاليد الثابتة فى معظم الجيوش . وفيها يلتقى القائد الزائر مع ضباط الوحدة حول مائدة الافطار .

وبصرف النظر عن نوعيات الطعام فى هذا الافطار فان الطبق الأول كان حتما مقضيا وتقليدا لا يمكن الخروج عنه ، وكان هو: « شوربة العدس » . وفى الميس تصدر القائد الكبير المائدة وهو ينفخ من الغيظ ويتلمظ .. للطعام المنتظر ، ثم لتفتيش العنابر « وفرش المتاع » ، فقد كانا هما ساحات الاعدام المفضلة لديه . ولذا فانه راح يستعجل طبق العدس . وجاء قارب العدس ، فنهض العفريت وراح يغترف منه ويملأ طبق القائد حتى حافته . وبلهفة يزيد بن عبد الملك (١) ضرب القائد بملعقته فى أعماق الطبق ثم تناول اول جرعة ، فاستطابها ، فشد الطبق اليه ثم تناول منه ملعقة ثانية فثالثة وهو يغمغم — فى خشونة — مثنيا على جودة طهى الشوربة . وكان من الظواهر العجيبة أن العفريت كان يحاصر قارب الشوربة بيديه ويمنع الآخرين من الاغتراف منه ..

وفى تمام الملعقة العاشرة سقط راس القائد الكبير على صدره ودخل فى حالة « فيرتايجو » (دوخة) رهيبة . وأخذ سائر العفاريت بهذا المنظر بينما راح الصاغبرج يتفزع ويهتف « سلامتك يا سعادة الباشا » . ولكن الباشا كان فى واد آخر ، فقد راح صدره يعلو ويهبط ، ودخل فى « الكوما » (غيبوبة تعقبها صلاة الجنازة) فتحشرجت أنفاسه وراحت تكسو وجهه صفرة رهيبة . ولولا أن جسد الرجل كان متين البنيان لكان قد انتقل من الميس الى رحمة الله فى ثوان ...

ولم يتردد الصاغبرج فى فك كرافتة الباشا . ثم راح يدلك صدره وهو يردد « ألف ألف سلامة يا سعادة الباشا » . وبعد لأى فتح الباشا عينيه وراح يسأل « أنا فين ؟ أنا جرا لى ايه ؟ » . فقال له الصاغبرج مطمئنا « حاجة بسيطة يا أفندم ... بس سعادتك دخت شوية . من الاجهاد يا فندم . ربنا يقويك يا سعادة الباشا » .

---

(١) كان من مفاجيع التاريخ المعدودين .

فاجاب الباشا فى صوت واهن « طيب يا ابنى كتر خيرك . اطلب لى العربية » . فصاح العفريت ـ فى فرحة لم يستطع اخفاءها ـ « العربية العربية . . » وجرى عدد من العفاريت لاستدعاء العربية ، بينما مد الصاغبرج يده الى البوفيه القريب وتناول دفترا أنيقا ثم بسطه أمام الباشا ، ثم وضع فى يده قلما وهو يقـول « دفتر الزيارات يا فندم » . فقال الباشا « طيب يا ابنى طيب » . ثم وقع على الدفتر بامضائه الكريم . ثم خرج متساندا على كتف العفريت ، ومضى لسبيله بين عزف الموسيقى و « سلام عظيم » .

وفى مكتبـه فتح العفريت الدفتر ، الذى لم يكن ابدا هو دفتر الزيارات وانما هو كان دفتر التفتيش بورقه الأزرق الأزوريه وجلدته الاجلاسيه الفاخرة . . . وفى السطور السابقة على امضاء الباشـا كتب العفريت ما شاءت له فصاحة جوته وبلاغة أبى هلال العسكرى ، من عبارات التقريظ للكتيبة والثناء على حسن انتظامهـا وجودة ضبطها وربطها وروعة فرش متاعها .

ومن وجهة نظر العفريت ـ من حيث انتمائه المزعوم للمارشال بلوخـر ـ فان تلك المعمعة التفتيشية كانت هى واترلو الثانيـة بلا ريب .

وبعد فمن أين جاءت تلك الفيرتايجو الرهيبة ، التى كادت أن تودى بحياة القائد الكبير ؟؟ !. ومن قبلها ، قد يسأل القارىء من أين جاء العمالقة الذين تضاءل الرجل أمامهم ؟؟؟ .

ونبدأ بالاجابة على السؤال الثانى فنقول ان العفريت كان قـد استأجر العمالقة (بالقيافة التامة) من الكتائب المجاورة ، وذلك فى نظير سيجارتين كرافن فى مقابل كل عملاق .

اما عن الفيرتايجو فان المسـئول عنها كان هو درهم كامل من الحشيش « الغبارة » النقى . . فركه العفريت فى قارب العدس ،

ثم غرف للقائد منه ، وسقاه اياه على طريقة آل بورجيا (١) ..

ولقد تناقل عفاريت الجيش كلهم تلك الحكاية الرهيبة ، ولكن امرها ظل خافيا على القـائد الكبير ، وسوف يظل الأمر كذلك . لأن الرجل مات بعدها بسنوات قليلة « ومن لم يمت بالعدس .. » .

وكان تعليق العفريت على عملته السوداء « ما هو كان لازم أفطر به قبل ما يتغدى بى ... ثم احنا شغلتنا ايه غير القتل ! ؟ » .

وفى رتبة البكباشى كان العفريت قائدا لقوة منفصلة . وكانت تلك القوة مكلفة بحراسة القناطر الخيرية . وهناك كانت ترابط بعض الوحدات الانجليزية (فى خلال الحرب العالمية الثانية) . وقد ضج قادة تلك الوحدات من كثرة اختفاء الضباط والجنود . وللصدف العجيبة ، فان الأجندة المســتقرة فى درج مكتب العفـريت كانت تشتمل على عدد من « علامات صح » وعبارات « تحيـا مصر » . وكان ذلك العدد طبق الأصل من عدد الجنود والضباط الانجليز المختفين ...

وحين وقع ملف خدمة العفريت بالصدفة فى يد واحد من ضباط البعثة الانجليزية وجد العفريت نفسه فى الاسـتيداع بغير سبب يذكر . ومن يومهـا انقطعت ظاهرة اختفاء الانجليز من القناطر ...

وعلى عهدة العفريت نفسه نروى الحكاية الآتية :

فقد كانت الجوارب النسـائية النايلون هى أعجوبة الأربعينيات . وكان الحصول على زوج منها هو حلم كل فتاة وكل سيدة . ولقد جاء يوم كان فيه الحصول على زوج من ذلك النايلون أصعب بكثير بالحصول على زوج من البشر . ولقد دخل العفريت فى النايلون من

(١) كان هؤلاء القوم الكرام يجيدون تسبيك الطعام بأفخر انواع السموم .

اوسع ابوابه فراح يحصل عليه بوسائل شيطانية ثم يبيعه لنسـآء الطبقة الراقية . وكانت من زبائنه اميرات الأسرة المالكة . ويقول العفريت انه كان يتلبس بثياب سماسرة الاناقة ثم يتوجه الى القصر أو الذهبية حيث يتناول عشاءاخديويا ويرقص من حفيدات جنتمكان محمد على ، ثم يبيع لهن الجوارب بأرباح لا تقل عن ١٠٠٠٪ ثم يعود الى الاستيداع فى شبرا ...

وعندما شاء واحد من دفعته أن يخدمه باعادته الى الخدمة ، كاد العفريت أن يرفض الخروج من جنة الاستيداع النايلونية ، ولكنه لم يجد بدا من القبول بطبيعة الحال .

وفى اليوم الأول لعودته من الاستيداع كاد أن يقضى (بطريقة جهجهونية رهيبة) على مستقبل عفريت يوزباشى . وكان الأخير قد فاز لتوه بعروس قطقوطة وبنجمته الثالثة أيضا .

فقد كان اليوزباشى يدير طابور البيادة بهمـة ونشاط عنـدما دخل عليه عفريتنا العائد من الاستيداع (بصفته قائدطابور الصباح) . وتبادل الاثنان التعظيمات . وبكل بساطة ، ضرب الهربكباشبرج يده فى جيبه واخرج سيجارتين « فرط » وعزم باحداهما على اليوزباشى ثم اخرج عودا من الكبريت الأمريكانى وراح يحكه فى حذائه حتى اشتعل . ثم اشعل سيجارته وسيجارة اليوزباشى . ومع أن الأخير ذهل من ذلك التصرف الجهجهونى فانه راح يدخن وهو يحسب نفسه فى حماية قائد الطابور .

ولو أنه كان حريصا للاحظ أن الاخير كان يدارى سيجارته فى راحة يده ، كما انه كان يبادر بتبديد سحب الدخان بيده الأخرى . وفجاة ضرب البكباشبرج سيجارته فى جيبه (وهى مشتعلة) ثم تصلب فى وقفة بروسية شامخة وصاح بالطابور « انتباه » . والتفت اليوزباشى ليجد نفسه فى مواجهة قائد المنطقة المركزية مباشرة ...

وللتوتمتم اليوزباشي لنفسه « بسم الله الخالق الأكبر . هو حرق لكل خائف » . ثم أسقط السيجارة تحت قدمه وراح يهرسها حتى قضى على كل معالمها . وجرى البكباشبرج ولهف قائد المنطقة واحدا من أمتن تعظيماته البروسية . ثم راح يعطيه التمـام ، فطلب منه القائد ان يجمع له الضباط ففعل .

وراح القائد يمر عليهم واحدا فواحد . ثم توقف امام اليوزباشي وسأله « ايه اللى كان فى ايدك يا حضرة اليوزباشى » !!.. ، فأجابه هذا « مافيش حاجة يافندم » . فقال القائد « كان فيه فى ايدك حاجة كده زى سيجارة » . فتلجلج اليوزباشى ، فخف البكباشبرج لنجدته وقال مستنكرا « سيجارة ازاى يا فندم .. دا كان واقف معايا » . فلاحت على وجه القائد ابتسامة خفيفة وقال « وهوا اللى يقف معاك يسلم من المصـايب ؟ » ... فهتف البكباشـبرج فى ورع شـديد « استغفر الله يا فنـدم ... دى بس لازم الدبـلة بتـاعة حضرة اليوزباشى كانت بتلمع فى الشمس ... دا لسة عريس بشوكه » . فتأثر القائد الطيب وصافح اليوزباشى مهنئا ، ثم قال له وهو يشير الى البكباشبرج « ابعد عن ده وغنى له » .

وصام اليوزباشى وصلى على هذه النصيحة الثمينة ، وصار يفر بعدها من البكباشبرج كما يفر المرء من الوباء .

اما عن سيجارة البكباشبرج ، وكيف لم تحرق جيبه وتفضحه ؟؟ فان السر كان كامنـا فى قمـاش بطانة ذلك الجيب .. وكان ذلك القماش « فايربروف » (ضد الحريق) ...

ونعـود الى ما رواه البكباشبرج عن نفسـه فنقول ان ادمانه للنايلون راح يلاحقه حتى اضطره الى متابعة تهليبه وبيعه . وسارت الريح رخاءا به لعدة أشهر ثم ...

ثم وجد نفسه ذات ليلة فى ذهبية ماوكية على شاطىء الجزيرة .

وهناك راح يعرض بضاعته على برنسيسة كانت وثيقة القرابة بالملك ، وكان العفريت يصب الجوارب على المائدة أمامها بينما كانت هي تصب كئوس الويسكي « السك » في حلقها بالعشرات ، حتى أصبحت أكثر من طينة . ومن ثم فانها لم تتردد في تطويق العفريت على طريقة « انا انطونيو ، وانطونيو أنا » . وفي نفس تلك اللحظة طب الملك بقضه وقضيضه (١) . وصرخ الملك وقد فجعه المنظر . فالتفت العفريت ورأى الرفت والفضيحة ماثلين في عيني صاحب الجلالة ، كما رأى الموت أيضا ماثلا في واحد من الباشبوزوق كان على وشك العبور الى الذهبية ، وكان مسلحا برشاش قصير .

ولم يترددالعفريت ساعتها في انتزاع نفسه من بين براثن الأميرة ثم جمع الجوارب المبعثرة على المائدة ودسها في صدره ، و « هيلاهوب » .. من سطح الذهبية الى النيل مباشرة .

ومن تحت الماء راح يدفع بالجوارب في جيوبه الداخلية . ثم سبح الى مؤخر الذهبية حيث لبد ثم راح يعب من الهواء وهو يكتم العطس ويلهث في همس . وهناك جاءته صيحات الملك الغاضبة وضحكات الأميرة المستهترة ، بينما كانت الأضواء تدور في الماء بحثا عنه . واخيرا هتف صوت نسائي عطوف « يا حفام .. المسكين غفق (٢) » ، فدوى صوت الملك « في ستين داهية » . ثم خرج الملك من الذهبية وهو ما يزال يسب ويلعن .

وتحسس العفريت طريقه نحو الشاطىء . ثم عاد الى بيته وهو يرتجف من هول ما لقيه .

ومن يومها ، فانه كان يبادر بالالتحاق بكشف المرضى كلما تعين في تشريفه أو حرس شرف أو اصطفاف ، وكان ذلك تفاديا من أن تقع عليه عين الملك . ثم جاءه المعاش في أوائل الخمسينيات ومن يومها انقطعت اخباره عن الجيش وعن الكاتب .

---

(١) كان الملك السابق يدمن لبس الأحذية ذات النعل المطاطي .

(٢) « ياحرام المسكين غرق » .. باللثغة الفرنساوى ..

معركة الصنوبر

أيا كانت الاختلافات بين بنى جونبول وبين بنى عثمان ، وأيا كانت الخلافات بين عفاريت مصر وشواليم اسرائيل ، فانهم متفقون بلا ريب على أن تبة « على المنطار » (١) هى مفتاح غزة ، وان كانت أسباب اقتناع كل طرف بهذه الحقيقة تختلف تبعا لعلاقة كل منهم بهذه التبة الخطيرة .

فعن بنى جونبول وبنى عثمان نقول ان الاخيرين كانوا يربضون فى بلانقات (٢) التبة (عام ١٩١٧) وان الاولين كان يهاجمونها (بقيادة الفيلد مارشال اللنبى) . وفى معركتين متقاربتين أستطاعت النيران المنطارية أن تختزل جيش الفيلد مارشال لأقل من النصف . وعلى اسوار التين الشوكى التى كانت تحيط بالتبة وفى ميدان ضرب النار النموذجى الذى يمتد امامها رقد آلاف الآلاف من بنى جونبول فى سلام بعد أن نقلتهم تلك النيران من دار الفناء الى دار البقاء . وقرب بيارة خيال مازالت مدافنهم تحمل شواهد تقول « بريتش سولجر » نون توجود » . (جندى بريطانى . علمه عند الله) .

---

(١) من أولياء غزة ومقامه على التبة .

(٢) أى الخنادق باللغة التركية .

وللتاريخ نسجل هنا انه لولا قسوة الاستعمار التركى ولولا اخاديع لورنس لما رضى كبير من مشايخ البدو بأن يفيد الفيلد مارشال اللنبى بدرس فى الطبوغرافية ولما نصحه بأن يهاجم تبة على المنطار من اتجاه بير سبع شرقا . وبهـذا وحده سقطت التبة فى المعركة الثالثة فسقطت غزة ، وكان الذى كان .

أما عن العفاريت والشواليم فان الاولين كانوا يدافعون عنها فى معارك العدوان الثلاثى و ١٩٦٧ . ولكنهم كانوا ـ بعكس الاتراك ـ محرومين من ميزة العمق والامداد من فلسطين كلها ... فقد كان العدو أمامهم والبحر وراءهم . وليس صحيحا أبدا ان وجود المقاتل بين هذين القوسين ميزة . فقد كان البحر من وراء طارق بن زياد ينتهى بعد كيلومترات قليلة بالشاطىء الافريقى ، حيث كان موسى بن نصير يحشد القوات والامدادات ويدفع بها الى جبـل طارق ، فيدعم من جيش طارق ابن زياد ويؤمن ظهره . أما البحر الذى كان وراء عفاريتنا فكان يزخر بالاساطيل المحالفة لاسرائيل . وبذلك كان العفاريت ـ فى كل من المركتين ـ اضيع من الايتام فى مأدبة اللئام ، ولم يكن لهم من حليف سوى تبة على المنطار وتبة على يسارها هى « تبة المزينى » وتبة ثالثة ـ تقع فى شمال غزة ـ هى تبة الهرم » .

وفى كل من المركتين هجم الشواليم على غزة من اتجاه بير سبع (كما فعل اللنبى) . ومن سماء مفتوحة تماما هجمت معهم طائرات الاستعمار . ومن البحـر فتحت مدافع البوارج أفواههـا وراحت تقذف بالحمم . وكان كل ما يملكه العفاريت فى مواجهـة القذائف الاستعمارية والحشود الشواليمية هو البنادق وعدد قليل من المدافع الخفيفة وعدد اقل من المدافع المضادة للطائرات ، وكان الله يحب المحسنين .

ومع ذلك فقد استطاع العفاريت ان يكبدوا بنى اسرائيل من الخسائر قدرا تشهد خصوبة الأرض هناك بضخامته . فلقد روى

العفاريت أرض المعارك بالسماد العضوى المعتبر ـ المستمد من دماء الشواليم ـ ، وان كان عدد هؤلاء الشواليم سوف يظل مجهولا بحكم نظرية الامن الاسرائيلى ، التى تنبنى أساسا على اخفاء أعداد القتلى فى المعارك ، وعلى ادراج اسمائهم فى قوائم ضحايا حوادث السيارات ... تماما كما فعل أجداد لهم من قبل ، حين جاءوا اباهم عشاءا يبكون ومعهم قميص يوسف وعليه دم كذب .. ثم اتهموا ذئبا بريئا بأكله ، والله المستعان على ما يصفون . وبعد ـ وتمشيا مع سياسة هذا الكتاب ـ فاننا سوف ننتقل من تلك المقدمة التاريخية الى طرائف جرت وقائعها بين التباب الثلاث ، وكان بطلها هو عفريت يوزباشي . وكان زمنها هو ربيع عام ١٩٥٢

وفى كلمات قليلة نصف المناخ الزمنى للاحداث فنقول ان الوقت كان هو وقت الهدنة ، وان احدا من الطرفين على جانبى خط الهدنة لم يكن يفكر فى اثارة الحرب . فقد كانت مصر مشغولة بالاحتلال والاقطاع والفساد السياسى ، وكانت اسرائيل مشغولة بلعق جراحها من معارك ١٩٤٨ ، وبهضم واستيعاب ما كانت قد منحتها اياه الاعيب الاستعمار من أرض فلسطين بغير أى انتصار يذكر فى ميدان القتال . وكان جهاز مراقبى الهدنة يعيش فى خلال تلك الفترة مستمتعا بالبلطة على بلاجى غزة وتل أبيب .

وجاء الدور على وحدة العفريت ـ بطل هذه الذكرى ـ لكى تنتقل من العريش الى غزة . وهناك وجد نفسه على تبة على المنطار . ولما كانت التبة تقع فى حى السجاعية ، حيث تقع منطقة مقابر غزة فانه لم يكن يمر يوم على العفريت وجنوده بغير ان تمر بهم جنازة حزينة . وكانت النتيجة هى انه دخل هو والجنود فى حالة سيئة من الكآبة والوجوم . وكانوا قلما يحصلون على استراحة ولو قصيرة من الصوات والنحيب . وشيئا فشيئا صار كل منهم يحفظ طقوس الدفن وعبارات التلقين كما لو كان من فقهاء المدافن المحترفين .

وكم راح العفريت والجنود يتمنون أن تنشب الحــرب حتى يتمكنوا من الهجوم على مستعمرة بيرون اسحق القريبة ، واستبدال احزانهم المنطارية ببعض الحركة والهواء الخالى من رطوبة الدموع .

وكم كان الجنود يطلبون من الله « ولا يكتر على الله » أن تصدر بلدية غزة قرارا بمنع الدفن فى المنطقة ، أو أن يقع زلزال ترتفع به تبة اخرى شاهقة فى مكان آخر ، بحيث تحل محل تبة على المنطار فى الدفاع عن غزة .

وفجأة وقعت كرامة من كرامات صاحب التبة فنشبت معركة شاذة ، كانت نتيجتها المباشرة هى نقل العفريت وجنوده الى تبة المزينى .

فذات ليلة تلقى امرا بأن يترصد على خط الهدنة لقافلة من قوافل التهريب (التى كانت تعمل بين مدينة الخليل وغزة ، والتى كانت تنقل على الحمير الى غزة كل ما لذ وطاب من الجبن ــ بفتح الجيم والباء ــ ، وهو اللبن المجمد على صورة قوالب ؛ ومن السجائر ومن الخناجر والولاعات) .

ولما كانت القافلة تتحرك من الخليل بعد العشاء وتقطع الدروب بين الجبال فى خمس ساعات . فانها وقعت فى تمام الساعة الواحدة صباحا فى يد كمائن العفريت . وكان قائد القافلة بدويا مدججا بتشكيلة كانت تمثل التطور الذى مرت به الأسلحة ابتداءا من جروب تحتمس الثالث وانتهاءا بمعركة سقوط برلين . فقد كان يحمل فى حزامه سيفا وخنجرا وطبنجة ويحمل على كتفه بندقية « لى انفيلد » ويمسك بيده اليمنى رشاشا قصيرا « برتا » ويتوكأ على عصا متينة (١) .

---

(١) كانت تلك العصا ذات مارب اخرى .. فقد كانت تحمل فى جوفها سلاحا حادا (شيش) . وقد حصل عليها العفريت فى مقابل سونكي قديم .

ومع أن الرجل فجع فى قافلته وخسر ليلتها كل رأسماله التهريبى فانه ـ والشهادة لله ـ لم يستخدم اسلحته واستسلم بكل هدوء للعفريت وجنوده . ولقد حفظ العفريت له هذا الجميل فشهد لصالحه فى محكمة غزة واكد للقاضى أن الرجل كان قادرا على المقاومة (بحكم تسليحه المهول) ولكنه لم يفعل . وكانت النتيجة هى صدور حكم خفيف بالحبس عليه مع انعقاد صداقة دامت طويلا بينه وبين العفريت .

ولما كان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا فان القيادة بادرت بنقل العفريت الى تبة المزينى، التى كانت منطقتها هى المنطقة الرئيسية لحركة قوافل التهريب . وكانت القيادة تستجيب بذلك الى طلب بوليس غزة الذى كانت قد ارهقته عمليات التهريب .

وفى تبة المزينى (أهل غزة يحذفون الالف وينطقونها « لمزين ») كانت تنتظر العفريت مفاجأة سعيدة ، على شكل فيلا صغيرة عتيقة وحوض سباحة . ولم يكن الحوض مخصصا للسباحة فقط وانما هو كان يعمل كخزان للمياه (التى كانت تجيئه من طلمبة تعمل على بئر فى سفح التبة ، ومن هنا جاء اسم البيارة علما على حدائق الفواكه فى فلسطين) .

وبذلك كان العفريت يقضى وقته ما بين ادارة المواقع والمرور عليها وما بين البلبطة فى حوض السباحة . وهناك راحت جموع العفاريت تتدفق عليه وتستمتع بالبلبطة فى حوض السباحة من ناحية ثم بتناول الفداء بالقوة الجبرية ، الأمر الذى اضطر معه الى فرض رسم دخول مقداره رطل شامى من الفاكهة (والرطل الشامى يساوى ستة ارطال مصرية) ومعه ما تيسر من البروتين الفراخى أو السمكى . ولقد حدث أن حاول عفريت صاغ ان يدخل « سبهللة » فرفع العفريت الطبنجة فى وجهه ـ وكانت فارغة تماما ـ واجبره على أن يبعث بمراسلته لاستحضار عدد واحد فرخة على

الاقل . وكانت نكبة هائلة على العفريت الصاغ حين حضر مراسلته بعد قليل ومعه فرخة حبشية (١) كان ثمنها هو ليرتين (جنيهين) بالتمام والكمال .

ولم يضبط العفريت هناك اى قافلة .. فقد راى المهربون ان يتفادوا عفرتته فرحلوا عن منطقته بالكلية واتخذوا سبيلهم فى الارض من جنوب غزة الى البريج . وضاق العفريت ذرعا بالهدنة وبالهدوء وراح يشاكل فى بنى اسرائيل . وكثيرا ما كان يترصد لهم على خط الهدنة ويرعب داورياتهم بالظهور فجأة امامهم . وفى الليل كانت كمائنه تفتح النيران على كل من يهوب على خط الهدنة ... انسانا كان أم ظلالا .

وكان العفريت كلما مل من السباحة يروح يبتكر وسائلا جديدة لقتل الفراغ . وكاد ذات يوم أن يشعل الحرب على غير اوان ...

وتفصيل ذلك انه راح يتردد على محلات غزة وينتقى الهدايا لزوجته ولطفله. ونظرا لوفرة الفراغ لديه من ناحية ، مع ثبات الخط البيانى للماهية من ناحية أخرى فانه كان يقضى فى المحل الواحد ساعات عديدة ثم لا يخرج بأكثر من طقم واحد من النايلون للزوجة او بلعبة للطفل ، حتى ضج منه تجار غزة (وهم من أصبر خلق الله) ، وحتى « شكه » واحد منهم مقلبا رائعا حين اغراه بشراء بشكير وعدة فوط ودستة من الفانلات الدربى ، زاعما انها من مفتخر الصناعة الأوربية . وفجع العفريت حين تبين بعدها بأشهر انها كانت كلها من مصنوعات غمرة !!. ولسوء حظ التاجر فانه كان

---

(١) يعنى رومى (بلغة أهل غزة) . ومن الغريب ان كل الامم تتبرأ من نسبة هذا الطير اللذيذ اليها . فنحن فى مصر نقول عنه « الرومى » وفى انجلترا يسمونه « التركى » وفى تركيا يسمونه « البلقانى » وفى فرنسا ينسبونه الى مقاطعة « دندى » الاسكتلندية وفى فلسطين ينسبونه الى الحبشة ولعلهم فى الحبشة ينسبونه الى واق الواق ..

وما يزال من أصدقاء العفريت وانه افتتح محلا فى القاهرة . فاذا اضفنا الصـــداقة الى المقلب لدربى ، فاننا نستطيع ان ندرك أسباب حصول العفريت على تخفيضات كبيرة على مشترواته من محل القاهرة (من يومها الى الآن) .

وذات يوم وقعت فى يده لعبة طار بها فرحا ثم اطارها فرحا ايضا .. وذلك انها كانت طائرة شبه شراعية يكاد طولها أن يبلغ المتر . وكان يكفى أن يقذف بهاالى السماء حتى تركب متن الرياح وتتراقص مثل بافلوفا وهى تؤدى دور البجعة فى الباليه المشهور . وشاء الحظ أن يركب تيار هوائى صاعد ذات صباح على تبة المزينى فى نفس اللحظة التى كان العفريت فيها يقذف بالطائرة . وللتو صعد التيار بها الى ارتفاع مائة متر .. وهناك بدت كما لو كانت طائرةاستكشاف اسرائيلية اصيلة . وكان العفريت قائد المدفعية المضادة للطائرات من النوع الذى يؤدى واجبه القتالى بصفة تلقائية بحتة . وذلك يعنى أنه لم يكن يضيع وقته فى التبليغات والاستئذانات التقليدية وكان شعاره « اديله فى وشه ولا تغشه » . وطبيعى ان جنوده كانوا على نفس مذهبه . ولذا فانهم ماكادوا يلمحون طائرة الاستكشـــاف الاسرائيلية هذه .. حتى وجهوا نحوها مدافع البوفرز و « طاخ طراخ طيخ طوخ » . وبديهى أن حجم الطائرة الضئيل جعلها تبدو على أكثر من ارتفاعها الحقيقى ، ولذا فان الموجة الاولى من القذائف قد انفجرت فوقهابمسافة كبيرة . أما هى فقد ظلت تتراقص كأرشق بالرينا . وقبل أن يضبط الجنود مدافعهم على الارتفاع الصحيح راى التيار الصاعد أن يغير مكانه فتحول الى الشرق واجتاز خط الهدنة ودخل بالطائرة فوق أقرب مستعمرة يهودية ، وهناك دارت معركة عفاريتية بينها وبين بنى اسرائيل . فقد راحوا يطلقون عليها عشرات الآلاف من طلقات البنادق والرشاشات بغير ان يصيبوها بخدش واحد .

وفي خلال ذلك كانت التبليغات قد راحت تسري في التليفونات وفي اللاسلكي على الجانبين . ويعلم الله وحده ماذا كان سيحدث لو كان التيار الصاعد قد استمر في مغازلاته على جانبي خط الهدنة ؟ » . فقد كان مطار العريش قد تلقى عدداً من الطائرات الحديثة ومعها عدد مماثل من أعتى عفاريت الطيران وكانوا كلهم من دفعات شهداء ١٩٤٨ وكانوا يتلهفون على الثأر . ولو كان واحد منهم قد تحرك بنفس تلقائية قائد المدفعية المضادة لنشبت يومها حرب لاريب فيها .

المهم هو ان التيار الصاعد كان فيما يبدو مرتبطا بموعد مهم في جزيرة قبرص ، ولذا فانه ترك المستعمرة وعاد الى قطاع غزة ثم توجه الى قبرص(١) بعد أن ترك الطائرة قرب بيارة « الأفرنجي » ومن هناك التقطها جنود العفريت واعادوها اليه وهي بغاية الصحة والسلامة . وعندما تلقى العفريت اشارة القيادة بالاستفسار عن الطائرة التي سقطت في قطاعه رأى أن السكوت من ذهب ... وما تزال تلك الاشارة بغير رد حتى الآن .

ولما كان دوام الحال من المحال فان الدور جاء على العفريت الصاغ (قائد تبة على المنطار) لكي يأخذ هدنة من المناحات والجنازات ولما كانت دورة العفاريت على المواقع تسير في عكس اتجاه عقارب الساعة فان العفريت الصاغ انتقل الى تبة المزيني بينما تحرك عفريتنا اليوزباشي الى « تبة الهرم » . ولعلها كانت أكثر من صدفة ان اللوري الذي نقل مهمات العفريت وجنوده الى تلك التبة الاخيرة كان يحمل على مؤخرته عبارة « يا ناس يا شر كفاية قر » .. فقد كان العفريت السائق قبل تجنيده يعمل في شركة لنقل الاثاث ، وكان يحصل من بند البقشيش وحده (خصوصا عند نقل اثاث العرائس) على أكثر

(١) يقرر علماء الاستراتيجية وعلماء الارصاد الجوية معا ان هذه الجزيرة ترتبط ارتباطا وثيقا بكل الظواهر العسكرية والمناخية في شرق البحر الابيض وذلك يفسر الصراع المستمر عليها بين مختلف القوى العالمية والمحلية .

من سنين محبوب كل شهر . وقد يكون جهل العفريت بأشجار الصنوبر .. وقد يكون « القر » هو السبب فيما جرى بعد ذلك من وقائع تشيب لهولها الولدان ويتعجب لها الملك شهرمان ..

فقد احتل العفريت وجنوده تبة الهرم . وكالمعتاد ، قام باستكشاف المكان ورسم أقواس النيران ، ثم استقر فى خندق القيادة وهو يشعر بارتياح نسبى ، لأن التبة كانت مكسوة بخضرة رائعة وباشجار باسقة ، وكانت تحتكم على أنواع كثيرة من الشجيرات والازهار البرية . وكان من بين تلك الأنواع شجيرات لوز وكرمة عنب برى ، وشجيرات تعرف عليها أحد الامباشية وقال عنها انها شجيرات خروب . أما الاشجار الباسقة (وكانت أشجار صنوبر) فان أحدا لم يتعرف عليها ، كما ان احدا لم يهتم بالاستفسار عنها . وكانت تلك غلطة ، كاد العفريت ان يدفع نجمة أو اكثر (من نجومه الثلاثة) ثمنا لها .

فقد كان عفريتنا اجتماعيا وكان يستمتع بتبادل الزيارة مع زملائه ، وكان ذلك فى سالف التبة المزينية . أما فى تبة الهرم فانه عاش وحيدا فريدا بغير زائر يؤنس وحدته ويكف من غربته ، وبغير ان يستطيع هو أن يقوم بزيارة يفرج بها عن نفسه . فقد كان الطريق الى تبة الهرم غرودا فى غرود . ورمال الغرود تقرب فى نعومتها من نعومة البودرة . ولذا فان العفاريت وضعوا تبة الهرم فى القائمة السوداء ، ولم يعد أحد منهم يقربها الا فى حالات السلف القصوى . وفى مثل تلك الزيارة كان العفريت الزائر يترك عربته وقد غرزت فى الرمال حتى نصفها ويقطع المشوار ذهابا وعودة وهو يغوص فى كل خطوة حتى ركبتيه . وبانقطاع الزيارات عاش العفريت وجنوده كما يعيش السندباد فى الجزيرة التى تقع فى بحر الظلمات . وجاء وقت بلغت فيه ارواحهم التراقى فصارت أعصابهم كالأوتار المشدودة ولم يكن ينقصهم غير سبب (اى سبب) لكى ينفجروا . ويبدو ان اشجار الصنوبر كانت قد ضاقت بدورها ذرعا بتلك العزلة اللومانية

فسبقت العفريت وجنوده وانفجرت ذات ليلة . فقد كانت ثمارها قد نضجت ، وثمار الصنوبر تشبه ثمار الأناناس من حيث الشكل ، اما من حيث الموضوع فان ثمار الصنوبر تختار وقتها المعين لكى تنفجر فجأة وتطلق مخزونها من حبوب الصنوبر اللذيذة . وعندما يحدث الانفجار تنطلق حبوب الصنوبر فى تتابع شديد الشبه بتتابع دفعات الرصاص من فوهات الرشاشات ، مع خفوت طبيعى فى صوت هذه عن تلك .

ولذلك فان العفريت حين استيقظ على قرقعة الصنوبر فى الظلام الدامس لم يتوان عن ترجمتها بأنه قرقعة رشاشات اسرائيلية بعيدة . وكان قد أطلق فى تلك الليلة عددا من داوريات الوقاية والاستكشاف . وللحال أمر باطلاق دفعات متتالية من رشاشاته التى كانت محكمة على خطوط ثابتة ، وذلك بهدف حماية الداوريات وتغطية تحركاتها وتأمين عودتها .

وعلى ضجيج الرشاشات عادت أشجار الصنوبر الى الانفجار ، فلم ير العفريت وجنوده فى أصواتها الا اصرارا من بنى اسرائيل على قتل داورياته فأمر بمضاعفة الضرب . وراحت صناديق الذخيرة تنفتح وراحت الأمشاط تنتقل منها الى البنادق والرشاشات وراحت البنادق والرشاشات تضرب وتقول « هل من مزيد » . أما عفاريت الدواريات فقد نظروا الى الأمر من زاويته العكسية فحسبوا أن عفريتهم العزيز يتعرض لهجوم اسرائيلى ، فراحوا يعودون الى الموقع بطريقة الوثبات ويطلقون النيران لتشتيت العدو وكسر حدة هجومه .

هذا عن العفاريت . أما عن بنى اسرائيل فانهم كانوا فى تلك المرحلة الزمنية يتفادون الاشتباك مع القوات المصرية ويقصرون عملياتهم على اعتداءات خسيسة على الأهالى العزل . ولذا فانهم لم يقابلوا نيران العفريت وجنوده ولا بطلقة واحدة ، وانما راحوا

يستدعون مراقبى الهدنة ويشهدونهم على ذلك العدوان المبين . وبديهى ان شهادة المراقبين قد جاءت لصالح بنى اسرائيل ، فقد راوا وسمعوا نيران العفاريت وهى تنطلق بكثافة سواء من تبة الهرم أو من الدواريات المنتشرة فى الارض . وزاد من حدة شـهادة المراقبين ان البعض منهم تقدم نحو خط الهدنة على سبيل التحديد الدقيق للموقف فلمحته احدى الداوريات (وكان قائدها نشـانجيا من الدرجة الاولى) فصبت عليه نيرانا بلغ من احكامها انها أصابت أول ما أصابت قبعته الثمينة . ولولا أنه بادر بالغطس فى خور قريب لكان قد استمتع ـ على حد تعليق الميجور بالاس (كبير مراقبى الهدنة فى غزة) ، فى اليوم التالى ـ بجنازة عظيمة يتقدمها مارش بيتهوفن . . .

وبعودة الداوريات الى التبة توقفت النيران وعادت الامشاط الفارغة الى صناديق الذخيرة . وتحت بطانية محكمة راح العفريت يكتب تقريرا عن المعركة ، ويطالب « استعواض الذخيرة » ويطالب بعدد ضخم من مدافع الهاون ، حتى يستطيع أن يربى بنى اسرائيل تربية نموذجية فى المرات القادمة .

أما على الجانب الآخر فقد كان بنو اسرائيل يجأرون بالشكوى ويقدمون الى المراقبين ما تيسر من الروم والبراندى ، وذلك على سبيل تسخينهم ، حتى تكون تقاريرهم فى غاية الالتهاب .

وكانت المفاجأة التى هبطت على العفريت ـ فى الصباح التالى ـ مزدوجة . فلقد فوجىء أولا بالتبة وهى مغطاة بحبوب الصنوبر الناصعة البياض فحسبها أول الامر ثلجا ، واخذ يتعجب من نزول الثلج على التبة وحدها وبغير أن يمس الارض من حولها . ثم تناول هو والجنـود ذلك الثلج فوجـدوه صـنوبرا بلا ريب . . واخـذوا يتساءلون من أين جاء وكيف جاء . وجرى بعضهم الى « مخلته » وراح يتأكد من وجود كيس الصنوبر الذى كان قد اشتراه من غزة ـ على سبيل الهدية لأسرته ـ فوجده سليما بغير سوء .

وشاءت شجرة صنوبر رقيقة القلب أن تخرجهم من حيرتهم فأطلقت من ثمارها عدداً من دفعات الصنوبر . ونزل الصنوبر على العفريت والجنود نزول الصواعق .. ليس من حيث ما أصابهم به من اصابات رقيقة ، وانما من حيث انه كشف لهم عن حقيقة القرقعات التى أشعلت معركة الأمس .

ووقف شعر راس العفريت وهو يحسب مقدار ما استهلكه من طلقات فى تلك المعركة الصنوبرية ، وراح يودع آماله فى الترقية التى كان ينتظـرها ، لأن دوره فى الترقى كان وشيكا (كمـا انه كان قد اجتاز كل امتحانات الترقى بتفوق) .

ومن جانب آخر فان قائد وحدة العفريت كان أستاذا فى فن الخصم (بفتح الخاء) وكان جناية « افقاده ــ أو اتلافه ــ اهمالا عدد كذا » هى الجناية المفضلة لديه ، وكان يبادر فيها بالكليشيه المألوف «يخصم عليه ثمنها حسب تقدير سلاح الأسلحة والمهمات». وعن ذلك السلاح بالذات نقول انه كان ــ من حيث تسـعيرته ــ لا يعرف عربي ... بمعنى انه كان يحدد السعر ويضيف عليه كل التكاليف اللازمة وكذلك الرسـوم والدمغات ، وكانت خطـاباته بالمطالبة بتوريد مبالغ « الخصومات » هى الفزع الأكبر للوحدات .

وقبل أن يحـدد العفريت موقفه من الخصومات كان ضابط الاتصال المصرى للهـدنة يقف على رأسه ومعه نصف دسـتة من المراقبين وعلى راسهم الميجور بالاس .

وبدأت السين والجيم معه بجد شديد ، لأن تقارير المراقبين على الجانب الاسرائيلى كانت « ملهلبة » . ومع أن ضابط الاتصال كان وطنيا متطرفا كما انه كان أستاذا للعفريت فى الكلية الحربية ، فانه لم يكن لديه ما يخفف به من تأثير تلك التقارير الدامغة سوى بعض التعليقات المرحة . ولكن المراقبين كانوا قد اخذوا الأمر مأخذ

الجد ، وبدا من استفساراتهم الدقيقة أنهم سوف يقلبون ذلك الأمر بغم شديد .

ولم يجد العفريت سوى الصدق مخرجا ، فانتحى بضابط الاتصال ناحية وروى له الحقيقة كاملة . وبدلا من أن يوسعه بالأخير لوما وتعنيفا اذ به ينفجر فى نوبة ضحك جنونية . وراحت التبة بأشجارها وكرومها وشجيراتها ترتج من فرط قهقهاته . وجرى اليه الميجور بالاس وضباطه وهم يتساءلون عن النبأ العظيم ... فوجدوه وهو يمسك بطنه بيديه ويضحك ويقهقه ويميل براسه ويدق الأرض برجليه . وكان يجيب على تساؤلاتهم باشارات مسخسخة نحو حبوب الصنوبر المتناثرة . وتلقائيا راح بالاس وضباطه يتبادلون الابتسامات ويتلهفون لمعرفة الصلة بين الصنوبر والضحك .. ، وبعد لأى استطاع العفريت ضابط الاتصال أن يتماسك قليلا وان يقص عليهم الكوميديا الصنوبرية ، بينما كانت ضحكاته ترن وتدوى بين الجملة والأخرى.

وكما لو أن شارلى شابلن قد ضغط على زرار الضحك فى صدر روبوت (انسان ميكانيكى) اذ ببالاس وضباطه ينفجرون فى قهقهات بلغ من عنفها انها جرفت معها العفريت والجنود فراح الكل يضحكون ويقهقهون ويخبطون بأيديهم على ظهور بعضهم . وعجز مراقب فرنسى عن حفظ توازنه فوقع على الأرض وهو يقهقه ويقهقه ويصيح فى نفس الوقت مهددا بمطالبة الحكومة المصرية بتعويض كبير ان هو مات من الضحك .

وحين سكن جاش الجميع تقدم بالاس وصافح العفريت ودعاه الى حفلة يصلح فيها بينه وبين المراقب المثقوب القبعة ... مؤكدا انه ما كان ليفعل غير ما فعله العفريت فى مثل تلك الظروف الصنوبرية . ومن عجب أن بالاس كان يعرف بعض العبارات العربية القليلة ، فاتحف العفريت بواحدة كانت مناسبة للمقام تماما وهى

« اللى يرشك بالميه رشه بالدم » . فلحقه ضابط الاتصال مصححا « بالصنوبر وانت الصادق » .

وطوى بالاس وضباطه أوراقهم وصافحوا العفريت فى مودة صادقه . وعلى أقل من مائة متر انغرزت عرباتهم فى الرمل فراحوا يستغيثون بالعفريت . وبادر هذا بجنوده ، ورفعوا العربات ودفعوا بها الى طريق غزة . فكانت تلك حسنة ضاعف بها بالاس من حجم حفلة الصلح .

ولقد انتقم العفريت بعد ذلك من الصنوبر انتقاما بالغا ، فأمر بالقبض على ثماره الفاذفة القاتلة وبتعريتهـا من الحبوب قهرا بواسطة السناكى ، ثم استدعى أخصائيا من أهالى « جباليا » . وقام ذلك الاحصائى بخلط الصنوبر بالأرز والسمن واللحم والبهارات الشديدة الالتهاب ، ثم وضع المخلوط فى قدرة فخارية ، ثم سد فوهة القدرة بالطين ثم أوقد النار من تحتها ومن فوقها . وكانت النتيجة هى نضوج المخلوط الصنوبرى مع التحام السدادة الطينية بالقدرة وتحولها بدورها الى فخار . ثم تناول الاخصائى عصا من عيار معين ثم وجه بها ضربة فنية الى القدرة فانفلقت الى نصفين متساويين (١) وظهر المخلوط البديع ، وراحت رائحته الشهية تغمر التبة فهجم العفريت والجنود عليه ، واكلوه جزاءا وفاقا .

أما الطريقة التى تخلص العفريت بها من خصم الدخيرة المستهلكة ، فانها قد بلغت من العفرتة ومن التعقيد حدا يحتاج شرحه الى مجلدات . ولا باس من ان ندع للقارىء أن يحاول حلها ولو بصفتها من الغاز الكلمات المتقاطعة .

---

(١) هذه الوصفة الفخارية فى غاية الطعامة . وما على القارىء الا ان يجربها ... وسوف تكون ليلته زى بعضها .

انا فى انتظارك

ومن باقة الذكريات نقدم وردة شجية ، يجمع شـذاها بين المقاتلين وبين سيدة معينة نشأت فى طماى الزهايرة ، وعاشت وهى تشدو بمصر وتترنم بأمجادها وتعبر عن شعبها الطيب ، الرقيق فى حبه ، الشجاع فى حربه .

ففى العريش كانت تقيم وحـدات الجيش منذ عام ١٩٤٩ ، وتوزع وقتها بين نشاطين لا ثالث لهما .. الأول هو التدريب والتمركز فى المواقع الدفاعيــة ، والثـانى هو الترفيه عن النفس بالرياضة والاستماع الى الراديو . وقد خرج أحد قادة المدرعات العزاب عن ذلك الروتين ذات شهر ، فراح يرهق وحدته بالتدريب ليل نهار ، حتى راح جنوده يدعون عليه « بالجواز » . ثم راحوا بعد أشهر يدعون له « الله يعمر بيتك ويخلى لك أولادك » . وكان ذلك لأن القائد العفريت لم يتردد (حين لاحظ ان دباباته قد قلبت كيان مســاحة كبيرة من الأرض) فى بذر الأرض بالشعير . وجاءت الأمطار وروت الأرض . وفى موسم الحصاد شكل العفريت لجنة من الجنود والضباط . وباعت اللجنة محصول أكثر من ٢٠٠ فدان ، ثم وزعت الثمن بأكمله على الجنود . وحين عرضت اللجنــة على العفريت ثمن البذور اجاب « مش عاوز الفلوس ، بس ما تدعوش

على بالجواز » . ولكن ذلك الرجاء كان قد جاء بعد فوات الأوان . فقد كانت تلك الدعوة قد أصابت الهدف . وعاد العفريت من اجازة الميدان التالية وهو يزهو بدبلة من خالص الذهب .

وكانت حفلة أم كلثوم الشهرية هى القاسم المشترك الأعظم بين جميع قوات الميدان ، وكان الاستعداد لتلك الحفلة يبدأ قبل موعدها بأسبوع على الأقل حيث كان يجرى فى كل وحدة اعداد خيمة كبيرة أو خندق متسع ، ثم يجرى فرش المكان بما تيسر من امكانيات الترف الميدان .. مثل كليم مسروق من خيمة القائد ، او فراوى مستعارة من اقرب مضرب للبدو . واحيانا كانت تجرى اتفاقات سرية يتم بمقتضاها ترتيب مأمورية فاخرة لشاويش نادى الضباط ، وفى مقابلها كان ذلك الشاويش الشهم يتبرع ببضع وسائد فاخرة من متعلقات النادى .. وكم من مرة وقع فيها ذلك الشاويش صريعا فى يد سكرتير النادى ، عندما كان الأخير يكتشف بين ثنايا الوسائد كميات من الرمال التى لا توجد الا فى بير لحفن او جبل المقدر ..

وقبل موعد الحفلة بيومين كانت الداوريات تنطلق الى اعماق سيناء لكى تضرب عصفورين بحجر واحد .. العصفور الأول كان هو التدريب على الملاحة الصحراوية أما العصفور الثانى فكان هو لحم الغزلان .. على أن تأثير الأغانى ، لحسن حظ الغزلان ، لم يكن مركزا عليها وحدها ، وانما هو كان يسير فى دورة موسمية بينها وبين السمان وبين الاستاكوزا — التى ينسب اليها البعض مزايا رهيبة تجعل منها خطرا حقيقيا على مشروعات تنظيم الأسرة — ..

وعلى همسات وآهات أم كلثوم كانت تمضى ليلة الحفلة . وكانت الصورة فى خيام الميسات واحدة . ويمكن تلخيصها فى كلمة النشوة بكل معانيها الغنائية والغذائية . ويذكر الكاتب أن ضابطا — استطاع فى معارك ١٩٤٨ أن يحيل عددا كبيرا من ضباط وجنود بنى صهيون الى صور ملفوفة بالسواد ومعلقة على الجدران — كان يتحول فى تلك

الليلة الى حمل وديع ويظل طول الحفلة وهو يحتضن الراديو فى حنين جارف .

ولقد ظل الامر كذلك الى ان حدث ذات حفلة أن اعلن ضابط عفريت أن الست سوف تغنى « رق الحبيب » . وادهش ذلك النبأ زملاءه ، لأن أم كلثوم ـ كما يعرف الجميع ـ كانت تحتفظ لنفسها بحق اختيار اغانى كل حفلة ، كما انها كانت تفاجىء الجمهور بالأغنيات ولا تعلن عنها مسبقا . ولذا فقد راح الزملاء يتشككون فى صحة ذلك النبأ . وبكل بساطة تحداهم العفريت والقى على المائدة ببضعة جنيهات ـ أكد فيما بعد انه كان اقترضها بصعوبة ـ وعرض عليهم أن يراهنوه .. وقبل بعضهم التحدى وأودع الجميع مبالغ الرهان فى يد زميل مؤتمن . ومرت الوصلة الأولى بأغنية هتف لها الضباط واصفر لها وجه العفريت .. فقد كانت « سلوا قلبى » . وجاءت الوصلة الثانية بالرباعيات فصار لون العفريت اقرب ما يكون الى لون الليمون البنزهير .. وما كادت المقدمة الموسيقية للوصلة الثالثة تبدأ حتى قفز قفزة هائلة ثم راح يرقص فى طرب مزدوج .. من صوت « الست » ومن منظر الجنيهات وهى تخرج من جيب الزميل المؤتمن وتتجه الى جيبه فى رقة ودلال ..

وفى الحفلة التالية كرر العفريت الرهان على أغنية الآهات ، ولكنه كسب الرهان فى تلك المرة من الوصلة الأولى ، وتناول الجنيهات وراح يعدها وهو يدعو لأم كلثوم بطول العمر (١) .

ولم يعد الضباط من بعدها يجرؤون على مراهنة العفريت . ومع ذلك فانه خرج من الحفلة الثالثة بمبلغ لا يقل عن مجموع ربحه فى الحفلتين السابقتين . وكان سبيله الى ذلك هو الاعلان عن

---

(١) يبكى الكاتب فى ام كلثوم الخلق الطيب والفن الرفيع .

استعداده لعمل وصفة سحرية معينة (تتطلب الكثير من التكاليف)، وهي وصفة زعم انه من شأنها أن تدفع بأم كلثوم الى التغنى بأى اغنية يطلبها هو . وبسبب سوابقه الكلثومية الناجحة فقد ائتمنه عدد كبير من الضـــباط على اغنية « أهل الهـوى » فى نظير مبلغ محترم .. وكان بها .

ومن يومها راح ذلك العفريت يعلن عن نفسـه بصفته متعهـــد اغنيات « الست » . ولولا الصدفة وحدها لتمكن من السيطرة على امزجة قوات الميدان كلها . فقد اضطر فى اليوم الســابق للحفلة الرابعة الى التوجه فجأة فى مأمورية عاجلة الى الكونتلة . وكان قد جمع مبلغا محترما لحساب « الأوله فى الغرام » ، ولذا فانه لم يجد بدا من أن يوكل عملية تنفيذ الوصفة لأول من قابله من الزملاء . ولسوء بخته فان ذلك الزميل كان مفلوت اللسـان فأذاع السر بكل بساطة .

وكان السر هو أن العفريت كان ينتحل لنفسه صفة « ضـــباط الميدان » ويبعث الى أم كلثوم قبل كل حفلة ببرقية تقول ـ مثلا ـ « ضباط الميدان يطلبون (رق الحبيب) » . وكانت كوكب الشرق ترق طبعا فتغنى ما يطلبه ضباط الميدان .

ومن يومها راح كل ضابط ينسب لنفســـه صفة « ضـــباط الميدان » ويبعث ببرقية يطلب فيها اغنيته المفضلة . وكانت النتيجة هى سيل هائل من البرقيات ، كان يتدفق على أم كلثوم ويطالبهـا بأن تغنى معظم اغانيها فى الحفلة الواحدة . ويبدو للكاتب أن البرقية التى كانت تكسب ذلك الســـباق العجيب كانت هى التى كان يدعى مرسلها لنفسه اكبر قدر من التمثيل للقوات المسلحة ، ولعلها كانت هى ـ بالذات ـ البرقية التى كانت تطلب اغنية « انا فى انتظارك » ، والتى كانت تحمـل توقيع « ضـــباط الجيش والبحرية والطيران بالميدان » .. ولعل الكاتب يعرف ـ حق المعرفة ـ مرسل هـــذه البرقية .

ياحضرات المستشارين.. وحربية..

لو كان العمر قد تقـدم بتشارلز دكنز حتى أربعينيات القرن العشرين لفجع فى مخلوقه الروائى « مستر بكويك » ، ولاضطر أن يسحب كل ما أضفاه عليه من صفات ومن مغامرات ... وكل ذلك بسبب عفريت معين ، كان ثالث ثلاثة من أشقاء ، كان أكبرهم عفريتا جافا وكان أصغرهم عفريتـا أكاديميا . أما صاحبنا ، فقـد كان واسطة العقد . وليس يعرف الكاتب ماذا كان سوف يحدث لتاريخ الطرائف العسكرية ، لو كان حمام الموت قد توخى ذلك العفريت كما فعل من قبل بأوسط صبية الشاعر العباسى « ابن الرومى »..

ولو أنه من المؤكد أن ذلك التاريخ كان سيخسر الكثير من أطرف واظرف ذكريات العفاريت .

ونبادر هنا بتسجيل ما تيسر من طرائف ذلك العفريت . ونبدأ هذه الطرائف بظاهرة ، بلغ من هولها ، أن أطباء المستشفى العسكرى اجمعوا على أنها ظاهرة مرضية ، مع أنها كانت خالية تماما من الألم أو الأذى .

وقد انتابت تلك الظاهرة عفريتنا عنـدما كان طالبـا بالكلية الحربية ، وكانت عبارة عن «كرامب» (تشنج عضلى) اختار لنفسه

مكانا معينا من جسده ، ثم استقر فيه لمدة شهر كامل . وهو مكان تؤثر ان ندعه لتخمين القارىء ، واثقين من انه سوف يعجز تماما عن تحديده ، لأنه مكان لا يخطر على بال انس ولا جان . وبعد علاج ، استهلك فيه العفريت نصف مخزون المستشفى من البرومور ، مضى الكرامب الى حال سبيله ، بعد أن اضفى على العفريت لقبا هورمونيا يثير فزع ذوات الحجال .

ثم ننتقل مع العفريت وقد أصبح ضابطا عظيما (١) الى شارع الخليفة المأمون ، ايام كان الترام الابيض يلتزم بآداب المرور ويسير على يمين الشارع جيئة وذهابا . وقد كان ذلك الترام هو وسيلة النقل الوحيدة للجنود من العباسية الى روكسى . ولكن شركة الترام البلجيكية لم تكن تنظر اليه بعين الاعتبار ، لأن ركابه كانوا يتمتعون بامتياز نصف الأجرة . ولذا فان الشركة بخلت على الخط بالمركبات الكافية ، وكان الانتظار على محطاته عذابا فى عذاب .

ومن هنا كان خط الترام الأبيض هو ساحة العفريت المفضلة للقيام بدور « مستر بكويك » او « جابر عثرات الكرام » .. ايهما شئت .

فقد كان يخرج من وحدته كل يوم بلورى محطم ثم يمر على الخط مر الكرام ، فيجمع الجنود المرهقين من انتظار الترام ، ويوصلهم الى روكسى . وفى مقابل تلك النجدة النقلية كان يتلقى دعواتهم بعمار البيت وبقاء الأولاد . وفى حدود علم الكاتب فان العفريت لم يكن له بيت ولا أولاد ، وانما هو كان يشارك اخويه فى بيت الأسرة . وفى ذلك البيت كان النظام العسكرى يدور على اشده . وويل كان للأخ الذى لا يراعى الاقدمية فيمد يده الى الطعام ، أو يدخل الى الحمام ، قبل اخيه الاقدم . وكم من مرة خرج العفريت (أو شقيقه الأصغر) موقوفا وملحوقا بجزاء

---

(١) هو الصاغ (الرائد) فمة فوق .

« الحجز قشلاق » ، وذلك بسبب اهماله فى تأدية التعظيم القانونى لشقيقه الأكبر .

وذات يوم فوجىء العفريت بعربة بوليس حربى وهى تلاحقه لم تسبقه ثم تكسر عليه وتجبره على الوقوف .. وكان ساعتها يقود اللورى ، وكان اللورى مكتظا بركابه الميامين .

وفرمل العفريت اللورى ثم نزل منه وصاح بالجنود الراكبين « انزل » فنزلوا ، ثم صاح بهم « بالخطوة السريعة .. انصراف » ، فانصرف الجنود راكضين . ثم انتحى العفريت بالجندى سائق اللورى جانبا وهمس فى أذنه بأنه سوف يمزقه اربا لو اعترف بأنه ترك قيادة اللورى له . ولم يكن السائق بحاجة الى ذلك التحذير فقد كان يعلم أن الأوامر المستديمة تحرم عليه أن يفعل ذلك .

وعاد العفريت الى اللورى فاتخذ مكانه بجوار السائق وهو يدخن سيجارة كوتاريللى . وجاء ضابط البوليس الحربى وادى التحية للعفريت ثم سأله « جنابك كنت سايق اللورى ليه ؟ .. » وبكل عظمة أجابه العفريت فى استنكار « أنا ؟!! أنا عمرى ما سقت أى لورى » . فقال الضابط « أنا شايفك بنفسى » فأجابه « وأنا ذنبى ايه اذا كنت شيش بيش ؟.. انت يلزمك نظارة طبية . تعالى أوديك المستشفى .. كل الدكاترة هناك أصحابى .. وحاجيب لك اجازة مرضية على كيفك » . فهاج الضابط وقال « سواق عربيتى شاهد انك كنت بتسوق » . فرد عليه العفريت « وأنا سواق عربيتى شاهد انى ما سقتش » ، ثم ألتفت الى سائقه فصاح هذا « وحياة سيدى الحنفى أنا اللى كنت سايق » . واسقط فى يد الضابط ، فحاول الا يخرج من المعمعة صفر اليدين فقال « طيب جنابك كنت مركب عساكر بدون اذن ليه ؟ » . فقهقه العفريت ثم قال « عساكر !! ؟؟ فين هم العساكر ؟؟ . » فالتفت الضابط يمينا ويسارا فوجد الشارع قاعا صفصفا ، فاتجه الى عربته وهو يسب

ويلعن ، فناداه العفريت « يا حضرة الضابط .. احنا بقينـا ملكية واللا ايه ؟ » . فالتفت اليه الضابط فصاح العفريت فى هيـاج مصطنع « ازاى يا افندى تنصرف من غير ما تعظم » . فلم يستطع الضـابط ان يشرب تلك الكأس أيضـا فرفض أن يؤدى التعظيم وانصرف بعربته .. وبات المسكين ليلتها فى الايقاف ..

وننتقل مع العفريت الى مرسى مطروح حيث تولى قيادة قسم الحـدود وهناك راح يجرى بعربته بملء الحرية ، حتى اصـطدم بعامود النور الوحيد فى فوكه . وعز على العفريت أن يتحطم عامود النور فى عهده المجيد .. ذلك العهد الذى كان ينوى أن يجعله صورة طبق الأصل من عهد « الحاكم بأمر الله » .

وبناء عليه فقد قرر أن يوقع العقاب الرادع بمرتكب الحادث ، فعاد الى مكتبه وفتح لنفسه محضر تحقيق .

وفوجئت قيادة الحـدود فى القاهرة بمظروف « سرى جدا ، ومع مخصـوص » .. وخرج من المظروف مجلس تحقيق وكانت صيغته هى :

« اجراءات مجلس التحقيق المنعقـد برئاسة الصـاغ فلان الفلانى وعضوية نفس الصاغ فلان الفلانى وذلك بأمر نفس حضرة الصاغ فلان الفلانى . بجهة مرسى مطروح فى يوم كذا الموافق كذا . وذلك لأجل التحقيق مع نفس حضرة الصاغ فلان الفلانى بخصوص ما نسب اليه من قيادة العربة الفورد بيك أب رقم كذا وكذا ، وذلك بدون أوامر أو تصريحات قانونية ، والتحقيق فيما نسب اليه من الاصطدام بالعربة المذكورة بعامود النور بجهة ... الخ » .

ثم تلت ذلك خمس صفحات من السين والجيم بين العفريت وبين نفسه . وكان ختامها هو قرار المجلس بأن الصاغ فلان الفلانى قد ارتكب جناية « الاهمال فى اطاعة الأوامر العسكرية » وجناية « اتلافه اهمالا بالعدد واحد عامود نور » . ومن تحت القرار كان

توقيع العفريت بصفته رئيس مجلس التحقيق . ومن تحت التوقيع كانت تأشيرته بصفته قائد قسم الحدود « أوافق على قرار المجلس، ويحاكم المذكور بمجلس عسكرى عالى » . ومن تحت التأشيرة وقع العفريت بامضائه الكريم . ثم لم يتمالك نفسه من الاعجاب بتلك العدالة « الحاكمية » فكتب تحتها تعليقا صارخا « العدل أساس الملك » .

ولولا أن رئاسة سلاح الحدود كانت ما صدقت انها تخلصت من وجود العفريت فى القاهرة ، ولولا أن ضباط القيادة هددوا بالاستقالة لو خطر على بال القيادة أن تستحضره من مرسى مطروح لمحاكمته على اتلاف عامود النور أو لأى سبب كان .. لولا ذلك لتوقفت عجلة العفريت عن الدوران ، ولما استمرت طرائفه ولما اشتعل عدد كبير من الحرائق .. وندع الحرائق لتكون مسك الختام ونتابع الطرائف الأخرى .

فقد كانت مرسى مطروح هى مهبط كبار الزوار ، من حيث كونها مصيفا رائعا ، كما أن الصحراء من حولها كانت مرتعا للظباء والغزلان . وفى ذلك الوقت كانت مرسى مطروح وسائر المناطق الصحراوية حكرا على سلاح الحدود ، وكانت مغلقة فى وجه الشعب .

وذات يوم نزل أمير أوربى كبير ضيفا مكرما فى استراحة راس الحكمة . وكان العفريت فى استقباله بطبيعة الحال . وكان الأمير من هواة الصيد المزمنين فطلب من العفريت أن يدبر له رحلة صيد . وقام الأخير بالمهمة خير قيام . وعاد الأمير من الرحلة وفى وطابه عدة قتلى وأسرى من « غزلان الفلا » . وسافر الأمير بالسلامة . وبعد شهر تلقى العفريت نيشانا معتبرا من حكومة سمو الأمير .. شكرا وتقديرا لمواهبه العظيمة وهمته الغزلانية الفائقة . وكان ذلك النيشان فاتحة خير للعفريت ، كما أنه كان بنفس القدر فاتحة سوء لعالم الغزلان . فقد رأى العفريت أن يختصر الطريق الى النيشان

التالى . فاستقبل الزائر التالى وكان (أميرا اسكندينافيا) ودعاه الى رحلة صيد . وقبل الأمير الدعوة بسرور . وللعجب ، فانه وجد فى الصحراء عددا طيبا من الغزلان . وكان كل غزال منها واقفا فى مكانه وكأنه كان على موعد مع رصاصة الأمير . . وكان جنود العفريت يسرعون باحضار الغزال الصريع وهم يطلقون صيحات الاعجاب بدقة تصويب الأمير (الذى كان يرتدى نظارة طبية لا يقل سمك عدساتها عن سنتيمترين . .) . وعاد الأمير الى بلاده مزهوا بعد أن منح العفريت نوطا لا بأس به . والواقع هو أن الأمير كان بريئا تماما من دم تلك الغزلان !! اذ كان العفريت قد أطلق رجاله منذ الفجر فى الصحراء فاصطادوا تلك الغزلان ثم أوقفوا كلا منها بين الحشائش وأسندوه ببعض العصى الرفيعة (١) .

ولو طالت اقامة العفريت فى مرسى مطروح لقضى على غزلان الصحراء الغربية قضاءا مبرما فى مقابل نوط لا بأس به أو نياشين معدودات .

المهم هو أن رحمة الله أدركت الغزلان والنياشين معا ، فتلقى العفريت أمرا بالنقل الى الاسكندرية .

وكادت بداية خدمته فى الاسكندرية أن تكون هى نهاية خدمة عفريت ملازم ، كان الحظ قد أوقعه فى تهمة رهيبة هى تهمة « ضرب عسكرى » . ويقول أحباب الملازم انه كان يطبطب فقط على العسكرى ، أما أعداؤه فيقولون انه ناول ذلك العسكرى مائة قلم بالتمام والكمال . والذى يهمنا هنا هو أن أقوال الشهود قد تضاربت أمام المجلس العسكرى بحيث دخل الشك (الذى يفسره أهل القانون لصالح المتهم) فى القضية وصارت براءة الملازم أقرب اليه من حبل الوتين .

---

(١) كانت كليوباترا تكلف بعض العبيد بالغوص حيث كان انطونيو يلقى بشصه وكان العبيد يشبكون فى الشص أضخم الاسماك .

ويشاء الحظ المهبب ان يكون يوم الجلسة الختامية ، هو نفس يوم وصول عفريتنا الى قيادة المنطقة الشمالية ... لكى يؤدى الزيارة التقليدية . وهناك سمع بمحاكمة الملازم ، فانتابته النزعة البكويكية وهجم على قاعة المحاكمة كالقضاء المستعجل ، ثم قدم نفسه الى رئيس المجلس بصفته محاميا متطوعا (طبقا للبند ٩٢ من من قانون الأحكام العسكرية) .

ولم يكن الملازم المتهم يعرف عن ماضى العفريت البكويكى شيئا ولذا فانه رحب به محاميا ومسعفا . اما رئيس المجلس – الذى كان من ضحايا نجدة العفريت أكثر من مرة ، والذى كان أميل للعطف على المتهم – فانه راح يقاوم ذلك التطوع المهبب وينصح الملازم بأن يكتفى بالمدافعين عنه (كانوا أكثر من تسعة ما بين ملازم ويوزباشى)، ولكن الملازم غرته رتبة العفريت الكبيرة فتشبث به ، وطلب من المجلس ان يسمع مرافعته ، بغير أن يخطر على باله أن يسأل العفريت عن مدى اطلاعه على القضية . وللتو وقف العفريت بقامته الفارعة وصاح « يا حضرات المستشارين » . ثم راح يؤكد أن الملازم برىء من تهمة قيادة موتوكسيل بغير اذن !! . ودوت القهقهات عندئذ فى القاعة ، والتفت رئيس المجلس الى الملازم وقال له « كويس كده ؟. أهو لبسك تهمة جديدة » . وأفلت الملازم عندئذ من جوار حارسه وهجم على عفريتنا وهو يقول « موتوسيكل ايه يا بيه سلامة عقلك .. » . فتوقف العفريت عن مرافعته البليغة ثم سأل المدعى عن « الحكاية » فشرحها له هذا باختصار . فضرب العفريت بيده على جبينه ثم قال للرئيس « لا مؤاخذة يا فندم .. دى قضية ثانية .اصل اناعندى اليومين دول قضايا متلتلة ».ثم ألقى بابتسامة مطمئنة للملازم ثم عاد الى منصة الدفاع وهو يصيح « يا حضرات المستشارين .. » ثم انتقل على الفور الى المطالبة بالقبض على العسكرى (المجنى عليه) واعدامه رميا بالرصاص ، لأنه اعتدى على الملازم بأن ضرب يد ذلك الملازم بخده مائة ضربة فأحدث بها

الكدمات والاصابات المبينة بالتقرير الطبى ، وبذلك يكون قد ارتكب جناية « ضربه ضابطه الأعلى وقت تأدية الخدمة » .. طبقا للبند ١٣٧ من قانون الأحكام الخ ..

ولا تسل عن الفزع الذى ساد قاعة المجلس وقتها ، وعن صيحات الملازم « حد يناولنى طبنجة يا عالم » . وهجم زملاء الملازم على العفريت وانتزعوه من مكانه واتجهوا به الى باب القاعة وهو يصيح « يا حضرات المستشارين .. » .

وخرج الملازم من المحاكمة « بتكدير بسيط » ، ثم راح ينقب فى انحاء الاسكندرية بحثا عن العفريت لكى يقدم له ما تيسر من آيات الشكر والعرفان ... ولكن الأخير كان قد بادر بابلاغ رئاسة الحدود بأن حياته فى الاسكندرية قد صارت مهددة و « يا تلحقونى يامتلحقونيش » . ولحقته الرئاسة بأمر نقل الى القاهرة ، وأمرها لله .

وفى القاهرة بدات مسرحية الحرائق ، التى كان مؤلفها ومخرجها ومطفئها الوحيد هو العفريت ..

فقد وجد نفسه فى القاهرة بغير عمل يذكر فابتكر لنفسه نشاطا سبق به حريق القاهرة الكبير بسنوات .

فقد راحت الحرائق تشب هنا وهناك ، ولكنها لم تك تخبط خبط عشواء . وانما هى كانت تختار لنفسها شكلا محددا وأماكنا لا تعدوها . فقد كان كل حريق يتشكل من لفة من ورق الصحف ، ثم انه كان لا يشب الا فى اركان آمنة من مبانى السفارات والقنصليات ، مثل ركن حديقة أو باب جاراج ، أو مدخل مخزن فارغ ، أو كشك بواب (بشرط أن يكون البواب غائبا لشراء السكر والشاى) . وكانت تلك الحرائق من الديمقراطية بحيث أنها لم تكن تفرق بين سفارة واخرى او قنصلية وقنصلية .. فالكل عندها فى حق الحريق سواء .. ثم ان تلك الحرائق كانت ترفض أن تشتعل

الا فى نفس اللحظة التى كان يتصادف فيها مرور العفريت . ثم تتابع فصول المسرحية ... العفريت يصرخ « حريبيقه » ، والصوات يدوى من زوجات البوابين ، ونافذة حجرة نوم السفير تنفتح لكى يظهر منها كومبينزون ملعلط ، وصاحبته تصرخ « هلب » أو « أوسيكور » أو « ماماميا » أو « الحجونا » وقد عالم كل الناس صرختهم ..

ومن أقرب زير ، كان العفريت يغترف كوزا واحدا لا غير ، ثم يهجم به على الحريق فيطفئه ، ويحيل لفة الجرائد الى رماد تذوره الرياح .

وللتو كانت تحيط بالعفريت هتافات الشكر والاعجاب ، ثم كان يدعى لتناول الشاى (أو اى سائل مما يخلط بالصودا وتعلوه مكعبات الثلج ...) وفى ظرف أيام قليلة يكون « الديوان الملكى » قد تلقى اخطارا من سفارة « روريتانيا » أو مفوضية « يوتوبيا » أو قنصلية « واق الواق » بمنح العفريت نوط « الفرسان الثلاثة » أو « صليب الانقاذ البرونزى » أو نيشان « الضمان الاجتماعى من الطبقة العاشرة » .. وكان القصر يوافق « وامره الى الله » . ثم كانت تظهر فى اليوم التالى فى باب الاجتماعيات « بكل الصحف » اخبار حصول العفريت (مفخما مكرما) على النوط أو النيشان . ونهاره مهبب .. ذلك القنصل أو السفير الذى كان « يطنش » على حق العفريت .. فقد كانت الهتافات تتالى عندئذ (فى باب الاجتماعيات) وتقول « موظفوا وعمال سفارة كذا يشكرون همة ونجدة حضرة صاحب السعادة البكباشى فلان الفلانى على مبادرته باطفاء الحريق المهول الذى شب فى السفارة » . أو تقول « باشقواص مفوضية كيت وكيت يرفع أكف الشكر لله تعالى على نجاة المفوضية من الحريق الهائل الذى كاد أن يدمرها تدميرا ، والذى تم اطفائه على يد رجل النجدة والشهامة فلان بيك الفلانى » . فاذا وعى السفير هذا وبادر بعمل الواجب كان بها ، والا فانه كان فى

« البروجريه اجبسيان » و « الاجبشيان ميل » و « تاخيدروموس »
متسع للمزيد من الكورنرات .

ولقد خرج العفريت ذات يوم عن قاعدة تأليف واخراج الحرائق بنفسه فكاد ان يحصل لنفسه على جنازة عسكرية رهيبة .. وكان ذلك حين تصادف وجوده ذات ليلة فى نادى الضباط بالزمالك . فقد انفجرت ليلتها قنبلة من قنابل المالبز ، التى أشرنا اليها فى « "A.T.S" » على سطح النادى المصرى الانجليزى .

وللتو قفز العفريت صارخا « حريقة .. قنابل » وجرى نحو باب النادى فى محاولة للحصول على أى نيشان ممكن . وهناك وجد عددا من العفاريت الشبان وهم يسدون الباب بأجسادهم ويحولون بين الحرس وبين الخروج لمطاردة الجانى « ذى البسكليتة » . فحاول العفريت أن يخترق صفوفهم ويخرج الى الشارع ولكن واحدا منهم طوقه بذراعيه وسأله « جنابك رايح فين ؟ » . فصاح العفريت بغير أن تساوره أدنى ريبة فى حقيقة الأمر « حريقة .. قنابل » . فأجابه ملازم ساكن الروع « طب وماله ؟.. دى علشان اخواننا » ، ثم أشار برأسه اشارة ذات معنى نحو النادى المختلط . ولكن العفريت كان منفعلا ومستعجلا على النيشان بحيث لم يفهم مما قيل له شيئا وعاد يحاول الخروج الى الشارع . ولم يتمالك يوزباشى من الفرسان أعصابه ساعتها فأخرج من جيبه طبنجة برتا وسحب ذراع التعمير ثم دفع بالطبنجة فى صدر عفريتنا وهو يقول « انت حاتعقل واللا أفرغ الخزنة فى صدرك » .. وأشرقت الحقيقة الرهيبة عندئذ فى صندوقه الدماغى ، فتزغللت عيناه ، ثم اغرورقتا بالدموع ، ثم راح يحتضن العفاريت وهو يهتف « بحق جاه النبى خدونى معاكم » .

وبعد . فقد يتصور القارىء أن عفريتا بكوبكيا مثل عفريتنا كان يجب — منطقيا — أن ينتهى مصيره الى سراى ذات لون معين فى

اقصى العباسية . ولكن الحياة اغرب من أن تسير على قواعد المنطق . ولذا فانها ختمت حياته الوظيفية بمنصب محافظ .. فقد كانت الصحراوات تشكل محافظات يراس كل منها ضابط من الحدود . وكان عفريتنا هو المحافظ المختار — فى أوائل الخمسينيات — لأبعد تلك المحافظات مكانا واقلها سكانا . وفى ذلك المجتمع النائى وجدت نزعته البكويكية مجالا رحبا . وعدلا وانصافا ، نقول انه فعل هناك الكثير من الطيبات وأنه ساس رعيته وحكم محافظته بوعى واقتدار ، وأنه عاش فى تلك الفترة وهو مجبور الخاطر مشكور الفعال . ثم آتاه المعاش ، فعاد الى القاهرة حيث راح يصرف وقته .. رئيسا لنقابة من أعجب واغرب النقابات .. ليس فى مصر وحدها بل وحتى فى المريخ .

ولا يطمعن القارىء فى العلم باسم تلك النقابة .. فدون ذلك خرط القتاد .

جلا جلا فى نيويورك

من تقاليد الدراســة فى كلية اركان الحرب (أى كليــة أركان حرب) أن يقوم الطلبة ــ قبل أو بعد التخرج ــ بزيارات خارجية ، يدرســون فيها على الطبيعــة نظم وأساليب الجيوش الأخرى ، ويتعرفون فيها على طبوغرافية الدول والقارات .

وعفاريتنا خير من يؤدى مثل تلك الزيارات ويكتسب منهــا الخبرات اللازمة ، ويتعفرت فيها بكل ما فى طاقة العفريت المصرى من ذكاء عريق ومن خفة أصيلة فى الدم . وسوف تدور أحــداث قصتنا على البند الأخير .

ففى أوائل الخمسينيات قامت دفعة من خريجى الكلية ــ كان معظم أفرادها من اليوزباشية ــ بدورة زارت فيها عددا من الدول الأوربية ثم ختمت الجولة بزيارة الولايات المتحدة . وبالعلم والأخلاق نجحت الجولة وحصل العفاريت على ثمارها المطلوبة ، كما حصلوا على الاحترام والتقدير حيثما نزلوا . ويكفى أن نذكر أن واحدا منهم قد استطاع ــ أثناء زيارة كلية ساند هرست فى انجلترا ــ أن يكتشف عددا من الأخطاء فى مشروع تكتيكى كان يدرس للطلبة هناك وأن يقدم بدلا منه مشروعا متكاملا كان مثار دهشــة واعجــاب الجنرالات

(أركان الحرب) من بنى جونبول ، الى الحد الذى جعل أحـدهم يتساءل بما معناه « امال احنا قاعدين فى بلدكم ازاى وفيها عفاريت زيكم ؟ » فأجابه العفريت بما معناه « اذا كان على دى ما تشغلش بالك ، ورهان من جنيه لعشرة ان قعدتوا أكثر من كده » . وطبعا نذكر كلنا أن عفريتنا قد كسب الرهان فى يونيو سنة ١٩٥٦ .

ونعود الى موضوعنا فنقول ان عفاريتنا نزلوا فى مطار نيويورك وهم فى حالة قلق ، مصدره ما كانوا يتوقعونه من ازعاجات من ابناء العم سام وذلك بحكم العطف الامريكانى على بنى صهيون .

وبدلا من التجهمات والمضايقات المتوقعة فوجىء العفـاريت بالتحيـات وهى تنهـال عليهم من كل جانب . وكادت الحركة ان تتوقف فى المطار من فرط تزاحم الامريكان ــ والامريكانيات ــ على رؤية العفاريت وعلى تحيتهم . وقد ذهل أحد العفاريت اليوزباشية عندما فاجأه ضـابط أمريكى كهل ــ لا يمكن ان تقل رتبتـه عن بريجادير (عميـد) ــ بتعظيم كاد أن يحـدث من فرط شـدته زلزالا فى أرض المطار . أما الضباط الامريكان الذين كانوا فى استقبال العفاريت فكانت عيونهم تنطق بالدهشة والتهيب معا ، وراح كل منهم يتناول كل عفريت يوزباشى بتعظيم مهول وهو يقول « ول كم جنرال » (يعنى مرحبا أيها الجنرال) . أما العفاريت من الصاغات والبكباشية ــ وكانوا أقلية ــ فان القوم عاملوهم كما لو كانوا من سقط المتاع ولم يعرهم أحد اهتماما يذكر .

وبديهى أن العفاريت اليوزباشية عاشوا تلك اللحظات وهم فى زهو كبير وفى دهشة أكبر ، حتى لقد هتف احدهم « الجماعة دول يكونوش غلطانين فينا وحايكلمونا بالعبرى ؟ » . ولكن تلك الدهشة لم تطل ، فقد تناول عفريت صاغ واحدا من الضـباط الامريكان وسأله « ايه حكاية الجنرال دى يا أخينا ؟ . داحنا أكبر ما فينـا لفتنانت كولونيـل (بكباشى) » . وللتو ضحـك الامريكانى وراح

يتنفس الصعداء ويقول ــ ما معناه ــ « ما تقول كده دا انتوا سيبتوا ركبنا بالنجوم الثلاثة . . دى علامة الجنرال عندنا » . وللتو انطفأ زهو اليوزباشية ، واستعاد الصاغات والبكباشية اقدمياتهم الطبيعية وتقدموا الصفوف وهم يقولون « ارجع ورا يا واد يا جنرال انته وهوه !! » . وجاءت الأقدمية للصاغ بنكبة من حيث لا يحتسب . . فقد تقدم فى نشاط وراح يقود عددا من زملائه فى جولة فى صـــالة المطار . وأخذ يشرح لهم تفاصيل الماكينات الأوتوماتيكية العجيبة التى كانت تملأ الصالة ــ وذلك على قاعدة « أقدم منك بيوم يعرف عنك بسنة » ــ وفعلا استطاع الصاغ ان يتعرف على الماكينات التى تبيع الكوكاكولا والسجائر واللبان الامريكانى وبعض المشروبات التى تنتسب الى طائفة « المنكر » . ثم حاول أن يستثمر علمه الأوتوماتيكى فى ماكينة الرهان (سلوت ماشين) . ولكنه فقد فيهـا مبلغا أثار ضحكات وتريقات اليوزباشية ، فتحول عن تلك الماكينة المحتالة ، وراح يضع همه ــ أو قدمه على وجه أصح ــ فى ماكينة أخرى كانت مهمتها هى « تمسح يا بيه ؟ » . وبكل عظمة جلس البيه على المقعد ثم دفع بقدميه ، فاختفتا فى داخل الماكينة . ثم وضع قطعة العملة المطلوبة فى الثقب . ثم أشار الى الزرار وهو يقول « دى كده تسليك ودى كده توليع » . . ونقف هنا وقفة قصيرة لنقول ان عفريتنـــا الصاغ لم يكن قد سبق له أن غادر مصر ولكنه كان يجيد الانجليزية « لبلب » ولذا فانه راح يستثمر هذه الاجادة فى التعرف بسرعة على الأمور ، ثم فى الادعاء بأنه زار أوروبا وأمريكا مرارا وتكرارا ، حيث أن أسرته لم تك تصيف الا هناك . . وللحقيقة والتاريخ نقرر ان تلك الأسرة تنتسب الى مركز ملوى وأن مصــــيفها المأثور كان « على الزراعية » .

ونعود الى الماكينة فنقول انه ضغط على زرارها فراحت تئز وتزأر وتوسع حذاءه مسحا وتلميعا ، بينما كان هو يحـــاول أن يتماسك فى مواجهة الزغزغة التى كانت ترج قدميه وتكاد أن تخرجه

من وقاره المصطنع وتدخل به فى نوبة كركعة شديدة . واخيرا أضاء مصباح احمر وخمدت حركة الماكينة فراح العفاريت يتطلعون الى مشاهدة النتيجة . وفى بطء وتعاظم راح البيه يخرج قدميه كما لو كان واحدا من بتوع « جلا جلا » .. منتظرا أن تدوى الصالة بالتصفيق والهتاف .

ولكن « تأتى الماكينات بما لا يشتهى العفاريت » .. فقد ظهر الحذاء تحت الأضواء لكى تستقبله قهقهات هى بذاتها القهقهات التى يستقبل بها الناس ماريشالات ميدان الحسين ...

وضرب عفريتنا بعينيه نحو حذاءه ، (الذى كان قد دخل الماكينة وهو بنى فاتح) فصعق حين رآه وقد تحول الى بقع رهيبة تتروح الوانها بين لون البن المحروق وبين لون الفحم الكوك وبين لون لا هو بهذا ولا هو بذاك !!! فقد رأت الماكينة أن تدهن الحذاء بأفخم ما عندها من الورنيش الاسود . وصرخ العفريت صرخة شديدة الشبه بصرخة بتاع جلا جلا حين يدس يده فى قاع الجراب ليستخرج تفاحة باهرة أو كتكوتا وديعا فيلدغه هناك عقرب شرس .

وعلى صيحة عفريت يوزباشى « اليدك (١) بقى موزايكو » وصرخة عفريت آخر « أهو كده الكاموفلاج واللا بلاش » ، وتساؤل عفريت ثالث « هو نقش الحنة بيبقى على الايدين واللا الرجلين ؟ . » .. راح العفريت المنكوب يوسع الماكينة سبابا . ثم تحول الى أقرب ضابط امريكانى ، وطلب منه ــ وهو يشمر عن ذراعيه ــ أن يرشده الى صاحب الماكينة حتى يناوله علقة ساخنة . وضحك الضابط وتأبط ذراعه وهو يعده بأن يتوجه به فورا الى أقرب محل لبيع الأحذية . وساله العفريت بانجليزيته المتفوقة « الجوز عندكم

---

(١) اليدك ــ بفتح الياء والدال ــ هو المداس .. اسم الله على المقام وله أيضا معنى اصطلاحى يحسن بالقارىء ان يستفهم عنه من احد العفاريت .

بكام ؟ » فأجابه « من عشرين دولار وطالع » ، فانخلع قلب العفريت ولكنه تجلد وقال « دا ايه الرخص ده ! الجوز عندنا فى ملوى مايقلش عن ميه وتلاتين . . . »

ومن المطار تحرك العفاريت الى نيويورك ومنها الى فورت بننج ومنها الى نورث كارولينا ومنها الى سوث داكوتا . كما أستمتعوا ايضا بزيارة لهوليود ، حيث يزعم احد العفاريت انه تلقى هناك مكتوبا من خطيبته تقول فيه « أنا الآن اقبل صورتك الغالية وأسهر مع نجمتى المفضلة » ، فأجاب عليها برسالة قال فيها « وأنا والله اقبل الآن نجمتى المفضلة وأسهر مع صورتك الغالية » . . وان كان لم يفسر كيف افلت من فسخ الخطوبة بعد تلك الصراحة المنعمية .

ولقد تلقى أكثر من عفريت ــ فى هوليود ــ عروضا للعمل كنجوم لشركة فوكس وشركة مترو وشركة يونيفرســـال الخ . ولو أنهم استجابوا لتلك العروض لكان من المحتمل الا يجد نجمنا عمر الشريف لنفسه مكانا هناك . وبهذه المناســـبة نقول أن هوليود قد غنمت مديرا متفوقا للانتاج فى شخص عفريت مصرى بلغ من الشهرة حدا جعل هوليود توفد مندوبا خاصا اقنعه بالاستقالة والعمل مع شركته بمرتب مهول . وكان مصدر شهرة العفريت هو ذكاؤه الخارق الذى جعل منه الأول طيلة حياة التلمذة ، وجعل منه باشجاويشا للكلية الحربية . ومن تقاليد الكلية أنها تمنح الاوائل فى كل المواد جوائزا عسكرية الطابع (ربطة فرش . صندوق مهمات . خيمة هايك الخ) . وكان أهل ذلك العفريت يستحضرون لوريا فى يوم توزيع الجوائز ، لانه كان يحصل على جوائز جميع المواد بغير استثناء . ولقد راى الكاتب وسمع هذا العفــريت وهو يستعرض قدرات ذاكرته العجيبة . ونسجل هنا استعراضا يدخل مباشرة فى طاقة احدث العقول الالكترونية . ففى الكلية ــ وفى كل وحدة عسكرية ــ يصدر دفتران للاوامر اليومية . ويشتمل الدفتران على متغيرات يومية تختلف تفاصيلها اختلافا تاما من يوم الى آخر . . ما بين أسماء

الضبـاط والصف ضبـاط النوبتجيين وارقامهم ، وما بين نتائج العيادة ، وما بين الاجازات والتحركات والجزاءات الخ . وينتهى البلوكامين من كتابة تلك الاوامر الحاشدة قرب الغروب ، وذلك يعنى انه يستحيل على اى انسان ان يعـرف تلك التفاصيل قبل ذلك . وفى طابور التمام (عند الغـروب) يسلم البلوكامين هـذه الأوامر لباشجاويش الكلية لكى يقرأها .

وذات غروب حضر البلوكامين وسلم الدفترين للعفريت ، ففتحهما هذا واطلع على ما فيهما بنظرة خاطفة ، ثم اغلقهما ووضعهما تحت ابطه وراح يكر ما فيهما من تفاصيـل كانت تملأ أكثر من عشرين صفحة . وساعتها بلغ من دهشة الضـابط النوبتجى انه تقـدم وصافح العفريت ، وكذلك راح الطلبة يصفقون . وما يزال معظم شهود هذه المعجزة أحياء يرزقون .

ونضيف بعد ذلك ان سيسيليا «حفيدة المخرج سيسل دى ميل» قد وقعت فى دباديب عفريت آخر فاقنعته بالزواج منها ، ثم بالاستقالة والعمل فى هوليود ولعله ما يزال هناك حتى الآن .

ونعود الى العفاريت فننتقل معهم الى نيويورك ، حيث راحوا يختمون جولتهم بزيارة شارع برودواى الذى هو صورة ليست طبق الأصل من شارع عماد الدين .. فالاخير يمكن أن يعـد من شوارع الورع والتقوى اذا ما قيس بزميله النيويوركى . وبكل اختصار فانه ـ والقول هنا منقول عن أحد العفاريت ـ ما من منكر ورد فى قاموس « المحيط المتناهى لكل أصـناف الملاهى » الا وله « وطن قومى » فى برودواى .

وهناك جنت نجوم الجنرالية على العفاريت . اذ راحت تحيط بهم زفة امريكانية حيثما حلوا .. دهشة وأعجابا بنظام الترقيات المصرى ، الذى يصل بالضابط الى رتبة الجنرال فى سن يقل عن السابعة والعشرين . ومع أن قوام معظم الزفات كان مكونا من أنصر

حفيدات العم سام ، فان العفاريت خرجوا من الشارع كما دخلوه .. أطهارا أبرارا . فقد كانت النجوم تخلق الزفة ، والزفة تؤدى الى سين والسين تشمر جيما تحدد الرتبة (الامريكية للنجوم الثلاثة) ، وكان تحديدا لرتبه يوقع العفاريت فى احتشام اتوماتيكى ، بحكم كونهم جنرالات ، والجنرالات لا يستطيعون يقربوا مواضن الريبة . وهكذا اضطر العفاريت الى الوقوف عند خط الملاغاة فقط مع حفيدات العم سام . خصوصا وان الملحق العسكرى المصرى كان يصاحبهم . ومع أن ماضى الأخير الترفيهى لم يكن فوق الشبهات فان رتبته ومركزه (وايضا زوجته) قد جعلوه من أساطين « المشى على العجين » وبالتالى فانه كان يمثل قيدا أكيدا على حرية العفاريت البرودواية . وكم ندم العفاريت يومها على انهم لم يستمعوا لنصيحة عفريت عجوز بأن يأخذوا معهم ملابسهم المدنية .

وبعد فلا يطمعن القارىء فى الحصول على وصف لمنكرات شارع برودواى فذلك الوصف محرج حتى فى امريكا ذاتها .

واكتفى العفاريت ليلتها بمشاهدة فيلم أمريكى ينقصه الحياء . وعلى باب السينما وقع عليهم نصاب امريكانى أصيل وانتحى باحدهم جانبا ، واستطاع ان يبيع له ساعة فالصو على انها من الذهب الخالص . وبعد أن انصرف النصاب راح العفاريت يوسعون زميلهم تعنيفا على خيبته . وبكل هدوء ضرب الأخير يده فى جيبه وأخرج لهم ١٠ ورقات من فئة العشرة دولارات ، وحين سألوه عن مصدرها قال « كان معايا خاتم جعران من خان الخليلى ، النصاب قاللى تشترى الساعة ؟ قلت له تشترى الخاتم ؟. قاللى ده نحاس ، قلت له ده بتاع جدى رمسيس الثانى ؟ . قاللى تبادل ؟. قلت له الخاتم بمية وخمسين جنيه . قاللى تاخد الساعة وميت دولار ؟ قلت له ماشى » .

وعاد العفاريت الى الفندق بالتاكسيات . ولكن واحدا منهم لم يجد مكانا مع زملائه فركب تاكسيا لوحده ووصل الى الفندق بعد أكثر من ساعة . لأن سائق التاكسى تعمد أن يتوه به على طريقة

« دوخيني بالمونة » ، وكانت النتيجة هي ان العداد ضرب في العالي . وعز على العفريت ان يخضع لهذا النصب المكشوف فراح يجادل السائق بالتي هي احسن . ولكن الاخير أبى واستكبر وخرج من التاكسي وراح يتواقح على العفريت بعبارات كشفت عن هويته فاذا به صهيوني متعصب ، كما ظهر ايضـــا من كلامه انه تبين مصرية العفريت من أول وهلة . واستبان للعفريت عندئذ ان السائق قد تاه به مع سبق الاصرار والترصد ، وانه شاء ان يشارك بني عمومته في العدوان على العرب . ومع ان العفريت رأى أن يقصر الشر واخرج المبلغ المطلوب من جيبه فان السائق استمر في العدوان وفي طول اللسان فلم يجد العفريت بدا من مناولته بونية خرشمته و « خلت وشه شوارع » . فحاول الاخير ان يصوب اليه لكمة يسارية فهبده العفريت مقصا جعله يلحس الرصيف . وقبل العد التاسع نهض السائق وحاول أن يستأنف القتال لصالح اسرائيل ، فثنى عليه العفريت ببونية مرت على وجهه كما يمر البولدوزر فأزالت نتوءاته وتركته بغير أنف يذكر .

وعاد العفريت مع الدفعـــة الى مصر ، بعد أن ترك في نيويورك صهيونيا أخنفا لا ريب فيه .

الزواج من بنات الجان

هو عفريت ، كان وقت احداث هذه الذكرى يوزباشيا ، كما انه كان عفريتا بالمعنى الحرفى للكلمة . فقد كان من أكبر دعاة الاتصال بالعالم التحت ارضى . وكان يعتبر نفسه سفيرا فوق العادة لدى هذا العالم الرهيب . وكان يؤكد انه يستضيف كل ليلة عددا من أكابر عفاريت البر والبحر والجو . . . مثل السلطان طيغموس والملك طلطميس .

أما من حيث الجنيات ، فان صاحبنا كان يخاف الا يقسط فى الأيامى منهن ، ولذا فانه تزوج مثنى وثلاث ورباع من خالص بنات الجان . الأمر الذى عجز معه عن عقد قرانه على أى بنت من بنات حواء . وبذلك كان ــ من وجهة نظر بنى آدم ــ أعزبا مزمنا ، اما من وجهة نظر عالم الجن ، فانه كان متعدد الزوجات . وطبقا لنظرية جدتنا فى أن الاطمئنان للرجال يشبه الاطمئنان « للمية فى الغربال » فان صاحبنا كان مطلاقا رهيبا ، بمعنى انه كان لا يصبر على بعد مأذون الجن عنه ، فكان يستدعيه لكتب كتابه على الجنية الخامسة بعد ان يكون قد ألقى بيمين الطلاق المثاث فى وجه الجنية الأولى ، حتى بلغ عدد ضحاياه من بنات الجان عدة آلاف . وحين خطر على بال عفريت ملازم أن يسأله عن عدد أولاده « الجن بشريين » وعن

مصائرهم ، أجابه فى ارتياح بأن نظام التأمينات الاجتماعية فى « سابع أرض » يتكفل بهم تماما .. ولقد جن العفـريت الملازم فرحا بذلك النظام الطلطميسى فراح يرجو صاحبنا ان يعرفه بعالمه العجيب . وكانت تلك هى البداية لسلسلة من الاحداث التى كادت ان تنتهى بمصرع عفريتنا « أبو نسب » ..

فقد كانت الحياة ـ كما ذكرنا من قبل ـ فى الميدان هادئة ، فى أوائل الخمسينيات . ومع أن هدوئها كان هو الهـدوء الذى يسبق العاصفة ، فانه كان هدوءا على أى حال .

ومع الهـدوء يجيىء الروتين ، وتصبح الحيـاة دورة تتشابه أوائلها بأواخرها . ثم يجيىء الملل ، ومن بعـده تظهر الحاجة الملحة للتغيير وللمغامرات . وفى ذلك المناخ كان العفاريت « يتنشقون » على أى جديد أو طريف يطرد الملل ويغير من طعـم حيـاة الميدان الرتيبة .

وعلى سبيل المثال فان الكونتراتو الذى عقده العفريت (سكرتير نادى الضباط بالعريش) مع جروبى ، والذى صارت معه روائع الجاتوه وبدائع التورتة وقوالب الشيكولاتة والبافرواز تتدفق على النـادى يوميا ... نقـول ان ذلك الكونتراتو كان أسبق من فراخ الجمعية فى فرض نظام الطابور . وكم من عفريت خـرج من ذلك الطابور «ممزوقا» على أثر كوع عنيف ، بسبب تجاوزه لدوره فى الصف . وكان العفريت الذى ينسى أن يحضر معه عددا من الجنود المسلحين يتعرض لعمليات سطو رهيبة من الكمائن التى كانت تنتشر بالعشرات من حول النادى . ولقد استطاع عفريت صاغ « كان يجيد ترتيل القرآن بنفس صوت وطريقة الشيخ محمد رفعت » أن يحيى ليلة عيد ميلاده بكميات فلكية من منتجات جروبى . وكان سبيله الى ذلك هو الترصد للقطار الحربى فى محطة رمانة ، ثم الهجوم عليه ، ثم الاستيلاء على كل حمولته الجـروبية ثم النزول بهـا من

السينمة فى محطة العريش . ولولا انه كان يقيم حفلة عيد ميلاده فى بيته بالعريش ، ولولا انه كان يحتمى فى داخل البيت بزوجتــه واولاده ومدعويه (من العفاريت والعائلات) لما بات ليلتها الا وهو مضروب بالرصاص .

ونعود الى عفريتنا « ابو نسب » فنقول انه كان هو نجم العريش فى تلك الفترة . اذ راح العفاريت يتقاطرون على خيمته بالعشرات ويتمتعون بعبق البخور ، الذى كان العفريت يؤكد لهم أن اصهاره من ملوك الجان يبعثون به اليه مع جنى « سفرى » . ثم أنه لم يكن يبخل عليهم بعد ذلك بكميات طيبة من العجوة العريشى المعتبرة .

وبعد بضع همهمات وغمغمات ، كان العفريت يلف بالمبخرة فى الخيمة « سبع لفات » ، ثم يتربع ويروح يستحضر « ما يطلبــه المجتمعون » من اصناف الجن والعفــاريت . وللتو كان الجنى المطلوب يحضر وهو يهتف بصوت متحشرج « شبيك لبيك سفروت بين ايديك » ... فكان العفريت يسأله عن الصحة وعن الجماعة والأولاد ثم يقول له « اخونا الصاغ فلان بيسأل عن اخبــار الست بتاعته » ، فيجيب سفروت « بتتخانق دلوقتى مع خالها علشــان يسيب لها الفدانين بتوعها » ، فيفتر ثغر الصاغ عن ابتسامة عريضة ويقوم فيقبل العفريت شاكرا . ثم كان العفريت يستحضر الجنية المصون حرم السلطان طيغموس ويطلب منها ان « تحوش القومندان عن اليوزباشى علان » . ومن عجب أن القومندان المذكور قد اصيب فى اليوم التالى بمغص رهيب ، وانه لزم خيمته لبضع أيام ، وفى النهاية بعث به المغص الى مصر فى « ارسالية مرضية » .

ولقد ظل ذلك هو طابع الجلسات فى خيمة العفريت حتى خطر على باله ان يثرثر بأسرار حياته الزوجية مع بنات الجان ، فكان رجاء العفريت الملازم بأن يحصل على شرف التأهل بما تيسر منهن .

وبديهى ان عفريتنا قد قاوم تلك الرغبة فى بادىء الأمر ، وراح

يحذر الملازم من المخاطر والأهوال التى كان عليه أن يجتازها ، وصولا الى مطلبه . ولكن الاخير استقتل وركب راسه ورفض التراجع . وعندئذ استسلم عفريتنا وضرب له موعدا بعد أسبوع . وقضى الملازم ذلك الأســبوع وهو يتقلب على جمــر النار ، ويتشرد مع الأفكار . وفى الليلة الموعودة توجه الى خيمة العفريت وهو يحسب أنه سيجده وحده (باعتبار ان المسألة عائلية) فاذا به يجد عددا من العفاريت الخطاب ، الذين كان العفريت قد عرض عليهم أن يوفق بين رؤوسهم ورؤوس بنات الجان فى الحلال ... وردا على نظرات الدهشة من الملازم قال العفريت « أصله مشوار بعيد لسابع أرض ، وقلت نخليه نسب بالجملة » ..

وفى رهبة شديدة جلس العفاريت الخطاب وقد وضعوا أيديهم على ركبهم . وبعد اطلاق البخور والذى منه ، صاح العفريت فى صوت مزلزل « روح ياشيطان وابعد عن الانسان واحلى بنات الجان تظهر وتبان عليها الأمان » . وللتو ظهر فى الجانب الغربى من الخيمة مايوه بكينى وبداخله جنية يعجز القلم عن وصف طبوغرافيتها وعن شرح هيئاتها التكتيكية الرجراجة . وجحظت عيــون العفــاريت وهم يتأملون فى ذلك الحسن الهيولى ، وصرخ بعضهم « انا طالب القرب » وقبل ان ينافسه عفريت آخر اختفت بنت الجان البيكينية . وساد الظلام فى الخيمة لبضع ثوان ثم بزغت فى الجانب الغربى جنية شقراء كانت — على حد تعبير الخاطب الثانى — مثل « لهطة الجشطة » . وتتالت بعد ذلك بنات الجان من كل بنت لهاروت أو حفيدة لماروت ، وتمت خطوبة الجميع على خير .

وراح العفاريت يطالبون بتحديد مواعيد الزفاف . وبكل هدوء نبههم العفــريت الى أن تقاليد الجان تحتم على الخاطب ان يدعو « اصهــاره » الى وليمة مفتخرة ، ومن بعــد الوليمة الأخيرة يمكن تحديد موعد الزفاف للجميع .

وشهدت خيمة العفريت بعدها سبع ولائم كان قوامها هو الرومى المحشو بالدجاج ، المحشو بالسمان ، المحشو بالكبدة ....

وفى تلك الولائم كان عفريتنا يأكل بشراهة رهيبة ، زاعما أن كل ما يأكله يذهب فورا الى بطون أهل العروسة ، أما هو فانه يخرج « يا حسرة » من كل وليمة بتعب الهضم والقضم فقط لا غير .. وكان يتعمد أن يصرخ بمراسلته فى نهاية الوليمة « جهز لى يا ولد طبق الجبنة علشان اتعشى » ..

وفى الليلة الأخيرة تطربقت الدنيـــا على دماغه ... وبدلا من أن يأكل الوجبة الرومية المعتادة أكل عددا رهيبـا من اللكاكيم والبونيات . كما ان مراســلته خرج بعدد ضخم من الرضــوض والكدمات ولسان حاله يقول :

فاذا تكون كريهة أدعى لها　　　　واذا يحاس الحيس يدعى جندب

وكان ذلك لأن عفريتنا كان قد استطاب أطعمة الولائم ، فرأى ان يغرى عددا آخرا من العفاريت بمصاهرة عالم الجن . ولذا فانه دعاهم الى الخيمة للفرجة على بنات الجان ، وذلك بهدف أن يضمن لنفسه ولائما جديدة فى الليالى التالية . ولكن لهفته على الولائم جعلته يخطىء فى ضبط توقيتاته ، ولذا فان العروسة الأولى ظهرت فى الجانب الغربى من الخيمة فى نفس الوقت الذى كان فيه ثلاثة من العفاريت الخطاب يحثون الخطى نحو الخيمة . وهناك ، ومن الخارج ، وعلى الجدار الغربى للخيمة ، رأوا العروسة وهى تتراقص مع الريح على ذلك الجدار . ومن فتحة فى الخيمــة المجاورة كان ينطلق شعاع باهر . وهجم الثلاثة على تلك الخيمة فوجدوا فيها مراسلة عفريتنا وهو يدير جهاز الفانوس السحرى ويدفع فيه بصور العروسة تلو العروسة ...

يعنى الحكاية كلها كانت تدور بطريقة الباك بروجكشن (الشاشة الخلفية) ولا كانت هناك جنيات ولا يحزنون ..

وتصور يا صديقي القارىء منظر ثمانية من عمالقة المشاة والمدفعية والمدرعات وهم يعجنون عفريتنا عجنا وهو يصرخ ويستغيث بطيفموس وطلطميس ، ولا مغيث ولا مجيب .

أما عن الأصوات التى كان يزعم أنها أصوات الجان فانها كانت تصدر من بطنه . وتبقى بعد ذلك حكاية مغص القومندان ، وتلك حدثت بالصدفة البحتة . أما عن زوجة الصاغ التى كانت تسعى وراء فدادينها ، فتلك كانت حكاية معروفة ، ولكن عبير البخور أنسى الصاغ تلك الحقيقة .

واليوم يمتلك عفريتنا ـ بعد أن أصبح عميدا بالمعاش ـ عددا كبيرا من الفوانيس السحرية ، والأسباب معروفة . .

مهرجان فى الميدان

كان ذلك فى شتاء عام ١٩٥٣ . والمكان هو العريش .

وكان عفريت هذه الذكرى قائدا لاحدى سرايا المشاة . وذات يوم تلقى أمرا بالتحرك فورا الى القسيمة .وهى واحة تقع على الحدود مباشرة بين سيناء واسرائيل . وقبل ذلك اليوم لم يكن احد قد تنبه الى أهميتها التكتيكية. وكان عليه ان ينشىء هناك نقطا دفاعية وان يصد أى هجوم اسرائيلى محتمل وكانت ثقة القيادة خير حافز له ، فجمع جنوده واسلحته وتوجه بهم الى القسيمة ، حيث بدأ باستكشاف الأرض ، وبعدها بساعات ، كان قد احتل المواقع واصبح على تمام الاهبة للاشتباك مع أى قوة اسرائيلية تجرؤ على الدخول فى مرمى نيرانه .

ونظرا لأن الأجهزة اللاسلكية لم تكن قد لحقت به بعد فان وسيلته الوحيدة للاتصال بالقيادة كانت هى خط تليفون سلاح الحدود ، وكان مركز الحدود يبعد بعدة كيلو مترات عن المواقع ، فكان العفريت يضطر الى قطع المسافة بين المواقع والمركز، جيئة وذهابا . وكانت تلك التحركات البندولية تزعجه كثيرا وتشعره بأنه أشبه ما يكون بكمسارى الاوتوبيس ، الذى ما يكاد أن

يصل الى المحطة النهائية حتى يعود منها . ولقد بلغ من ضيقه بتلك الرحلات انه صاح ذات رحلة « تذاكر » ..

على ان تلك الرحلات لم تكن تخلو من بعض المتع .. كزيارة عين الجديرات وتناول كوب من مائها البالغ العذوبة ، وكالوقوف عند سوق القسيمة . وهو سوق كانت تجرى فيه صفقات ومساومات ذات اطراف ثلاثة . الاول كان قريب الشبه بعوف الأصيل ، والثانى كان هو البدوى الذى يجيد « تخمير المواويل » وثالثهم كان هو سيد طبوش العكر بلحمه وشحمه . والاخير — فى سوق القسيمة — أبرع بكثير منه فى التمثيلية الاذاعية ، لأنه كان لا يقنع بمجرد النصب من أجل « عجد من الزبرجد الأخضر » وانما هو كان يأكل عوف الأصيل والبدوى أكلا لما على طريقة المنشار . ولقد رأى العفريت ذلك الطبوش وهو يلهف مائة « محبوب » من عوف الأصيل فى نظير تمكينه من الحصول على صفقة من الغنم — كان يستطيع وحده أن يشتريها بأقل من ثمنها بمائة جنيه !!! — كما رآه وهو يشفط من البدوى (فى نفس تلك الصفقة) مائة جنيه اخرى . وقد فسر له زميل من ضباط الحدود تلك الظاهرة الطبوشية بأنه لازمة لابد منها الأسواق البدوية ، وبدونها كان كل من عوف الأصيل والبدوى سوف يشعر بأنه خرج بصفقة المغبون .

على أن أكثر ما أزعج العفريت هناك كان هو انعدام اللحم انعداما تاما ، فلم يكن هناك ولا جزار واحد . ولذا فانه كان يتناول التعيينات الجافة من بقول وبقصمات وهو يتحسر على طبق اللحم المحمر (الذى كانت زوجته — وما تزال — تجيد اعداده) ، ويقسم انه لن يترك بعد ذلك ولا فتفوتة واحدة فى هذا الطبق المقدس .

وفى اليوم الثالث كان صبره على اللحم قد نفد ، فراح يستشير زميله ضابط الحدود (وكان أحدث منه فى الرتبة) على طريقة

« دبرنى يا وزير » . ولم يكن التدبير صعبا على الوزير بأى حال من الاحوال ، لأن ضباط الحدود اساتذه فى فن عمل « الشربات من الفسيخ » . وذلك بمعنى ان حياة الصحراء قدعلمتهم كيف يدبرون امورهم بالامكانيات المحلية .. فلو نفذ المـاء من احدهم لاتجه فورا الى بطن أقرب جبل ، وبنظره شرلوكية هولمزية يروح يتفحص ثنايا بطن الجبل ، وغالبا فانه سوف يقع هنـــاك على « هرابة » .. وهى حفرة شبه كهفية تحتفظ بمياه المطـر . فان لم يجد الهرابة فانه يبادر بقص آثار الجمال ، وعندما يصل الى اطلال مضرب بدوى فانه يأمر رجاله بنخس الأرض بالســناكى ، وفى معظم الأحوال يعثر عفريت أسمر منهم على جـرة ماء مختومة .. فبمثل تلك الجرار المخزونة يضمن البدو الحصول على الماء حيثما كانوا . وهكذا تمضى حياة عفاريت الحدود فى رخاء لا يحس به الا من تبخل عليهم الصحراء بأسرارها . وليس ينسى العفريت انه وقع هو وزميل له ذات ليلة فى حيص بيص .. فقد كانا يلعبان الطاولة فى « بير الحســنة » . وفى عز الماتش وقعت منهما فـردة زهر فى الرمل ، وعجزا عن العثور عليها فاضطرا للانقطاع عن اللعب ، وتعكر مزاجهما ليلتها . وفى الليلة التالية طب عليهما زميل من عفاريت الحدود ـ وكان من عتاولة الطاولة ـ وحين رأى الطاولة تربع على الفور امامها وراح يسأل « هل من مناجز ؟ » . وحين هز العفريت راسه فى أسف وأفاده بكارثة ضياع فردة الزهر ، ضحك عفريت الحدود وتناول الفردة الباقية وراح يرميها مرتين (بدلا من الرمية الواحـدة بفردتين) .. وكانت ليـلة ليلاء على العفـريت وزميله .. فقد بهدلهما عفريت الحـدود وحطم اعصابهما برميات كانت تكسبه المارس بعد المارس .. حتى اقسم الزميل ليلتها أن يلتحق بسلاح الحدود ، لا لغرض سوى دراسة فنون الطاولة .

ونعود الى مشكلة اللحم فنقول ان ضابط الحدود وعد العفريت بأن يتحفه بعشـــاء فاخر من اللحم . وجاء العفريت فى موعد

العشاء ـ وكان ساعتها فى غاية الاجهاد بعد يوم عمل شـاق فى الموقع ـ فاصطحبه ضابط الحدود الى مضرب بدوى قريب . وفى خيمة كبيرة كان مشايخ البدو يجلسـون فى حلفة محكمة ، كان الغرض منها هو « حق عرب » ، يعنى ـ بلغة المحاكم ـ جلسة قضائيه . وكان البـدوى المتهم قد اعتدى على حق المرعى لقبيلة أخرى كما أنه ـ وذلك ذنب عظيم ـ كان قد لوح بسيفه فى وجه شيخ تلك القبيلة . وقام ضابط الحدود بدور القاضى الأكبر وراح يناقش أطراف الخصومة باللهجة البدوية الفصحى ، التى لم يفهم الكاتب منها حرفا واحد ، وأن كان ذلك لم يزعجه فى شيء، فقـد كان همـه مرتزا فى رائحـه الشـواء التى ثانت تجـيء من خلفه ، وكانت حدتها تزداد بمضى الوقت وتؤثر فى أعصابه حتى كاد أن يصيح من فرط الجوع .

وصدر الحكم أخيرا بتغريم المتهم اربعة جمال كاملة .

وتنفس العفريت الصعداء وراح يحاول كبت غدده اللعابية حتى تترك له قدرا كافيا للتعامل مع الشواء المنتظر . ولكنه فوجيء بتحول الجالسين من القضاء الى الصلح . ومن هنا وهناك راحت الشفاعات تنهال على الشيخ المجنى عليه . وبعد اللتيا والتى تنازل الأخير عن نصف الغرامة اكراما لخواطر الشيوخ المتشفعين . فهمس العفريت فى اذن القاضى الأكبر « الحمـــد لله .. نتعشى بقى » فاجابه « نتعشى ايه !!! الموضوع لسه ما انتهاش » فسأله فى ذعر « ازاى » ؟ فأجاب « دلوقتى تشوف .. » وشاف العفريت ساعتها فعلا ما لم يكن يتصور ان العدالة ترضاه .. فقـد راح القاضى الأكبر يتشفع بدوره حتى هبط بالغرامة الى الربع . فكاد العفريت أن يقفز من فرط الفرحة وهو يحسب ان الأمر قد انتهى، ولكنه فوجيء بالأنظار وهى تتجه اليه فى نداء صامت بليغ . ففهم المطلوب منه ، واتجه نحو الشيخ المجنى عليه ، الذى كان ساعتها فى حالة خيبة أمل مريرة بعد أن فقد ثلاثة جمال كاملة ، وراح يقول

له « علشان خاطرى » ؟ . فكانت اجابة الشيخ هزة راس يختلط فيها الرفض بالحرج .. ولكن لهفة العفريت على اللحم المشوى كانت أشد من تمسكه بالعدالة ، ولذا فانه راح يعيد الشفاعة ويكرر الرجاء حتى انهارالشيخ وتنازل عن الجمل الباقى.. وساعتها تعالت صيحات الفرح ثم بدات الوليمة ، التى يسميها البدو بالمنسف . وهى وليمة تحمل الكثير من اسمها ، لأن قوامها هو الأرز بسمن الغنم ثم بلحم الغنم ذاتها .. وتبلغ كمية السمن فى ذلك المنسف حدا كفيلا بنسف معدة هنيدة بأكملها (الهنيدة تساوى مائة من الابل) .

وخرج العفريت من المنسف وهو يتحسس بطنه بيده وينظر فى حسد الى القاضى الاكبر الذى كان قد لهف كمية مهولة من لحم الجدى اليتيم ـ الذى كان هو قوام الوليمة ـ ، ومع ذلك فقد خرج وهو يشكو من الجوع وللحقيقة والتاريخ نسجل هنا ان القاضى كان قد ساهم فى الوليمة بنصف تكاليفها ، وهكذا يفعل الكثيرون من ضباط الحدود فى مثل هذه المناسبة .

وعاد العفريت والقاضى الى مركز الحدود وكان الوقت قد قارب منتصف الليل وكان البرد شديدا ، فاستلقى العفريت هناك على أقرب سرير وراح فى نوع متقطع كان يتخلله كابوس ملىء بذكريات المعارك ، ثم استيقظ قبل الفجر على فرقعات شديدة فقفز من السرير واتجه الى النافذة .. وهناك فوق المواقع مباشرة كانت الفرقعات تتوالى فى دوى يصم الآذان ، وكانت السماء تضىء فى ومضات لا يمكن ان تصدر عن أقل من عدة لواءات مدفعية . وللتو تناول سماعة التليفون وطلب القيادة فى العريش وفى عبارات سريعة ابلغ ضابط عظيم « النوبتجى » بذلك الهجوم المهول ، ثم انطلق الى عربته وطار بها الى المواقع . وقرب منتصف الطريق كان المطر ينهمر بشدة ولكنه لم يبال به وزاد من سرعته حتى وصل الى المواقع وهناك وجدها بكل خير وسلام . فلم تكن الفرقعات من

المدفعية وانما كانت من الرعـد ولم تكن الومضات من الانفجارات وانما كانت من البرق .

ومن موقع الى موقع راح يزور رجاله ويتناول معهم أكواب الشاى ويحكى لهم عما جرى له فى « المنسف » ويشيد بفضـل البرق والرعد اللذين اجبراه على الحركة وانقذاه من الكابوس .

ولم يكن يدرى وقتها انه وان كان الكابوس الخاص به قـد انتهى على خير فان كابوسا من نوع آخر كان يدور على أشده بين كل قوات الميدان ، فقد أعلنت القيادة بالعريش الحالة « ج » . والغيت الراحة واستدعى الضباط المتزوجين من بيوتهم ـ وكان مسموحا فى ذلك الوقت للضباط باحضار العائلات الى العريش ـ ، واستيقظت كل القوات وصدرت الأوامر بتحرك بعض الوحدات لنجدة القسيمة ، ودوى هدير المحركات فى مطـار العريش .. باختصار ، تحول الميدان كله الى أسلحة تشرع وصدور تتأجج . وان لم يخل الأمر طبعا من طرائف كان من بينها جنـدى أسعده خبر نشوب الحـرب فراح يطلق نيران بندقيته فى الهواء على سبيل « التفاريح » واذ بنيران التفاريح تجاوبه من كل أنحاء الموقع . وكاد قائد الموقع أن يجن وهو يرى ذخيرته تتبدد بهذه الطريقة « الموالدية » .. وقد انتهت فرحة ذلك الجندى ليلتها فى أقرب زنزانة .

واطرف من ذلك ما حدث ليوزباشى ، كان قد حضر فى نفس الليلة بعروسه من القاهرة ، بعد ان كان قد « عمل لها البحر طحينة » واقنعها بأن العريش هى الجنة بذاتها ، كما وعدها بأن يشترى لها كل روائع غزة ، من النايلون والجوبير واطقم « ليـالى الاسبوع » و « هايد آندسيك » (١) . وكانت البداية اكثر من مطمئنة للعروس . فقد فوجئت عند دخول الشارع بفرقة موسـيقى

---

(١) ؟؟؟؟؟؟ .....

الكتيبة — وقوامها الطبول والآلات النحاسية — . وهي تستقبلها بالسلام الوطني ، بينما كان الضباط يشكلون بسيوفهم « قوسا سيف » . وفي زهو الأسد سار اليوزباشي بالعروس من تحت القوس وهو يقول لهـا « جالك كلامي ؟ » . وفي البيت كانت تنتظرهما مفاجأة أخرى على شكل عشاء فاخر كان مكونا من الحمام والاستاكوزا .. وفي طبق القيادة كان يتربع ديك رومي مهيب . وعاد اليوزباشي الى زملائه وراح يشكرهم على الاستقبال والوليمة وكم كان فزع العروسة حين سمعت واحدا منهم وهو يلقي بقصيدة عصماء ، قال فيها :

للـزوج أنس وللعزاب مليـــون
راحت عليك ليـالى العز يا جون
اتدخل السجن مطواعا وتتركنـا
ندور ما بين ســـينيما وكازينو
وتصرف الليل كالندادات يا نضرى
تسخن الأكل والرضـــعات للنونو

وفي امتنان وفروغ صبر راح العريس يشـــكر الزميل على قصيدته العصماء ويحاول « تطريقه » هو وباقي الزملاء . ولكن عفريتا منهم بادر بالنداء « دقي يا مزيكة » فهتف صول الموسيقى «رقص الهوانم » ، فدوت الطبول وصاحت الآلات النحاسية . وقبل أن ينتهي الدور همس العفريت في أذن الصول « كمان » فانتقل هذا الى «جفنه علم الغزل» . ولولا أن بادر العفريت العريس فلحق بالصول قبل ان ينتقل الى دور آخر وصاح به « السلام بقى .. احسن والله العظيم أحبسك » لاستمر الفـرح للفجـر . وكان الصول كهلا مجـربا ، فآثر السلامة وأمر بعزف السـلام . وللتو ارتفعت الأيدى الى الجباه وتصلبت الأجسام الفتية ، ودوى التصفيق من جمهـور العرايشية الذين كانوا محتشدين وقتها في الشارع . ثم راح الجمهـور يصفق للضباط وهم يخرجون واحدا

بعد الآخر فى قفزات نشطة من البيت .. وذلك بغير أن يعلم انه كان من وراء كل قفزة « زغد شديد » !!!

وقبيل الفجر صحا العروســان على ضجيج جرس تليفون الميدان ــ الذى كان ضابط الاشارة قد « نقط » به العريس ــ ورفع العريس السماعة ساخطا . وما كاد يستمع الى عبــارة « الحاله ج يا فندم » حتى جرى الى الشماعة وراح يرتدى ملابسه ويحشو طبنجته . وقبل ان تحصل العروس على اى تفسير منه كانت السيارة قد وصلت وطارت به الى بير لحفن .

ولولا ان عفريت القسيمة لم يطل مقامه فى المواقع وانه عاد الى مركز الحدود واتصل « بضابط عظيم » وأبلغه بحقيقة الموقف ، ولولا أن « ضــابط عظيم » قد بادر بالغاء الحــالة « ج » ، ولولا أن اليوزباشى عاد ساعتها فورا الى البيت ، لما وجد العروس .. لأنها كانت قد بادرت بسؤال الجيران عن موعد قيام القطــار ثم أعدت حقيبتها وطلبت من الجيران ان يرشدوها الى أقرب طريق للمحطة ..

وبقدر ما تسامحت القيادة مع العفريت وبقدر ما أخذ الجميع الموضوع من جانبه المرح ، بقدر ما راح اليوزباشى العريس يسعى للحصــول على مأمورية الى القسيمة ، بهــدف أن يضع يده على زمارة رقبة العفريت ..

ولكن الله سلم ""

قطـــار الأشباح

فى مايو عام ١٩٥٣ كان الصبر قد فرغ ، وكانت مصر تتأجج بنيران الغضب . فبعد مفاوضات مرهقة وغير مجدية مع الانجليز ، لكى ينهوا الضيافة الاجبارية التى فرضوها على شعبنا لأكثر من سبعين سنة .. بعـد ذلك كله لم يعـد هناك بد من اعـداد ما فى المستطاع من القوة لارهاب هؤلاء الضيوف الثقلاء .

ولم يكن من الممكن الدخـول فى معـركة مع الانجليز المتمركزين فى منطقة القنال بأقل من قوة الجيش المصرى كله .

ودارت عجلة الحشد والتأهب للمعركة . وكما قلنا فى اول الكتاب ، فانه ليس من غرض الكاتب أن يؤرخ لفترة أو فترات معينة ، وانما هو يهدف الى عرض صور انسانية للمقاتلين المحترفين .. لعفاريت مصر . ولذا فاننا نكتفى هنا بعرض دورة طريفة معينة من دورات عجلة الحشد والتأهب هذه . فقد صدر أمر لاحدى الوحدات بالعريش بأن تتحرك « بوسائلها الخاصة » ، وتنضم الى قوات القاهرة فى ظرف ٢٤ ساعة . وكان ذلك الأمر عجبا من حيث حكاية التحرك « بالوسائل الخاصة » . وكان سبب الأمر معقولا من ناحية ، ولكن تنفيذه كان شبه مستحيل من الناحية الأخرى . فقد كانت

القوات الانجليزية تسيطر على وسيلة الانتقال الوحيدة عبر القناة وهى « كوبرى الفردان » ، كما أنها كانت تحتل غرب القناة كله (من بور سعيد الى السويس) . ولم يكن من المعقول ابدا أن تسمح القوات الانجليزية بمرور أى وحدة مصرية وهى بكامل تشكيلها واسلحتها ، خصوصا بعد أن كان الانجليز قد راوا من « العين الحمراء » ما أقلقهم وجعلهم يشددون الحراسة على الكوبرى ويحفرون الخنادق فى كل مكان . وكان من المؤكد أنهم سوف يدخلون مع اى وحدة تحاول المرور فى معركة تكون فيها كفتهم هى الراجحة بطبيعة الحال . ومن هنا فانه لم يكن أمام الوحدة من سبيل للوصول الى القاهرة سوى « الوسائل الخاصة » .

ودارت ليلتها بالوحدة دراسات ومناقشات عفاريتية حادة ، كان من بينها « وسائل خاصة ايه يا عالم !.. يعنى نركب تاكسيات لمصر » .. وكان منها « نعمل عرايشية ونعدى بالجمال » ، وكان منها « نلبس طاقية الاخفاء » ، و « نعدى بالقوة ، ويا قاتل يا مقتول » ، أو « ننط فوق القنال هاى جامب (١) » ... وفجأة صرخ عفريت صاغ متسائلا « والعائلات !! العائلات حانعمل فيها ايه ؟؟ ». وساد ساعتها وجوم رهيب .. فقد كان من المصرح به وقتها وجود العائلات بالعريش ، وقل من بين الضباط والصف ضباط من لم يكن قد أحضر عائلته . فاذا حسبنا عدد أفراد تلك العائلات بمعدل زوجة وطفلين فقط لكل عائلة فان العدد الأصلى لأفراد الوحدة يكون قد تضاعف . وذلك بالاضافة الى انه كان المستحيل التفكير فى ترك العائلات بالعريش، سواء من الناحية الانسانية أو الناحية العسكرية. ومع أن الكثير من المتزوجين ، قد أبدوا استعدادهم لترك عائلاتهم بالعريش فان العفاريت العزاب ، والقائد على راسهم ــ وكان عازبا مزمنا ــ قد رفضوا تلك التضحية رفضا باتا ، وكان راى القائد

---

(١) هاى جامب .. يعنى نفز عالى ، والعكس صحيح .

هو أن العائلات سوف تصبح رهائنا في يد الانجليز ، وانهم قد يلعبون عليها بصفتها « كنت رويال (١) » .

المهم هو انه بعد اللتيا والتي تم العثور على «الوسائل الخاصة». ورسم القائد الخطة ، وجرى توزيع الأدوار على العفاريت . وفي ثوان صارت الوحدة كخلية النحل .. فتحطم باب مخزن الذخيرة تحت ركلة قدم هائلة ، وشحنت الذخائر والتعيينات والمهمات في اللواري ، وراحت حبال التنظيف تجرى صعودا وهبوطا في مواسير البنادق والرشاشات . وطار عـدد من العربات التي العريش حيث جرت كربسة الاثاث في الظلام الدامس (٢) . الأمر الذى ترتب عليه دخول بعض برطمانات الزيتون المخلل في حقائب الثياب ، ورص بعض صفائح السمن البلدى المعتبر ــ المفتوحة ــ بالمقلوب فوق المراتب ، ووقوع طفلة جميلةفي يد زوجة أحد العفاريت .. فاستولت عليها وهي تحسب انها طفلتها ، بينما كانت الأخيرة مستمتعة بالنوم العميق في حضن جندى حنون ... ولم يتم تبادل الاسيرتين الا في الصـباح .

وقبل الفجر بساعتيناستيقظ ناظر محطة العريش على أيد تهزه في خشونة ، وعلى ثلاثة مدافع رشاشة وهي مصوبة الى صدره، فصرخ « الخزنة فاضية ، والله العظيم ما فيها ولا ميلم » ، فأجابه عفريت ملازم « احنا ماتلزمناش خزنة » فهتف الرجل ــ وقد تبين علامات الرتبة والرداء العسكرى ــ « أى خدمة يا بيه ؟ » فأجابه البيه « حاجة بسيطة ، يلزمنا قطرين بضاعة وقطرين ركاب » فسايره الرجل في تفكه « بس .. ؟؟ » ، فأجاب العفريت « اذا كمان تحط قطـر عليهم يبقى كترخيرك » . فراى الرجل ان « شر البليـة ما يضحك » ، فراح يقهقه وقد حسب ان ذوى الرشاشات من خريجى

---

(١) في ظل قانون منع القمار ، فان تفسير هذه العبارة قد تكون مؤذيا ..

(٢) كانت محطة الكهرباء في العريش تتوقف عن العمل بعد العاشرة مساء .

« السراية الصفراء » . ولكن العفريت الملازم راح يشرح له الموضوع ويناشد وطنيته ويطلب منه المبادرة باعداد القطارات ، فصاح الرجل « الوطنية موجودة يا خويا . . انما أنا ما عنديش أوامر » ، فراح العفريت يفهمه استحالة وصول الاوامر اليه عبر الاسلاك التى تمر فى خطوط الانجليز . وأسلم الرجل أمره الى الله واستدعى معاونيه واستطاع أن يدبر القطارات المطلوبة ، وان كان الأمر قد احتاج لتعمير بعض الرشاشات ــ وأحيانا لتركيب السونكى على البندقية ــ لاقناع بعض الموظفين بـ « اتلحلح يا أخينا » . وتم شحن القطارات بطريقة عفاريتية بحتة . . فقد كان المراتب والألحفة تغطى المدافع المعمرة ، كما نزعت بعض عجلات السيارات المركبة على عربات السطح ، لكى تبدوا وكأنها مرسلة للصيانة ، واحيطت الحمالات (عربات ذات جنزير) بالدواليب من كل جانب ــ وكان من بينها أكثر من دولاب من خشب القرو المعتبر . . لزوم بعض العائلات التى كان قد تم تركيبها للتو على يد المأذون ــ .

ومن نوافذ قطارات الركاب كانت تطل وجوه الزوجات والبنات والأبناء ، ومن خلفهم كانت الطبنجات والبنادق والرشاشات على تمام الاستعداد للانطلاق .

ومن العريش الى ما قبل كوبرى الفردان مرت الرحلة على خير . وحين رفض بعض نظار المحطات أن يصدقوا تفسيرات العفاريت للرحلة ، وراحوا يحاولون الاتصال بادارة السكك الحديدية لاستئذانها ولاخطارها بالرحلة ، كانوا لا يجدون مجيبا سوى الصمت ، لأن العفاريت كانوا قد قطعوا الأسلاك قبل الفجر . أما الذين « تلامضوا » من هؤلاء النظار فانهم أودعوا فى المخازن وتم تسمير الأبواب عليهم .

وعلى كوبرى الفردان مرت القطارات بين الانجليز بسلام . فأى جنتلمان هذا الذى يرتاب فى قطارات تطل منها السيدات والأطفال

بالمئات ، وتنطلق منها الزغاريد الحلوة ... بل ان القطار الثانى بالذات كان يضج بدوى الطبول الراقصة والأغانى الفولكلورية ، التى كانت تغرى قطر الندى بالحنة وتؤكد لها أن شباك حبيبها خير جلاب للهوى ، بينما كان ذلك الحبيب مشغولا فى تلك اللحظة بتصويب سلاحه من بين فتحات شباك القطار ...

وحين سأل شاويش انجليزى اريب احد الكمسارية ــ وكان فى حقيقته يوزباشيا ذا شوارب ضخمة ــ « وات اذ ذا ماتر » (ايه الحكاية ؟) ، اجابه « ودنج » (فرح) ، فانفرج فم الشاويش عن ابتسامة عريضة . ومن المؤكد أن ذلك الشاويش قد دفع بعد ذلك شرائطه الثلاثة .. ثمنا لذلك « الودنج » ...

وفى محطات الاسماعيلية والزقازيق لطم النظار والمعاونون خدودهم وهم يرون القطارات العفاريتية وهى تدخل عليهم بغير « أحم ولا دستور » ، وراحوا يرفعون ويخفضون السيمافورات فى محاولات جنونية لايقاف القطارات القادمة من القاهرة وبور سعيد . ويشهد الكاتب لهؤلاء النظار والمعاونين بانهم كانوا عفاريتا على اعلى مستوى سكك حديدى ، وانهم استطاعوا تدبير الامر بحيث لم يقع اى حادث ، سوى حادث اختطاف ركاب قطار مقابل لساندوتش كان فى يد عروسة واحد من العفاريت ، وكان تعليق العفريت هو « الحمد لله اللى خطفوا الساندوتش بس !!!! »

وفى القاهرة نزل العفاريت بكامل أسلحتهم واستقبلهم اركانات الحرب بالأحضان ، وكان وجود تلك الوحدة (وغيرها من الوحدات التى تدفقت على القاهرة من داخل القطر) خير حافز للانجليز على التحول من العند والمكابرة الى المجادلة بالتى هى احسن . وهى مجادلة انتهت بالجلاء كما يعلم الجميع .

عرقسوس العفاريت



فى الفترة من مايـــو ١٩٥٣ الى أغسطس عام ١٩٥٤ عاش العفاريت فى حالة الاستعداد القصوى . فقد كانت تلك هى الفترة التى صممت فيهـا مصر على كسر الاحتـلال البريطـانى مهمـا كان الثمن .

ومن هنا دار الحشد والاستعداد للقتـال ، وراحت القوات تتوزع على مشـارف منطقة القتـال . ومن الجـانب الآخـر فان بنى جونبول راحوا يستعدون بدورهم للتمسك بمواقعهم وللهجوم على وادى النيل « أف بوسيبل » (ان أمكن) . ولكن العمل الفدائى المستبســل والمســتمر راح يؤدى دوره التـاريخى فى ازعـاج وارعاب المحتلين ، وفى توفير اكبر قـدر ممكن من الاســهال لدى جنودهم الاشاوس .

ويطول بنا الحديث لو اردنا ان نؤرخ لأحداث تلك الفترة . التى انتهت كما يعرف الجميع باتفاقية الجلاء فى اغسطس ١٩٥٤ ، ثم انتهت بالجلاء ذاته فى يونيو سنة ١٩٥٦ .

ولقد اخذت البطولات فى تلك الفترة المجيدة حقها من الاعلام ومن التقدير وتبقى الطرائف لتاخذ مكانها هنا ، **ونختار منها طريفة أولى .**

فحول مطار القاهرة الدولى كانت تتمركز قوة ، كان واجبها هو حماية المطار من هجوم الانجليز . ومع تعدد تحديات وضربات الفدائيين للانجليز بما يثير صدر احلم بولدوج ، فان الانجليز رأوا ان يكتفوا بالتشبث بمنطقة القنال الى ان يقضى الله امرا كان مفعولا .

وراح العفريت قائد قوة الدفاع عن المطار (الذى كان القتال هو هوايته الوحيدة ، وكان العرقسوس هو مشروبه المفضل) يتم اختيار المواقع المناسبة لقوته ويرسم أقواس النيران اللازمة . ثم راح يحسن خططه ومواقعه يوما بعد يوم ويزيد من عدد الخنادق ومن عمقها حتى بلغ الغاية .

وذات صباح مشرق ، وبعد ان تلقى احدث المعلومات (التى كانت تستبعد احتمالات اى هجوم انجليزى فى ذلك اليوم على المطار) وبعد المرور على المواقع وتوزيع علبة سجائر كاملة على الجنود العفاريت ـ كان العفريت لا يدخن ، ومع ذلك فان جيبه كان لا يخلو من السجائر « الهلب » ـ ، بعد كل ذلك جمع عفاريته اليوزباشية والملازمين ودخل بهم فى ماتش (كرة طائرة) .

وبينما كان الماتش على أشده ، وبعد أن أصيب العفريت فى انفه بضربة عفوية من ذراع ملازم (١) ، اذ بالمدافع المضادة للطائرات تنطلق

(١) بعد اكثر من عشر سنوات اعترف العفريت اللازم بأن الضربة كانت متعمدة .. ردا على حرمان العفريت القائد اياه من بضع ساعات كان يزمع ان يؤدى فيها بعض طقوس « ساعة لقلبك » .

فى نفس واحد وتشعل سماء المطـار بالنيران المتتابعة . وانفضت المبارة على الفور وانضم العفاريت للمواقع . وراحت القذائف تتابع طائرة انجليزية مقاتلة ، كانت تستدير هاربة فى اتجـاه الشرق والدخان يتصاعد منها ، ثم تختفى وراء الأفق . وكان من الواضح انها طائرة استكشاف . ولكن الذى أدهش العفاريت كان هو وصولها الى المطار بغير أن تحس بها أجهزة اكتشاف الصوت . على أن التفسير كان بسيطا ، وهو ان قائد الطائرة كان قد أوقف موتورها على ارتفاع عال ووصل الى المطار بطريقة الانزلاق . وهناك دخل بين طائرتى ركاب كانتا على وشك الهبوط . وبقى بعد ذلك سؤال هام عن سبب سرعة ضبط مواقع المدافع المضادة له وهو متلبس ثم فى اطـلاق نيرانها عليه بسرعة تسببت فى اصابته وفى مبادرته بالهرب قبل أن يتم مهمته ، وهى سرعة لا بد انها أدهشت الطيار بمثل ما أدهشت العفاريت .

وجاء التفسير متأخرا قليلا . فمع أن الطائرة الانجليزية كانت قد انصرفت بخيبتها ومع أن احدى طائرتى الركاب انتفضت كالطير المذعور وعادت الى أوربا راسا ، بينما هبطت الثانية الى المطار فى عجلة كادت أن تنتهى بها الى اقتحام برج المراقبة ، فان المدافع المضادة ظلت على صخبها وضجيجها ، كمـا لحقت بهـا المدافع الرشاشة وراحت تشق السماء برصاصها ، بينما اندمج العفاريت فى نشوة القتال وراحوا يوجهون النيران الى اتجاهين لا ثالث لهما . وكان كل من الاتجاهين يشتمل على بالون مهيب ، كان يتعلق به جسم متأرجح . ومن خط التليفون المتصل ببرج المطار جاءت صيحات ضباط المراقبة « انتوا بتضربوا على ايه تانى يا عالم ؟ » . فأجاب جندى الاشارة « بنضرب على مظلات . . . ده هجوم انجليزى » فكان الرد « هجوم ايه يا سعادة القائد (وانتفش الجندى ساعتها من فرط الزهو) دى بالونات الأرصاد بتاعتنا » . . ومع أن العفريت (جندى الاشارة) لم يدرك لتلك العبارة من معنى فانه جرى ونقلهـا الى

العفريت القائد بأمانة . وضحك الاخير وأمر بايقاف النيران . فقد كان يعرف أن برج المراقبة يطلق من آن لآخر بالونات مزودة بأجهزة خاصة بالارصاد الجوية . وقد شاء سوء حظ الطيار الانجليزى أن يدخل به فى سماء المطار فى الوقت التى كانت فيه البالونات تؤدى عملها . وليس يفوتنا هنا أن نقـرر أن البالونات قد تفرقعت بفعل القذائف وخسر برج المراقبة يومها أفضل ما كان لديه من الأجهزة .

اما الطريقة الثانية فكانت « آخر عرقسوس !!.. »

فكما قلنا ، كان الفراغ من الكثرة بحيث أتاح للقائد أن يعمق الخنادق . وكان الخندق الذى يقيم فيـه (واسـمه الفنى هو « الملجأ ») على رأس القائمة . وبناء عليه فقد راح عمق الملجأ يتزايد من ٦ أقدام الى ١٠ أقدام الى ١٦ قدم (أكثر من أربعـة امتار) ، وأخيرا توقف العمق عند أرض صخرية صلبة . وبذلك صار الملجأ المربع كهفا نموذجيا من كهوف العفاريت . وتحت سقف مكون من الزوايا الحديدية المتشابكة (والمدرعة بأكياس الرمل) كان العفريت يقضى أكثر من مأرب . فيراجع اليوميات ويعيد رسم وتخطيط مواقعه ويكتب التقارير اليومية ثم يتناول « راجعـة التعيينات » ويقرأها بحرص (حذرا من كلفتة البلوكامين لها) وأخيرا فانه كان يتمم على كنزه الثمين . . . وكان ذلك الكنز مكونا من خمس غرارات من السكر « السنترفيش » ومن ثلاث كرتونات للشاى . وكان التحفظ على السكر والشاى فى الملجأ ضرورة وقائية لم يكن منها بد ، بعـد أن تعرضا ــ حيث كانا من قبل فى خندق مكشوف ــ للاختلاط بالرمال الناعمة من ناحية ولبعض الأيدى الخفيفة من ناحية أخرى . ثم كان العفريت بعد ذلك يدخل فى نوم عميق جدا ، لأنه كان ــ حقيقة ــ يجهد نفسه تماما فى أداء واجبه . وذات ليلة شتائية نام العفريت ، ثم فوجىء بنفسـه وهو يحلم . وراح ــ وهو فى عز النوم ــ يندهش لهذه الظاهرة . فقد كان ينام فى العادة بغير أحلام تذكر . وبالمناسبة

فان عفريتنا هـذا لم يكن من أنصـار الفنـون والخيـالات وكان لا يستسيغ من فنون اللغة سوى السجعة القائلة « عن ابن فرناس المياس انه قال أيها الناس .. أحسن النوبات ثلاث .. رجوع ونوم واستحضار الثلاثة أمياس » وهى سجعة لا يفهمها غير الراسخين فى علم « اليمك » .

المهم هو انه وجد نفسه مستغرقا فى حلم عجيب . فقد كان يحلم بأنه يسبح فى حوض ستانلى ، ومن حوله كانت تسبح حوريات من كل نوع . . . فهذه قطقوطة طليانية ، وتلك حسناء جرمانية ، وهاتيك لثغاء فرنسية ، وهاتين من لطائف بناء اسكندرية اللواتى « مشيهم على البحر غية » .

وفى الفصل الثانى من ذلك الحلم الفردوسى شرق العفريت ببعض ماء البحر فوقف شعر رأسه عجبا !!.. لأن ذلك الماء لم يكن أزرقا ومالحا كما خلقه الله وانما هو كان فى نفس لون العرقسوس كما كان قريبا من طعمه. ولم يتردد العفريت فى انتهاز تلك الفرصة الاستانلى عرقسوسية ، فراح يعب من ماء البحر اللذيذ ويطارد المايوهات اللاهية من حوله ، بما كانت تحتوى عليه من الحوريات . ولكنه شرق مرة ثانية وثالثة بالدرجة التى شعر معها بخطر الغرق .

وكما يحدث لى ولك فى مثل هذا الموقف الكابوسى بادر العفريت بالاستيقاظ وفتح عينه . وساعتها تعالت صرخاته «الحقونى . . » . ولم يلحقه أحد فعاد يصرخ بأعلى صوته « الحقونى . . . . الحقونى . . . حا اغرق » . وجاءته النجدة على يد ثلاثة من العفاريت . . . وصلوا على صرخاته وانقذوه من الموت باسفكسيا الغرق !!!

أما كيف كاد العفريت يغرق وهو فى قلب الصحراء !! فان ذلك يرجع الى عاملين . العامل الأول كان هو السيول التى انقضت على المواقع ليلتها (وتسببت فى اتلاف عدد ممرات المطار) والعامل الثانى كان هو صلابة جدران وأرضية الملجأ . وكانت النتيجة هى أن ميـاه

السيول قد غافلت العفريت وتسربت الى الملجأ ، حيث احتجزتها الأرضية والجدران الصلبة . وكان السيل من اكرم بحيث راح يدفع بالمزيد من المياه المثلجة ، حتى بلغ ارتفاعها فى الملجأ اكثر من ثلاثة امتار . وتحت وطأة الميـاه راح السـكر يذوب من الغرارات وراح الشـاى يتسرب من الكرتونات وراحت الأمـلاح تتحلل من على الجدران .

وعندما غطت الميـاه سرير العفريت (السفرى) بادرت ملائكة الاحلام بنجدته فهيأت له أنه يسبح فى حوض ستانلى ووفرت له كل اللوازم من الحوريات والمايوهات و ـ على حد تعبيره ـ « الحتبتكات » . وكانت النتيجة هى انه راح يسبح تلقائيا ويتخبط بين الجدران وهو يحسبها من نواهد الغيد . وفى خلال السباحة كان ذراعاه يقومان بتقليب نقيع « الشاى والسـكر والأملاح » حتى أصبح ذا طعم خلاسى تختلط فيه الحلاوة بالمرارة . وبادر مزاج العفريت فترجم ذلك الطعم على أنه عرقسوس مفتخر . ولذا فانه راح يعب منه حتى شرق . ولولا انه استيقظ فورا لفقد باعة العرقسوس خير زبون لديهم .

ولو رايته وهو يتشمبط فى ايدى زملائه ليلتها ، لرايت ثم رايت ضفدعا عفاريتيا ملبد الشعر ذا أوفرول معسـل الطعم واللون ، ونسمعت العفريت اللازم وهو يجففه ببشكير كاكى وهو يترنم ويقول « يا عرقسوس شفا وخمير ، يا للى اللمون منك يغير ... »

وعلى شاطىء النجاة راح العفريت ينتفض كأرق عصفور بلله القطر ، ويتدثر بما جاد عليه به اخوانه من غيارات ، ثم يتجه الى ملجأ قائده الثانى . وهناك تلفف بعدد ضخم من البطاطين ، وراح يعالج النوم . وفى اللحظة التى كاد فيها أن يعود الى بلاج ستانلى اندلعت فى ذراعه لهاليب من النيران .. ومن بعـدها احس بأن

ثعبانا (طرز أبو طريشة) قد لدغ بطنه ثم تلت ذلك طعنة صائبة فى فخذه بسيخ محمى .

وكان مصدر تلك الحملة الجهنمية هو البراغيث التى كانت تتخذ من البطاطين محلا مختارا (وتلك ظاهرة لا تخلوا منها حياة الخنادق) . وطار النوم من عينى العفريت وراح يهرش جسده فى يأس . وكانت الموجة البراغيثية الأولى تنشب انيابها فى لحمه ، ثم تعاود العض والنهش فى لجاجة ، بينما كانت الموجة الثانية تتجمع وتشحذ أنيابها ، ثم تتدافع وتحاول أن تشق طريقها الى ذلك اللحم المعسل .

وطلع الفجر على العفريت وهو فى صراع غير متكافىء مع البراغيث اللادغة ومع البرد اللاذع . حتى لقد أقسم بعدها ألا يتغطى ببطانية او يقرب العرقسوس .

وبعد ، فلسوف تعجب زوجة العفريت وبناته عندما يرينه ينتفض وهو يقرأ هذه الصفحات . . فهو ما يزال منذ تلك الليلة الليلاء تعروه هزة ، كلما عاودته الذكرى أو التقى ببائع العرقسوس .

يوم السكون

عندما يعود الانسان من سفر بعيد ، فان أهله يتوقعون منه أن يتحفهم بهدايا جميلة أو بصور تذكارية أو ببعض الأفكار المفيدة الجديدة . أما أن يخرج لهم من حقيبته ثعبانا ساما، ثم يحاول اقناعهم بأن ذلك الثعبان مفيد للصحة ومزيل للكحة ، فان أقل ما يستحقه منهم هو أن ينبذوه نبذ النواة . وذلك هو ماحدث لعفريت شملول ..

فقد خرجت من مصر ــ فى أوائل الخمسينيات ــ بعثة من العفاريت، وزارت عددا من الجيوش الأجنبية ، ثم عادت بسلامة الله ، وفى جعبة كل عفريت منها عدد من الهدايا التكتيكية والاستراتيجية عدا الهدايا الخاصة بالزوجة أو الخطيبة أو الحبيبة ، وتلك هدايا حساسة للغاية . فواحد عاد بعينة من مسحوق يقى الأسلحة من الصدأ ، وآخر جاء بتصميم دقيق لسلاح جديد ، وثالث قدم دراسة رائعة عن نظرية ماكندر (١) ، ورابع عرض عددا من الأفكار التكتيكية الرائعة ، أما خامسهم فانه بسط ذراعيه بالوصيد ثم اقترح « يوم السكون » .

---

(١) هى نظرية جيوبوليتيكية معقدة .. ليس هنا مكانها .

ولسوء حظ القوات المسلحة فان ذلك العفريت الخامس كان شملولا بكل معنى الكلمه . ولما كانت ذلاقة اللسان واحدة من الزم صفات الشماليل فان ذلك العفربت استطاع ان يستخدم تلكالموهبة فى اقناع المختصين بالاخذ باقتراحه « المفطرن » . وفعلا صدرت الأوامر والتعليمات بيوم « السكون » وكان هو يوم الاثنين من كل كل اسبوع .

وكان ملخص الفكرة هو أن الجيش الأمريكى يفرض راحة تامة لكل عرباته فى يوم معين من أيام الأسبوع . وفى هذا اليوم يتحتم على جميع الرتب أن تصل الى المعسكرات بوسائلها الخاصة . وبذلك تكسب الوحدات وفرا فى الوقود وراحة للعربات واطالة لمدة خدمتها .

وللوهلة الأولى فان الفكرة تبدو رائعة ومفيدة ، كما انها ايضا محرجة . فمن ذا الذى يجرؤ على رفض توفير الوقود أو على عرقلة صيانة العربات واطالة عمرها ؟؟!.

وهوى يوم السكون على العفاريت كالصاعقة .. فكيف ـ وجميع المعسكرات تقع فى عمق الصحراء ـ يمكن لهم الوصول الى الوحدات بدون العربات « الميرى » ؟ .. نعم قد يكون هذا الكلام معقولا أو ممكنا فى اليونايتد ستيتس اوف أمريكا .. حيث يقبض العسكرى والضابط رزما متلتلة من الدولارات تتيح له ان يحصل على الفيلا والسيارة والسويت هارت (حبيبة الفؤاد) ، ثم هو بعد ذلك يطرقع باللبان فى عز الطابور ، أما يوم السكون فانه لا يكبده أكثر من بنزين بخس لترات معدودات . أما فى مصر ، فالقارىء كله نظر ، والكل عارف البير وغطاه . ولنتصور حال العفاريت (جنودا وضباطا) من سكان الجيزة وشبرا ودار السلام وباب الشعرية والسكاكينى ، وهم يخرجون مع اذان الفجر فى ذلك اليوم الرهيب ويتشعبطون على سلالم الاوتوبيس والترام ، ويتكربسون فى المترو .. حيث لا مكان لهم فى حساب شركات الترام والأوتوبيس ؛

التى كانت بالكاد لا تستطيع أن توفر للمدنيين أكثر من نصف الطاقة النقلية اللازمة لهم . فما بالك اذا انضم عشرات الألوف من العفاريت الى الهاجمين على الأوتوبيسات والتراموايات ودخلوا معهم فى معمعة الصراع للحصول على موطىء قدم .

لقد كانت أياما رهيبة فعلا .. أيام السكون هذه . كما انها كانت ابعد ما يمكن عن اسمها . وكان يوم السكون — فى الواقع — هو يوم الصخب والضجيج وتطبيق الضلوع وهرس الاقدام . وكان العفاريت يصلون الى المعسكرات وقد فقد كل منهم ٢٣ برجا عقليا ، ثم كان عليه ان يعمل بالبرج الباقى فى المعسكر ، وان يحاول أن يعود بعد ذلك الى بيته ولو بجزء من ذلك البرج اليتيم . وتكون النتيجة هى أن يعود الى بيته وقد أصبح مالكا شرعيا لأربعة وعشرين برجا من ابراج السراية الصفراء . وكم من عفريت كان يؤثر ان يقبل الزوجة والاولاد صباح الأحد ، ثم يقضى يومى الأحد والاثنين فى المعسكر ، وهو يدعو هناك على الشملول اياه ، ثم يعود يوم الثلاثاء بالعربة (الميرى) وقد أضناه ذلك الحبس الاختيارى .

وبديهى أن وقائع أيام السكون هذه قد تراوحت بين المتاعب المقبولة وبين الكوارث غير المعقولة ، ولكن القاسم المشترك بينها كان هو الطرافة . اما عن توفير الوقود وراحة العربات ف « قول يا باسط » .. لأن كل المشاوير التى كان يوم السكون يوفرها كانت تتوزع بغير عدل ولا قسطاس على يومى الأحد والثلاثاء ، وذلك بمعنى أنها كانت تجىء « مضروبة × ٢ » . وكان ذلك من العفاريت قصداً مقصودا ، على سبيل انجاز العمل من ناحية ، ثم على سبيل اقناع القيادات بأن يوم السكون وان صلح فى « أميريكا » فانه لا مكان له فى وادى النيل .

ونركز الكاميرا هنا على شارع معين فى مصر الجديدة ، حيث نشاهد عفريتا برتبة اللواء وهو يعيش موقفا من اطرف مواقف ذلك اليوم الأغبر . فقد كان ذلك اللواء يحب جنوده وضباطه ويؤثرهم

على نفسه وكانوا هم يبادلونه نفس الشعور . ومع أن قادة اللواءات فما فوق كانوا مستثنين من قيود يوم السكون ، فانه آثر أن يشارك عفاريته فى متاعب ذلك اليوم . ولذا فانه كان لا يستخدم عربته الأميرية وانما هو كان يخرج بعربته الخاصة ثم يدور على شوارع مصر الجديدة ويشحن العربة بما تيسر من العفاريت ثم يوصلهم واحدا فواحدا الى وحداتهم . وذات صباح نزل من بيته وراح يدير موتور العربة . ولكن الموتور عصلج معه وآثر أن يتضامن مع زملاءه من المواتير السكونية .. فلم يتردد العفريت فى معاملته بالتى هى أغلظ فعاد الى البيت واستبدل بدلته الرسمية بالأوفرول . ثم تسلح بالمفاتيح والمفكات وانهال بها على الموتور تفكيكا وتصليحا . ولم يجد الموتور بدا مما ليس منه بد فدار وقعقع واطلق فى وجه العفريت دخانا كثيفا . فجمع العفريت عدته وعتاده واتجه نحو باب البيت . ولكن صوتا آمرا استوقفه « انت يا أسطى » . فدار العفريت بعينيه فى الشارع فوجد انه الوحيد الذى تنطبق عليه صفة الأسطى ، فسأل صاحب النداء « انت بتنده لى ؟ » ، فأجابه هذا « أمال يعنى باكلم نفسى !! تعال استفتح وصلح لى العربية » . ولما كان العفريت رجلا كريما ومعوانا كما أنه كان يؤمن بالفأل فانه دخل بمفكاته على العربة وكانت من طراز قد أكل الدهر وشرب . وكان موتورها فى أغلب الظنون هو نفس موتور عربة توت عنخ آمون ، ولذا فان كفاح العفريت مع ذلك الموتور الأثرى قد ذهب عبثا . وادهى من ذلك أن الموتور كان — عندما تسلمه العفريت — يدور دورانا متقطعا ويطلق بعض المدافع ، أما بعد ان تعرض لبضع خبطات من المفاتيح والشواكيش فانه أسلم الروح وفقد نسيم الحياة وعاد الى معدنه حديدا جلمدا .

وذهبت تلك النكبة بصواب صاحب العربة فهجم على العفريت وامسكه من خناقه واقسم الا يتركه الا فى « الكركون » .

ولسوء حظ العفريت فان ابنه — الذى كان عفريتا ملازما وبطلا

من ابطال الملاكمة ـ كان نوبتجيا بوحدته ؛ ولذا فانه وجد نفسه مضطرا الى الدفاع عن نفسه بامكانياته الخاصة فناول صاحب الموتور ضربة انذاريه بالمفتاح الانجليزى . ومع انه كان قد وجه المفتاح نحو قبضة الصاحب ـ التى كانت قد تشنجت على ياقة الأوفرول ـ فان المفتاح خرج عن مساره المرسوم ونزل على نافوخ الصاحب فانطرح المسكين على الأرض ، وكاد أن يلحق بموتوره فى العالم الآخر ، بغير أن تتاح له فرصة النطق بالشهادتين ، ومن تحت شعره الكثيف راح الدم يتدفق كما لو كان خارجا من « نبع الصفصاف » .

ولما كان كل ما فعله العفريت ـ من وجهة نظره ـ هو مجرد الدفاع الشرعى عن النفس فانه اتجه الى البيت ، على عزم أن يطلب للرجل الاسعاف ، ثم يتجه هو بعربته لاسعاف عفاريته من متاعب يوم السكون .

ولكن « تيجى المصايب من الحبايب » ، فقد دوت صرخة بناتية عاليه « قتيل » . وكانت صاحبة الصرخة هى ابنته ، التى كانت قد شاهدت عملية هبوط المفتاح على النافوخ ، فرات أن تساهم فى حفظ الأمن وأطلقت صرختها العالية ، بغير أن تدرى بأن صاحب المفتاح كان هو والدها .

وعلى صوت الصرخة ظهر البواب وثلاثة من جنود الجيش . ولولا أن البواب كان أسبق الجميع الى العفريت لحدث ما لا تحمد عقباه .. فقد كانت فى يد واحد من الجنود عصا غليظة ، ومن المؤكد انه كان سيستخدمها فى التعبير عن رأيه فى ذلك الميكانيكى الفوضوى الذى يستخدم المفتاح الانجليزى فى غير موضعه .

المهم ، هو أن البواب بادر بالهتاف « سعادة اللوا .. سعادة اللوا .. » فوقف الشارع على رجل (بكسر الراء) ، ودارت التعظيمات للعفريت ونسى الجميع صريع المفتاح . ولكن ابنة

العفريت نزلت ومعها القطن والشاش وزجاجة صبغة اليود وراحت تضمد جراح الصريع . وكان تركيز صبغة اليود شديدا فراح الصريع يصرخ من لهاليبها ، ويهدد باستدعاء النيابه والبوليس المحلى والبوليس الدولى ان لزم الأمر . وقامت الابنة بدور ملاك الصلح بين الطرفين . وعندما تعرف صريع المفتاح على حيثية العفريت تغيرت نغمته وراح يعتذر عن غلطته حين حسب العفريت ميكانيكيا عاطلا . .
وكانت المفاجاة هى أنه راح يسب « يوم السكون » ويقرر أنه هو المسئول عن كل ما حدث . وظهر عندئذ أن الرجل مهندس مدنى وانه يعمل فى المصنع الحربى (١) بهاكستب ، وانه كان بدوره ضحية من ضحايا ذلك اليوم المقيت . وقد صحبه العفريت يومئذ فى عربته . ومن يومها أصبح الاثنان صديقان حميمان و « ما محبة الا بعد عداوة » .

وننتقل بالكاميرا الى منظر آخر كان على طريق الهاكستب ، فنرى « فسبا » كانت تخص شقيق أحد العفاريت . وكانت الفسبا تجرى على الطريق وهى محملة بأربعة من العفاريت بملابسهم الرسمية . وكان واحد منهم يقودها واثنان يركبان على المقعد الخلفى ورابع يجلس فى عظمة على الجيدون . وكان الجميع يغنون « على بلد المحبوب ودينى » ؛ وبين كل كوبليه وآخر كان واحد منهم يصرخ « زاد وجدى والتاكسى كاوينى » . .

وكان ركاب أوتوبيسات شركات الطيران يطلون من النوافذ ويهللون اعجابا بتلك الفسبا العفاريتية وبالنجوم التى كانت تتلألأ من فوقها . وفجأة دوت فرملة شديدة بجوار الفسبا وصاح صوت آمر « وقف عندك يا حضرة اليوزباشى » . ولم يبال قائد الفسبا بذلك النداء ، ولكن عفريت الجيدون صرخ فى جزع

(١) كانت زوجة العفريت المهندس (مدير هذا المصنع) سيدة يوغوسلافية عظيمة واليها يرجع الفضل فى اقامة مدينة سكنية رائعة (قرب المصنع) للموظفين والعمال .

«رحنا بلاش» . فضرب قائد الفسبا فرملة طوارىء ، فانقذف راكب الجيدون لمسافة مترين ، ولكنه استعدل نفسه وهو فى الهواء فنزل على قدميه عفريتا سويا . أما راكبا المقعد الخلفى فبادرا بضرب أقدامهما فى الأرض ، فحالا بين الفسبا وبين الانقلاب ، ولكنهما فقدا فى الوقت نفسه نعال احذيتهما ، التى تآكلت بفعل الاحتكاك بالأسفلت .

وصاح صاحب الصوت فى دهشة واستنكار « انتوا يا فلان اتجننتوا !! العساكر يقولوا ايه ؟ .. يقولوا الضباط بيشتغلوا فى سيرك الحلو ؟؟؟ » . وبكل بساطة ضرب العفريت اليوزباشى تعظيما ــ وهو ما يزال متشبثا بمقعده فوق الفسبا ــ وقال « يوم السكون يا فندم .. » ، وفى صوت واحد قال عفريتا المقعد الخلفى « اصرفوا لنا بسكليتات (١) » . ولم يتمالك صاحب الصوت ــ وكان قائدا كبيرا جدا ، وكان انسانا عطارديا أيضا ــ نفسه ، فضحك ودعا عفريت الجيدون وزميليه الى عربته . وفى الطريق حكى له الثلاثة من مآسى يوم السكون ما أقنعه بأن ذلك اليوم سوف « يبغبغ اللخبطان » فى كل الوحدات .

ومن بعدها صدر الأمر باعدام يوم السكون ، فمضى غير مأسوف عليه . أما الشملول اياه فقد « أخذها من قصيرها » وطلب نقله الى محطة بعيدة ، وظل هناك حتى أخذه المعاش أخذ عزيز مقتدر ، وما ربك بظلام للعبيد .

---

(١) يؤكد عفريت ــ حضر اكثر من فرقة بانجلترا ــ ان اللواءات هناك يدخلون الى مقار قياداتهم ووحداتهم بالبسكليتات .

العفريت والمرسيدس

اذا كان فى اسرتك ضابط برتبة ملازم أو نقيب فانت انسان قد كشف عنه الحجاب .. لأنك تكون قد رأيت العفريت المصور وكيف يكون . واشهد انى ما رايت ضابطا من صنف الملازم أو النقيب الا ورايت فيه شمهورش بذاته . وليس يعنى ذلك ان الملازم أو النقيب يحتكران صفة العفرتة ، فهى صفة مشتركة بين كل الرتب ، ولكن مقاديرها تختلف من رتبة لأخرى . فالرائد مثلا يكون قد عبر فترة الامتياز وصار عفريتا قياديا ، والمقدم يكون عفريتا رزينا ، والعقيد يكون عفريتا أزرق الأنياب ، والعميد يكون قد دخل فى مرتبة الجن الاحمر ، أما رتبة اللواء فما فوقها فهى رتبة ملوك الجان العليا .. والعفاريت مقامات ..

ولست فى حاجة للتدليل على تلك الحقائق العفاريتية فقد ظهرت فى ٦ أكتوبر واستطاعت ان تحيل الضفة الشرقية ومشارف السويس والاسماعيلية الى معرض تاريخى للغنائم .

ودعك من ١٩٦٧ التى طعنت (بقرار الانسحاب الخاطىء) عفاريتنا هؤلاء فى ظهورهم . ودعك من ثغرة الدفرسوار الصبيانية التى اغرتها حماقة شارونية ليس أدل على خيبتها من انسحاب بنى اسرائيل منها وهم يحمدون الله على السلامة .

ولنعد الآن الى حديث العفاريت ، الذى سوف نقصره الآن على العفاريت الشابة ، تاركين الحديث عن الأصناف العفاريتية الاخرى الى فرص أخرى .

ولما كانت قصص هؤلاء العفاريت فى ٦ أكتوبر وما بعده قدأخذت ـ وما زالت تأخذ ـ حقها من الاعلام والتقدير ، فان الكاتب يشعر بأنه من حق هؤلاء العفاريت أن نسجل لهم عفرتاتهم السابقة على ذلك التاريخ ، لأن عفرتات ٦ أكتوبر لم تظهر تلقائيا وانما هى حصيلة رصيد ضخم من أيام التركيب والتدريب العفاريتى الشاق .

وعن يوم من تلك الأيام نقول : كان يا ما كان .. فى ليلة دامسة الظلام من ليالى التدريب وعلى طريق السويس بالذات .. كان الملازم ص يربض مع جنوده فوق تبة عالية تتحكم فى الطريق .. وكان ثغره يفتر عن ابتسامة شيطانية عريضة ، وكان ـ كلما تخيل ما سوف يحدث بعد قليل ـ يقهقه قهقهة مكتومة .. وكانت قهقهته تسرى بدورها الى جنوده فتتجاوب جوانب التبة بنفس الدرجة من البهجة والخفوت فتصبح كلها قهقهة واحدة مسموعة .. وعندئذ كان ص يزغد أقرب جندى اليه ليسكت ، فتبدأ عندئذ دورة زغد عسكرية يسود بعدها صمت رهيب .

وكان الذى سوف يحدث هو وقوع وحدة عسكرية بأكملها غنيمة فى يديه .. فقد كانت تلك الوحدة تقوم بمناورة هجومية هدفها هو الاستيلاء على السويس .. وكان قائد المناورة يريد لها أن تكون واقعية الى اقصى درجة فاختار لقيادة القوة التى تدافع عن السويس قائدا من أنقى انواع الجن . وقد نثر ذلك القائد بدوره كنانته واختار من بينها شيطانا مجسدا فى شخص الملازم ص . وكان من مكر ذلك القائد الجنى انه كلف ص بواجب اعتراض الوحدة المهاجمة عند تبة تقع فى منتصف الطريق ، ثم أقسم له بالله العظيم ثلاثا انه سوف « يعمله كفتة » ان فشل فى واجبه .

ولما كان ص يعلم علم اليقين أن قائده يحب الكفتة حبا جنونيا كما أن دوره فى الترقى الى رتبة النقيب كان قريبا . أضف الى ذلك أن ص نفسه كان ـ وما يزال ـ ممن يأكلون « اللحمة نية » . فانه انطلق كأى عفريت أصيل لاداء مهمته . وكان أول ما فعله هو السطو ـ السطو بكل معنى الكلمة ـ على مخزن الذخيرة حيث نهب كمية هائلة من قنابل الصوت والدخان وطلقات الاشارة المتعددة الألوان وطلقات الفشنيك ، وهى الذخيرة التى تستخدم فى المناورات بطبيعة الحال .

وفى ظلام الليل تسلل ص وجنوده الى تلك التبة بعد أن قام بكل ما قدره الله عليه من مكر شيطانى (وهو كثير جدا) لتغطية تحركه وخداع الوحدة القادمة واخفاء مواقعه على التبة ومن حولها . وكما قلنا فى البداية ، فان العفرتة لم تكن حكرا على ص بطبيعة الحال . اذ كان قائد الوحدة المهاجمة عفريتا أزرق الانياب . ولذا فانه عمل على تسريب خبر كاذب بأن ساعة الصفر لهجومه سوف تكون هى منتصف الليل بينما قرر أن يكون هجومه فى التاسعة مساء . ومع أن قائد القوة المدافعة قد ابتلع ذلك الطعم فانه لم ينس وهو يبلغ الخبر الى ص أن يشفعه بتهديده السابق بأن يصنع منه كفتة مشوية شيا بطيئا على نار الفحم . وازاء ذلك التهديد رأى ص أن يأخذ بالاحوط فقرر أن يظل فى حالة الاستعداد القصوى طوال الليل . ولتيسير اليقظة المستمرة استحضر كمية مهولة من اللب ووزعها بالعدل والقسطاس على نفسه وعلى جنوده (وان كان قد اتضح بعد ذلك أن القسطاس ـ كان فى شريعة ص ـ هو قرطاس من اللب لكل جندى من جنوده وقرطاس من اللب لكل جيب من جيوبه هو !!) .

وبينما كان ماتش القزقزة يدور بطريقة شبه صامتة اذا باحدى النقط الخلفية تبعث اليه ببلاغ مريب .. « عربة تقترب من اتجاه السويس » .

وفى نفس الوقت جاءه بلاغ من داورية أمامية عن هجوم محتمل من اتجاه القاهرة .. وكان معنى ذلك هو انه يوشك أن يقع بين نارين .. نار العدو ونار الكفتة .. فرأى أن يختار أهونهما وأن يصطدم بالعدو على كل من المحورين و « ربنا على الظالم .. والترقيات بيد الله » . وفى دقائق أعاد توزيع قوته واختار لقيادته موقعا على المحور الجنوبى . وهناك ربض كما يربض الذئب وراح يراقب المواجهة .

ومن بعيد ظهرت العربة « المعادية » ومعها مفاجاة عجيبة .. فقد كانت مضاءة الأنوار كانما كانت تسير على الكورنيش !! وضحك ص ساعتها فى غيظ شديد وقال لنفسه « بقى كده !! طيب والله العظيم لاخليها ليلة كوبيا عليكم .. » ثم امر جنوده بتطويق العربة وصب نيران الجحيم عليها ..

وكان بها .. فما كادت العربة تتوسط كمائنه حتى انهالت عليها كل منهوبات مخزن الذخيرة من الرصاص والقنابل وعبوات الدخان والطلقات المضيئة بكل الألوان ، حتى تحول الطريق الى الى مهرجان أكثر صخبا وبريقا من مهرجانات الموالد . وتحت وطأة النيران زحفت العربة بعد فرملة شديدة ، ثم استقرت أمام ص مباشرة .

وعلى أضواء الصواريخ والنيران رأى ص (ويا هول ما رأى) عربة مرسيدس فاخرة وبداخلها رجل أشيب أنيق وسيدات ثلاث ..

وصرخ ص عندئذ « يا ليلة مهببة !! ايه ده .. وقف النيران يا جدع انت وهوه .. » لكن يقول لمين !! فقد كان جنوده فى حالة نشوة قتالية لم يروا معها سوى أن أمامهم عدوا وأن الأوامر تقضى بتوضيب هذا العدو . ولذا فانهم راحوا يقومون بعملية التوضيب بكل عزم واخلاص .

ومن هنا الى هناك راح ص يجرى ويصيح ليوقف تلك النيران الجهنمية ، ولكن النيران لم تتوقف الا عندما القى بنفسه على المرسيدس وراح يحميها بجسده ..

وعلى ضوء بطارية اليد راح ينظر الى داخل العربة .. ووقف شعر راسه وهو يرى السيدة المجاورة لقائد المرسيدس وهى مغمى عليها ، وعلى المقعد الخلفى كانت آنستان صاعقتا الحسن ـ على حد تعبير ص ـ تتعانقان وتتبادلان الصراخ فى هستيريا أوبرالية . أما قائد السيارة الأشيب فقد كان ينظر الى ص بعينين كانت كل منهما على شكل دائرة كاملة .

ويروى ص ما حدث بعد ذلك وهو يتنهد .. فقد اعتذر للرجل الأشيب وشرح له الموقف فقبل الرجل الاعتذار ، ثم عالج السيدة حتى أفاقت من اغمائها ثم غمرته بالمنتقى من الفاظ السباب المهذب ، ثم تحول الى الآنستين ليسترضيهما ، ونجح فى ذلك نجاحا كانت نتيجته انه صار ـ بعد ستة أشهر ـ زوجا لاحداهما !!

وقد سألته بعد ذلك عما تم فى المناورة فقال انه نجح فى صد الهجوم المعادى وأسر معظم الوحدة المهاجمة .

وقد أدهشتنى ـ كما لابد انها أدهشت القارىء أيضا ـ تلك النتيجة التى تتناقض مع ما يكون مهرجان النيران قد أدى اليه ، من انكشاف موقع ص وما يترتب عليه من التفاف العدو حوله والانطلاق الى السويس ، فسألته « كيف كان ذلك ؟ » . وفى ابتسامته الشيطانية المعهودة اجابنى « خليت المرسيدس مشيت بعدما وصيت عمى ـ باعتبار ما حدث بعد ذلك من زواج ـ انه يبلغ الدوريات اللى تقابله انى انسحبت بقوتى الى السويس وانى منتظرهم هناك .. وفعلا أبلغهم بذلك ، وعنها .. وقفشتهم كلهم زى الفراخ .. » .

فهل من غرابة بعد ذلك فيما حدث فى ٦ أكتوبر ؟!

من كاراكالا الى الأنفـوشى

ظريف هو شعبنا ، بكل طوائفه ، وبكل أجياله ، وبكل عفاريته .. وهو ظرف شهد به التـاريخ وشهد به الأصـدقاء وشهد به الاعداء ..

فعن التاريخ نذكر انه سجل لشعبنا أنه استطاع اقناع عتاة الغزاة بأن يؤمنوا بآلهته وان يقدموا لها فروض الطاعة والولاء .. حدث لذلك للهكسوس الذين عبدوا ست وآمون .. وحدث لبيعنخى الذى بلغ من ايمانه بآمون انه عين اخته كبيرة لكاهناته .. وحدث للاسكندر الأكبر الذى زار معبد آمون فى سيوة وعاد من هناك وهو « متروحن .. » ، وحدث ليوليوس قيصر الذى شـيد معبـدا فخما لعبادة ايزيس فى روما . حتى قمبيز ـ الذى رفض الاعتراف بالعجـل ابيس وطعنه بخنجره ـ اعـدمه المصريون جيشه ، حين توهوه عن عمد فى الصحراء فمات رجاله جوعا وعطشا . ثم راح الشعب يلاحق قمبيز بالغمـز واللمز حتى اصابه بالجنون واعاده الى بلاده وهو فى حال « ترللى » . وقد مات الرجل فى الطريق وهو يستغيث بأبيس .

وما من عدو منصف أو صديق مخلص الا وشهد لشعب مصر

بخفة الدم وحلاوة اللسان . ويكفى — تدليلا على هذه الحقيقة — أن نشير الى ان أشقاءنا السعوديين يطلقون على الحجاج المصريين لقب « زينة الحجاج » .

أما عن الأعداء فان قصة مطاردة الامبراطور الرومانى كاراكالا(١) للمصريين الساخرين به ، لتقف شاهدا عدلا على أصالة النكتة فى شعبنا . فقد فجع ذلك الامبراطور حين بلغته أنباء النكات المقذعة التى كان يتبادلها المصريون عنه فلم يتردد كأى امبراطور عنيف فى الثأر لكرامته فأرسل تجريدة ضخمة الى الاسكندرية وجعل لها فرضا وحيدا ، هو القبض على اساطين التنكيت والتبكيت ثم تعذيبهم وتأديبهم وقتل ما تيسر منهم ، حتى يتوبوا ويقروا لجلالته الامبراطورية بتمام العبودية . وقامت التجريدة بدورها خير قيام ، ثم أرسل قائدها الى الامبراطور « بتقرير نجاح » عن مهمته . وعندئذ أمر كاراكالا بعودة التجريدة الى روما ، ثم استقبلها هو والشعب بالورود والرياحين ، ثم غمر قائدها ورجالها بالانعامات والترقيات . وبعد أسابيع معدودة ، تلقى جلالته من قلم مخابراته ملفا من البردى . وكان طول ذلك الملف لا يقل عن ثلاثة أمتار . ومع أن شعر رأس كاراكالا كان مجعدا وقصيرا ، فان ذلك الشعر الامبراطورى اضطر الى الوقوف كالشوك جزعا من النكات والتشنيعات الرهيبة التى سجلها رجال المخابرات على السنة ضباط وجنود التجريدة ، والتى كانت كلها تدور حول شخص جلالته المقدس . وللتو استدعى كاراكالا التجريدة وبنى برؤوس رجالها هرما شامخا .. وعلى قمة ذلك الهرم كان يرقد رأس قائد التجريدة ولسان حاله يدعو على « اللى كان السبب » .

وليس يفوتنا بهذه المناسبة أن نسجل هنا سخرية ، كانت من أبلغ السخريات التى صبها شعبنا على رؤوس ظالميه . ومن عجب

---

(١) هو باسيانوس سبتموس . اعتلى العرش بالاشتراك مع شقيقه جيتا عام ٢١١ م . ثم قتل جيتا وانفرد بالحكم . اغتيل فى سوريا عام ٢١٧ م .

ان ظريفا من هذا الشعب لم يكتف بتدبيج تلك السخرية ، وانما هو استطاع أيضا أن يجد لها موضعا رخاميا فى جامع القلعة . وهى سخرية تتندر بالمصير الذى انتهى اليه محمد على (الكبير) بعد أن فرغ ناكر ونكير من استجوابه .

فقد استدعى محمد على مثالا تركيا لكى ينحت له شواهد قبره . ولما كان المثال يجهل العربية تماما فانه لجأ الى المشايخ لكى يزودوه ببعض الآيات المناسبة ، فأعطوه ما سأل . ولكن مكيرا منهم دس له آية ، كانت مكتوبة ومزخرفة بخط فى غاية الروعة والجمال . وجن المثال فرحا بالآية فسجلها على رخام القبر بكل ما قدره الله عليه من مهارة ومن فن . وكانت تلك الآية هى « انا اعتدنا للكافرين سلاسل واغلالا » ...

ومن نفس الباب دخل شاعرنا بيرم التونسى حين دس لمحمد على السم فى الدسم . وكان ذلك فى ذكراه المئوية . فقد انشأ بيرم قصيدة عامية ، طار الملك وطارت الأسرة المالكة بها فرحا ، لأنها كانت - فى ظاهرها - مدحا بليغا لجدهم الألبانى ، أما باطنها فانه كان تعريضا بليغا به ووصفا أبلغ لجشعه ولانقضاضه على خيرات مصر كالطير الكاسر .

وها هى أبيات منها :

* * *

محمد لما شرفها	بعينه المبصرة شافها
كنوز بس اللى يعرفها	ويعرف ينتفع بيها
مزارع جوها دافى	وطولها وعرضها وافى
وليه يمشى ابنها حافى	يمد الايد ويطويها
وليه القاضى والوالى	يجيبهم بابنا العالى
وليه مايكونش طوالى	حاكمها من أهاليها

* * *

ولو كان لدى الملك السابق واسرته ادنى قدر من الذكاء لعلموا أن « العين المبصرة » انما هى العين الزائغة ، ولتبينوا أن السؤال عن سر حفاء ابن مصر انما هو موجه اليهم فى المقام الأول ، ولتنبهوا الى أن أحدا منهم لم يكن من أهاليها ...

وبعد فتلك كانت مقدمة ومدخلا لذكرى تتمثل فيها خفة الدم العفاريتى الاسكندرانى .

ونبدؤها بالقول بأن صاحبها ما يزال يبحث عن جندى معين لكى يودعه فى السجن الحربى مهما كان الثمن . فقد كان ذلك الصاحب العفريت قائدا لاحدى الكتائب فى معسكر الهاكستب (احمد جلال حاليا) . وحدث ذات ليلة ما دعاه لان يتصل بالكتيبة من منزله لكى يصدر بعض الأوامر العاجلة . ودق جرس التليفون فى مكتبه بالكتيبة ، ثم راح يدق ويدق حتى كاد أن يتحطم بغير أن يرد عليه العفريت الضابط النوبتجى (كان ذلك القائد يحتم على الضابط النوبتجية أن يرابطوا بجانب التليفون) .

وبعد دقائق تجاوزت العشرين سمع جندى عابر صوت الجرس الملح فدخل ورفع السماعة ثم أطلق علامة استفهام صوتية تقول « اللوووووه » . فسأله العفريت « انت مين ؟ » فأجابه الجندى ـ الذى كان من صميم حى الأنفوشى ـ « انت مين الأول ؟ » . وفى سخط صاح به العفريت « اجرى يا ولد انده حضرة الضابط » . فأجابه الأنفوشى « طب موش تقولوا انت مين وعاوز حظابط ليه ؟ ... » فصاح العفريت « يا ... (١) اجرى انده له » . فثارت دماء الفتوة فى عروق الأنفوشى وهتف « اخرس يا ... ويا ... ويا ... (٢) » . فصاح به العفريت « يا قليل ... انت عارف

(١) هنا لفظ يعاقب عليه قانون العقوبات بالحبس والغرامة .

(٢) هنا الفاظ يعاقب عليها قانون الاحكام العسكرية بالاعدام رميا بالرصاص !! .

بتكلم مين ؟ » . فكانت اجابة الانفوشي على ذلك السؤال نغمة انفية مروعة ، يعرفها كل من أوقعه الحظ فى مرمى لسان اسكندرانى قح (١) .

وخشي العفريت على مركزه فسارع بتعريف نفسه قائلا « انا قائد الكتيبة » . فتزلزلت السماعه فى يد الأنفوشي وهمس فى توسل « عدم المؤاخذة يافندم » . فأجابه العفريت ــ بعد أن شعر بالأمان ــ بسيل منهمر من لعن السنسفيل ، ثم اقسم له بأنه سوف يشرف بنفسه على ايداعه فى صباح الغد فى السجن الحربى .
.. وعندئذ استيأس الأنفوشي وهتف بكل بسالة « طيب آمنا وصدقنا انك سعادة القائد ... سعادتك تعرف أنا مين ؟ » فأجابه « لأ » . فصاح الأنفوشي فى فرحة طاغية « الحمد لله » ، ثم وضع السماعة وتسلل من المكتب فى هدوء .

وفى غضب جنونى امتطى العفريت عربته الخاصة وطار الى المعسكر ، وراح يبحث عن صاحب النغمة الاسكندرانية وهو مطمئن الى سهولة العثور عليه (عن طريق لهجته) . ولكنه فوجىء بأن الكتيبة كانت قد تلقت دفعة كاملة من المستجدين الاسكندرانيين ، وفى العنابر كان جنود هذه الدفعة نائمين فى براءة الملائكة . ومع أن العفريت قضى الليل بطوله وهو يختبر أصواتهم فى التليفون فانه عجز تماما عن العثور على فريسته . وللحق نقول أنه كان ــ على طول لسانه ــ لا يطيق الظلم ولا يمارسه ، ولذا فانه صرف الاسكندرانيين فى سلام ، ثم أفرغ همه فى التليفون فحطمه تحطيما .
ومن يومها وهو يبادر الطرف الآخر (عند الحديث بالتليفون) بالهتاف « انا فلان بن علان ورتبتى كذا وصفتى ونعتى كيت وكيت » . كما أنه ما يزال يهتز غضبا كلما سمع النغمة الاسكندرانية اياها .

---

(١) من الواضح أن هناك صلة مريبة بين هذه النغمة وبين الانفوشي .. فكل منهما يبدأ بالانف .

المعركة الاولى لملائكة الرحمة

اذا كان الجرحى من أبطـال ٦ أكتوبر قـد استمتعوا بحنان الأيدى الناعمة ، وهى تمرضهم وتضمد جراحهم بكل ما طبعت عليه المرأة من رقة وحنان ، فان الفضل فى ذلك انما يرجع الى طفرة معينة حدثت فى منتصف الخمسينيات ، وكان ذلك حينما تقرر تغيير نظام التمريض فى المستشفيات العسكرية ، وكان أهم عناصر ذلك التغيير هو استبدال المرضين بالمرضات . وبديهى ان ذلك التغيير قد نقى معارضات كثيرة من القوم المحافظين . ولكن دعاة التغيير فازوا فى النهـاية ، وتقررت تجربة النظام الجديد فى مستشفى الحلمية . وبدأت التجربة بمعركة ... كان النصر فيها لملائكة الرحمة .

ففى يوم مشرق من أيام ابريل ـ وابريل كما نعـام جميعا هو أروع شهور الربيع ـ ظهرت الأردية البيضـاء الملائكية فى ساحة المستشفى . وفى ثوان كانت الشرفات والنوافذ قد امتلأت بالمرضى وراحت هتافات الفرح تدوى من هنا وهناك ... « اللهم صلى على كامل النور » ، « يا أرض احفظى ما عليكى » . ومع أن المستشفى مخصص لعلاج حالات العظـام ، وبالتـالى فان معظم نزلائه كانوا أسارى الحمالات والجبائر والجبس ، فان الحيـاة دبت فى العظام

المرضوضة والسيقان المكسورة ، وقفز الكل فى خفة الغزلان وراحوا يتزاحمون على الأماكن الممتازة في الشرفات والنوافذ . واسرع « نمس » من الملازمين وجاء براديو كبير واحتضنه على النافذة ، ثم ادار مفتاح الصوت على آخره فراح صوت صباح يلعلع متغزلا فى « زنوبة ... الحلوة الحبوبة » .

اما ذوات الأردية البيضاء — وكن جميعا من « آخر قطفة » من مدرسة المرضات — فقد رحن ينظرن فى وجل الى الوجوه السمراء المفترة عن ابتسامات شديدة الشبه بابتسامات الأسد وهو يقيس المسافة بينه وبين غزال شارد .

ونزل القائد والأطباء الى ساحة المستشفى لاستقبال ملائكة الرحمة . وفى خشونة عسكرية مصطنعة راحوا يستعرضون المرضات . ونادت أقدمهن « صفا .. اعتدال » فاصطدمت كعوب الغزلان الرقيقة ببعضها فى كركبة وارتباك ، واعتدلت القدود فى رشاقة طبيعية ، فدوى التصفيق من النوافذ والشرفات ، وعادت الهتافات تدوى بالاستحسان والاعجاب . وساعتها فقد القائد تماسكه ووقعت التكشيرة المصطنعة من فوق شفتيه .. فمد يده والتقطها قبل أن تصل الى الأرض ، ولكنه لم يعدها الى فمه وانما اودعها فى جيبه ببساطة وراح يطلق سراح الابتسامة التى كانت حبيسة تحت شاربه ، ثم القى بخطبة عصماء .. كان فيها صادقا كل الصدق وهو يعبر عن مشاعر الترحيب بملائكة الرحمة وعن أمل القوات المسلحة — التى كانت ممثلة طبعا خير تمثيل فى جمهور النوافذ والشرفات — فى تحسن نظام التمريض على أيديهن . ثم وزع القائد الملائكة على أجنحة المستشفى . وبدا يوم ربيعى جميل ، اكتملت فيه بالمستشفى كل عناصر الخضرة والماء والوجه الحسن . ومضى وقت العمل بخير ، ورأى القائد الا يثقل على المرضات بالكثير من الخدمة الليلية ، فاكتفى بتعيين ثلاث منهن للخدمة الليلية فى جناح الضباط ، وعلى باب الأوتوبيس المخصص للممرضات ،

راحت الممرضات المنصرفات يقبلن الثلاث الباقيات ويودعنهن كما لو كن لن يرينهن بعد ذلك ابدا .

وبعد ذلك الوداع التراجيدى توجهت الثلاث الى عنبر الضباط وهن ينظرن فى حسرة الى باب المستشفى ..

ويشهد عفريت معين (والشهادة أمانة) بأن الضباط المرضى كانوا « آخر ادب » مع الملائكة الثلاث ، وان بعضهم قد راح يعبر لهن عن امتنانه وامتنان زملائه لما يؤدينه من خدمات تمريضية رائعة ، ولكن « تقول لمين !!.. » ، فقد كانت مظاهرة الصباح قد خلخلت منهن الركب وملأت رؤوسهن بالأوهام . ولذا فانه ما كادت نوبة تمام المساء تدوى حتى انطلقن الى غرفتهن واغلقن الباب من داخلها اغلاقا محكما .

وكالعادة تجمعت شلل الضباط فى الغرف ودارت التعليقات حول هذا الانقلاب التمريضى الجديد ، فأيده البعض وعارضه البعض الآخر . ولكن المؤيدين كانوا هم الأغلبية ، بحكم أن اصابات العظام تقع فى غالبيتها بين الضباط الشبان طبعا ... ، وكان أعلى المؤيدين صوتا هو عفريت كان مصابا بعدد كبير من الجروح والكسور — على اثر سقوطه من شجرة عالية اثناء تدريبات الصاعقة — ولم يخل الأمر طبعا من تأييدات متحيزة ، كان الملازم « النمس » خير نموذج لها . فلقد راح هذا الأخير يدعو الى « حدف كل الممرضين من الشبابيك » والى تعيين ثلاثة آلاف ممرضة على الأقل بكل مستشفى !!! ، ثم ارتفعت حرارته بالدرجة التى راح يقترح معها استبدال الأطباء جميعا بطبيبات !!!.. وحين سأله نمس آخر عن مصير الجراحة عندئذ اجابه « مالهاش داعى ... كفاية ان الدكتورة تحط ايدها على الجرح يطيب على طول » .

ولم يحدث فى تلك الليلة ما يعكر صفو أحد .. لا الملائكة ولا العفاريت . الأمر الذى يؤكد ان ظواهر الأحوال لا تعبر بالضرورة

من بواطنها . فما كان تهريج العفاريت واحتفائهم الأوبرالى بالملائكة الا مجرد تعبير عفاريتى عن ترحيبهم بحلول الأيدى الناعمة محل الأيدى الخشنة فى تضميد الجراح وتقديم الأدوية ، ودفع ابرة الحقنة فى العضلات . وكم من قصص يرويها العفاريت عما فعلته بهم الأيدى التمريضية الخشنة . ويذكر واحد منهم انه كان من أوائل الذين حصلوا على شرف العلاج بالبنسلين ، أيام كانت الحقنة الواحدة منه تساوى ثلاثة جنيهات ، وكان العلاج لا يقل عن ١٢ حقنة ، وكان الفاصل بين الحقنة والحقنة ثلاث ساعات . ولذا فان العفريت قد ظل مستيقظا معظم مدة العلاج ، ولكنه اضطر بعد الحقنة الثامنة الى الاستغراق فى نوم عميق . وجاء الامباشى المرض لكى يعطيه الحقنة التالية ، وشاء — حين وجده نائما — أن يجامله ، فما كان منه الا أن كشف عن ذراعه بمنتهى الحنان ، ثم طهر الذراع بالكحول ثم وجه الابرة نحو الهدف ، ثم طعن العفريت بالابرة كما لو كان يطعن بالسونكى فى شاخص محشو بالقش ، ولم يك ينقصه ساعتها الا أن يصيح « عا .. عا » . وهب العفريت من نومه صارخا ، ولولا كرم الله لانكسرت الابرة فى ذراعه أو لنفذت من عظامه . ومن ساعتها — وحتى نهاية العلاج — كان ينام ومن حوله متطوعون مزودون ببعض العصى الرفيعة ..

ونعود الى ملائكة الرحمة ، فنقول أنهن دخلن فى اليوم التالى على عفريت الصاعقة ، ورحن يقمن بتحضيره لعملية فى ساقه . وكن يقلبنه ذات الشمال وذات اليمين ، ويغرقنه بالمطهرات ، وهن يتضاحكن من الخجل الذى كان يجتاحه ، والذى جعله يصر على الا يخلع البيجامة .. ولا حتى « بأمر كتابى » ... كما أنه أصر على أن يأخذ حقنة الأتروبين ... ليس فى العضلة الاستراتيجية « اياها » وانما فى ذراعه . ومن بعد ذلك رفض أن يتوجه الى حجرة العمليات على الكرسى ذى العجلات ، وانما هو راح يقفز على ساقه السليمة متوكئا على ذراع عفريت آخر .

وعلى مائدة الجراحة راح يردد آية الكرسى مرارا وتكرارا .

ومن المفيد هنا أن ننوه بحقيقة انسانية تقول ان المقاتل مهما كان خشنا فى التدريب ، ومهما كان شجاعا فى الحرب ، فانه بشر قبل كل شيء ، ولذا فانه يواجه المواقف الانسانية بانفعالاتها الطبيعية .. ومن منا يدخل حجرة العمليات بغير أن يقرأ الآيات ويردد الأدعية ؟؟..

وتمت العملية على درجة نسبية من الخير ...

وتفسير ذلك هو ان العفريت قد أفاق من البنج ، ليجد نفسه محاطا بملائكة الرحمة ، وهن ينظرن اليه فى اشفاق شديد .. فراح يبتلع ريقه فى قلق . وفوجيء عندئذ بألم مروع فى زوره ، فأدهشته تلك الظاهرة ، لأن الموقع الطبيعى للألم كان يجب ان يكون هو ساقه وليس زوره . وبلسان أثقله البنج راح يسأل الملاك رقم ١ « هو الدكتور عمل العملية فى زورى واللا فى رجلى ؟! » فأجابته « فى رجلك » . فسأل « أمال زورى مجروح وملهلب ليه ؟ » ، فأجابته الملاك رقم ٣ ــ وكانت هى الممرضة المساعدة فى العملية ــ « أنا اللى فتحت زورك » . فصرخ « هوا زورى كان عكا عشان تفتحيه !! » . فدخلت الملائكة جميعا فى نوبة « كر ياضحك » . وراحت رقم ١ تحكى له كيف أن حباله الصوتية قد تشنجت تحت أول ضربة بالمشرط فى ساقه ، فاستحال عليه ان يتنفس ، وراح لونه يقترب من لون البنفسج « اللى بيبهج وهو زهر حزين » . وساعتها راح طبيب البنج والجراح المساعد ومساعد المساعد يزعقون ويتبادلون منتهى الاصطلاحات الفيزيوثيرابية « اسفكسيا ... ثيرد ستيج .. تشوك .. فوكال كوردس .. بوردرلاين ..(١) » . وفى خلال ذلك كانت سرعة البنفسج فى تلوين العفريت تسبق كل

(١) الكاتب ليس طبيبا ، ومعلوماته عن هذه الاصطلاحات لاتزيد عن معلوماته فى اللغة الهيروغليفية ، فلا يطمعن القارىء فى تفسيرها .

محاولات الأطباء لمنع عزرائيل من الاستيلاء عليه . ودخل العفريت في الاحتضار ...

وتماما كما يقوم « الشجيع » بانقاذ الضحية فى آخر لحظة ، تقدمت الملاك رقم ٣ من العفريت البنفسجى ووضعت فمها على فمه وراحت تنفخ فيه ، فى محاولة بطولية لادخال الهواء الى رئتيه .. وبمعجزة تسرب بعض الهواء النواعمى الى رئتى العفريت ، وصرخ طبيب البنج « الأوكسيجين الأوكسيجين .. » وساعتها تناولت الملاك خرطوم انبوبة الأكسيجين وراحت تقتحم به زور العفريت ، كما لو كانت جنديا ماهرا من جنود المطافى .. وهو يوجه الباشبورى نحو السنة اللهب .

واستقر الخرطوم فى زور العفريت ، وراح الأكسيجين يتدفق فى رئتيه ، وتراجع لون البنفسج ، وحل محله لون الورد الجورى. وتنفس الأطباء الصعداء . وتناول الجراح ساق العفريت وراح يوسعها ضربا وطعنا بالمشرط حتى اعادها ساقا سوية .

وهكذا كسبت ملائكة الرحمة معركتهن الأولى .

حرما .. بأمر همايونى

وهـــذه ذكرى طريفة جرت وقائعها فى الماظـــة وكان ذلك فى الاربعينيات . فقد شيد المهندسون العسكريون مسجدا رائعا وتقرر ان يفتتحه الملك السابق بأداء صلاة الجمعة فيـــه . وبديهى ان الاحتفـــال كان يشتمل على فقرتين أساسيتين ، أولاهما كانت هى « اصطفاف وحرس شرف » لاستقبال الملك ، وثانيتهما كانت هى مراسم الصلاة .

ولما كانت الفقرة الثانية اهم من الاولى بطبيعة الحال فقد تشبث الضباط بالاشتراك فيها (والتدين صفة أصيلة فى شعبنا) ، وبذلك وقعت القيادات فى حيرة من حيث تشكيل قوات الاصطفاف وحرس الشرف . ولكن الحل لم يكن صعبا فقد بادر الضباط المسيحيون(1) بالتطوع لهذه المهمة .

وفى يوم الاحتفال استقر المصلون داخل المسجد ، وبادر الذين لم يجدوا اماكنا فى الداخل باستحضار سجاجيد الميسات واستقروا عليها .

(1) يشهد الكاتب لهؤلاء الاشقاء الاعزاء بالكثير من البطولات والمناقب الطيبة والمحاملات الكريمة ، وقد كان معظمهم يأبى الا أن يشارك اشقاءه المسلمين فى صوم رمضـــان .

ومن بعيد أهل موكب « مولانا الملك الصالح .... » فنعقعت البنـــادق وقرقعت الطبول وصاحت الإبواق وعزفت الموسيقات بالسلام الملكى (١) .

وبكل الأبهـــة والوقار نزل الملك ونزلت من قبـــله لحيته «المسكسكة» ومر على حرس الشرف ، وكان يتقدمه عفريت مسيحى عملاق ، وكان منظر ذلك العفريت أكثر من رائع بردائه ونياشينه والسيف المشهر فى يده ، وبخطواته العسكرية النشـــطة . وانتهى مرور الملك ، وودعه العفريت « بسلام سيف » مهول ، ثم عاد الى مكانه امام حامل العلم ، وهو يحسب ان أقل ما سوف يحصل عليه فى كشف الانعامات الملكية هو « نوط الجدارة » على أقل تقدير .

وفعلا حدث شيء جعل قلب العفريت يدق فرحا . فقد توقف الملك ثم همس فى أذن واحد من ياورانه بكلمات ، وكان من الواضح انه يعنى بها حرس الشرف على وجه العموم والعفريت على وجـــه الخصوص ، لأنه كان يشير الى ناحيتهم فى خلال همساته .

ودخل الملك فى المسجد ، وبدأ الأذان الأول .

وجمع العفريت حرس الشرف ثم راح يقوده خارجا . ولكنه فوجيء بضابط الياوران وهو ينادى عليه « يا حضرة الصاغ » فأسلم قيادة الحرس لقائده الثانى وعاد مهرولا وهو يحسب أن حلمه قـــد تحقق بأسرع مما كان يتوقع . وفى صوت آمر هتف به الياور «مولانا أصدر نطق سامى بانك تحضر الصلاة فى الجامع .. اتفضل » .. وقبل ان يجد العفريت ما يرد به على ذلك « النطق الهمايونى .. » وجد نفسه مشدودا الى ذراع ضابط الياوران ومندفعا معه الى باب المسجد . وهناك (حيث كان الصمت يســـود ، والكل ينصت فى خشوع الى القاريء) وضع الياور أصبعه على فمه محذرا العفريت

---

(١) كان ذلك السلام من تلحين الموسيقار الايطالى « فردى » .

من الكلام (حيث انه كان يظن ان التمتمات المتلعثمة التى كان يصدرها ذلك الأخير هى تمتمات الشكر والعرفان) ، ثم خلع الياور حذائه .

فلم يجد العفريت بدا مما ليس منه وخلع الحذاء والتزلك (وخلع التزلك بغير معونة المراسلة عملية رهيبة) . ثم استسلم ليد الياور ، ودخل معه فى اقرب ثغرة من الصف الخلفى .

وتتالت طقوس صلاة الجمعة حتى حانت الصلاة فراح العفريت يتزحزح الى الخلف ويبحث بعينيه عن مهرب . ولكن الياور كان له بالمرصاد ، اذ حسب أن الحرج الظاهر عليه يرجع الى عدم تعوده على أداء صلاة الجمعة فهمس فى اذنه متعطفا « كلنا نصلى بكلام الامام » . وحسب العفريت ان ذلك يعنى ان الياور (ومن قبله جلالة الملك المعظم) ، يعرف حقيقته ، وانه قد دخل به الى الصلاة مع سبق الاصرار والترصد ، فتنهد فى ارتياح لأنه أصبح بذلك « برىء يابيه » .

وانتهت الصلاة بالتحيات . ومن بعدها راح كل مصل يصافح من هو على يمينه ومن هو على يساره . وبكل بساطة تناول العفريت يد الياور الممدودة اليه وراح يصافحها فى اشتياق وفى عشم كبير .
وحين قال له الياور « حرما » أجاب ـ فى تواضع ـ « العفو ياسعادة البيه . . » . ثم رأى العفريت أن عليه حق السلام على جاره الآخر فمد يده اليه ، فناوله الأخير يده ثم التفت نحوه محييا . وصعق ذلك الجار حين رأى وجه العفريت (وكان ذلك الجار التقى هو قائد اساسات المشاه بلحمه وعظمه) ، فسأله فى ذهول « انت بتعمل هنا ايه ؟ » فأجابه العفريت « بأصلى » فسأله « ازاى ؟ . . » فأجابه « زى كده » ثم انتفض واقفا ورفع يديه الى أذنيه وكاد أن يدخل فى صلاة ثانية . . فأمسك قائد الأساسات بيده فى فزع واقعده ثانيا ثم همس فى اذنه « نهارك أسود ان شاء الله » ، فأجابه العفريت فى ثقة وتعاظم « يا فندم انا هنا بأمر ملكى سامى » . ثم روى له الحكاية

« من طقطق لسلامو عليكم » وسكت قائد الأساسات ساعتها سكوتا بليغا .

وحتى اليوم ، فان العفريت ما يزال يعتقد ان الملك كان يهزر معه يومها هزارا ثقيلا ، وان أقل ما كان يجب على جلالته هو أن يدرج اسمه فى كشف الانعامات الهمايونية . .

وفى خط مواز لما حدث للعفريت الصاغ حدث شيء مماثل لعفريت يوزباشى ، ولكن الأخير كان هذه المرة مسلما .

ففى خلال العدوان الثلاثى (عام ١٩٥٦) توزعت قوات الجيش على أحياء القاهرة للدفاع عنها ضـــد الهجوم المحتمل . ونزلت الوحدات بالمدارس .

وكان من حظ ذلك العفريت انه وقع على مدرسة فاخرة من مدارس النوتردام . وبكل بساطة احتل حجرة حضرة الناظر . وحين حضر الأخير فى الصباح رحب بالعفريت ترحيبا صادقا ثم راح ينبهه الى حقائق ثلاث : الأولى : هى ان هذه المدرسة هى مقر «الجراندمير» (الأم الكبرى) ، والثانية : هى انها مدرسة بنـــات فقط لاغير ، والثالثة : هى انالرهبنة لا شأن لها بالسياسة ، وان اشتراك فرنسا فى العدوان قد قوبل من الأم والراهبات بالاستنكار وانها رفضت أن تغادر مصر ووضعت نفسها وراهباتها فى حماية الشعب المصرى .

ثم تقدم اليه برجاء بسيط هو أن ينتقل هو ورجاله الى أى مدرسة أخـــرى ، وسوف تقدم الأم اليه فى مقـــابل ذلك دعواتها الصالحات . وكان رد العفريت هو ان كل المدارس القريبة هى من طراز الابتدائى والالزامى ، ولذا فانها تفتقر الى التليفون الذى هو ضرورة قتالية لامراء فيها . ثم طلب من الناظر ان يبلغ احتراماته الى الأم مصحوبة بوعد قاطع بانه لن يحدث منه أو من الجنود أى ازعاج كان . .

وخرج العفريت وانهمك فى اعداد مواقع القتـــال وعاد قرب الغروب وهو يحلم بنومة خاطفة على الأريكة الوثيرة التى كانت تزين حجرة الناظر . ولكنه لم يجد اريكة أحلامه ، وكذلك لم يجد المكتب، وايضا لم يجد السجادة . .

باختصار .. لم يجـد سوى التليفون وجدران الحجرة فقط لا غير . اما فى الردهة فقد كانت توجد حواجز تكتيكية من القمطرات وكانت تلك الحواجز تفصل مقر الأم وراهباتها عن حجرة الناظر فصلا محكما .. وجن العفريت غيظا ولكنه كان أعقل من ان يثير معركة مع « ذات سوار » . ولذا فانه تلفف ببطانية وافترش أخرى وراح فى نوم غير هنيىء . وبعد ساعات استيقظ ثم قضى الليل فى المرور على المواقع وفى دعمها بشكائر الرمل ، ثم عاد فى الفجـر الى الحجـرة الخاوية وهو يأمل فى بضع ساعات من النـوم . وما كادت عينـاه تغفلان حتى دوت فى اذنيه أصـوات النواقيس .. فقد كان اليوم هو يوم أحد وكانت تقع فى آخر الردهة كنيسة صغيرة .

ونهض العفـريت وهو فى غاية الارهاق وخرج الى الصالة ؛ فاذا به يواجه « الجراندمير » بوجهها السمح وعصاها ذات الراس الفضى . ولم يتمالك نفسه أمام ذلك الوجه الذى كان يتلألأ بالتقوى وبالرجمة فنسى تعبه وأحنى رأسه محييا . وبابتسامة ملائكية ردت الأم على تحيته ثم أشارت اليه بأن يتبعها . وحسب العفريت انها سوف تدخل به مكتبها لكى توقع معه معاهدة صلح ، وخايله عندئذ شـبح الأريكة الوثيرة ، فسـار خلفهـا وهو يفـرك يديه فى أمل وابتهاج .

وفجأة وجد نفسه وهو جالس فى خشوع على الأريكة فى الصف الاول فى الكنيسة . فقد كانت المير قد سارت به وهو شبه ممغطس ثم أقعدته بيدها الرقيقة على الأريكة ، ثم حيته بانحناءة حنون ثم اتخذت مكانها فى صدر الكنيسة . وقبل أن يفيق العفريت لنفسه من

هول المفاجأة علا صوت الارغن ودخل المصلون والمصليات في الترانيم .. ثم انهم كانوا يحيونه بانحناءات طيبة تصاحبها نظرات التقدير والاعجاب بذلك الضابط الكاثوليكي التقي . وفكر العفريت في الهرب بطريق التسلل ، ولكنه كان يجهل مخارج الكنيسة ، كما انه كان أكثر جهلا بطقوس الصلاة . ولذا فانه عجز عن تبين اللحظة المناسبة للفرار كما أن الباب الذي دخل منه كان مسدودا بعدد كبير من الكراسي ، فقد كان عدد المصلين والمصليات أكبر بكثير من عدد ارائك الكنيسة (١) . وبذلك « تكرنر » العفريت وبقي في مكانه مستسلما بعد ان همس لنفسه بانه يجلس — على كل حال — بين القوم الذين هم « أقربهم مودة » . ثم جاءت فقرة تناول فيها المصلون اناجيلا صغيرة وراحو يرتلون منها بعض الصلوات . وحين لاحظ مصل ورع أن العفريت لا يمتلك انجيلا ضرب يده في جيبه وناوله واحدا بعد ان فتح له الصفحة المطلوبة . ورأى العفريت — وكان يجيد الفرنسية — أن يمضي في الشوط الى آخر ، فتناول الانجيل وراح يقرأ بكل فصاحة « مون بيركي أيه أو سييه » (٢) .

وانتهت الصلاة وبدأ القوم في الانصراف ، ووقف قس طيب قرب الباب ومعه اناء كان يحفل بفطائر صغيرة ، كانت هي « القربان » . وراح الأب الطيب يلقم كل مصل ومصلية فطيرة ثم يباركه . وجاء الدور على العفريت ففتح فمه والتقم الفطيرة — وكان ساعتها في غاية الجوع — ثم مد فمه يطلب المزيد .. ولكن الأب الطيب كان قد انتقل الى المصلي الذي يليه .

وخرج العفريت من الكنيسة رأسا الى اقرب مطعم . ثم دار على المواقع وعاد قرب الغروب وهو قريب من الهلاك .. جوعا وتعبا . وما ان دخل الحجرة حتى راح يفرك عينيه في ذهول ، فقد

---

(١) ازدحام أماكن العبادة ظاهرة انسانية مألوفة في أوقات المحن والحروب .

(٢) ابانا الذي في السماوات .

رأى هناك اريكة الأحلام والمكتب والمقاعد والسجادة. وانهار العفريت على الأريكة وراح يتنطط عليها كالأطفال . ثم سحب وسادة من اقرب مقعد (اسيوطى) وطرحها على الأريكة ثم استلقى عليها وكاد أن يدخل فى لذيذ المنام . ولكنه أفاق على دقات لطيفة على الباب فصاح «ادخل» . فدخل الطارق وكان هو فراش المدرسة . ودخلت مع الفراش صينية فخمة . ووضع الفراش الصينية على المكتب ثم كشف عنها الغطاء فتزغللت عينا العفريت من بريق الصحون الصينية التى كانت تكتظ بكل ما لذ وطاب وكان على رأس ما لذ وطاب دجاجة عملاقة كان جوذابها يتفصد رضابا شهيا ..

وفى جلسة طيبة مع الأم الرؤوم أخبرها بأنه مسلم وأخبرته هى انها ظنته مسيحيا (كان اسمه مشتركا بين المسلمين والمسيحيين) ، واتفق الاثنان على انه « حصل خير » .

وفى ضيافة تلك الأم الكريمة قضى العفريت فترة الحرب وهو معزز مكرم ، وكان فى أيام الآحاد يتلقى صينية فوق العادة ، ولعل فى ذلك تفسيرا للتحسن الواضح الآن فى العلاقات بين الشعبين المصرى والفرنسى ..

العفاريت و"ياللهول"

فى مايو عام ١٩٥٧ كان الجيش يمر بمرحلة اعادة التنظيم ـ بعد حرب سنة ١٩٥٦ ـ وظهرت فكرة رشيدة تقول بوجوب اعادة النظر فى الأساليب المتبعة فى التعليم والتدريب ، بعد أن أثبتت الدراسات والتجارب أن الأساليب السائدة لم تعد تصلح للعصر من ناحية ، كما انها تعجز عن تحقيق غرضها ، بسبب ما تتصف به من جمود تقليدى

وفى مدرسة المهمات بالقلعة ، وكان قائدها (عبد الفتاح عزام) من رواد أساليب التعليم الحديثة ، جـــرت دراسة وتقييم تلك الأساليب . وقد اثمر ذلك الجهد تطويرا رائعا فى التعليم والتدريب بالقـــوات المسلحة . ولكن التجربة لم تخل من بعض الأحـداث العفاريتية الطريفة .

فقد بدات الدراسة على شكل فرقة (دورة تعليمية) . ومع أن مواد الفرقة كانت تستمد كل عناصرها من كل جديد وطريف فى علم النفس فان يوم ابتداء الدراسة كاد أن يكون هو يوم انتهائها .. فقد راح الضباط العفاريت المعينون بالفرقة يتقدمون واحدا بعد الآخر بطلب الانسحاب منها . ولو كان القائد قد استجاب لتلك الطلبات لأصبحت الفرقة قاعا صفصفا . ولذا فانه استبقى الطلبات فى درج

مكتبه ، ثم راح يستقصي الأسباب ، فتبين أن السر الكامن وراء طلبات الانسحاب كان هو شعور الضباط بالارهاق الشديد ، بعد أن أجهدتهم عملية اعادة التنظيم . وللتو بدأ بسلسلة من عمليات الانعاش ، فأعفى الضباط المقيمين فى أماكن بعيدة من الحصة الأولى، ثم اعد للجميع حفلة تكريم حشد فيها كل روائع جروبى من الفطائر والحلويات ، ثم توكل على الله وافتتح الفرقة .

ولا تسل عن دهشة الضباط حين رأوا القائد وهو ينزل ـ بعد كلمة الافتتاح ـ من على المنصة ويدور فى قاعة الدراسة ويجمع أعقاب السجائر المتناثرة ثم يودعها فى اقرب طفاية ، ثم يخرج فى سكون . وكان الدرس الأول بليغا .

وتوجه عفريت معين الى مكتب القائد لكى يبدى له اعجابه باسلوبه التربوى الكريم . وهناك دار حديث تم فيه الاتفاق على أن يضع العفريت مواهبه فى خدمة الفرقة . وظهرت النتيجة فى اليوم التالى ، الذى كانت الدراسة فيه مخصصة لفن الالقاء . ففى بداية الحصة الأولى راحت جدران قاعة الدراسة ترتج من التصفيق الحماسى الذى قوبل به المحاضر عند دخوله . . لأنه كان يوسف وهبى بحوله وهوله . .

وعندما استقر يوسف وهبى على المنصة اخرج أحد العفاريت طبنجته ووضعها فى هدوء امامه . فهمس جاره فى اذنه « ايه ده يا منيل » فأجابه ـ وهو يشير الى يوسف وهبى « مادام فيها يوسف بيه يبقى حاتنتهى بقد كام قتيل » . ويبدو أن يوسف لم ير الطبنجة لأنه وقف فى جد وراح يلقى محاضرة رائعة عن فن الالقاء . وراح الضباط ينصتون ويكتبون ، ثم راح المحاضر يقدم نماذجا للهجات بأنواعها (الخطابية ـ التمثيلية ـ التعليمية) ، واختار أن يبدا باللهجة الخطابية فصاح « يا حضرات الضباط » فرد العفاريت عليه بصوت داو « أفندم » ، فأعجبه الرد فعاد يصيح « يا حضرات الضباط » ، فسبقهم عفريت ملازم هاتفا « مولاى الكاردينال » ،

فخشي يوسف وهبي على سمعته كمحاضر فكشر في وجه الملازم فهتف عفريت صاغ « **يا للهول** » فرد عفريت من المقاعد الخلفية « أصمت عليك اللعنة » ، فضحك يوسف ، فضحك معه العفاريت .

وفي تلك اللحظة بالضبط ظهر اللواء (مدير تدريب الجيش) ؟ على باب القاعة الخلفي ، فلم يتنبه اليه أحد سوى المحاضر . ولم يكن يوسف وهبي يعرف الرجل بطبيعة الحال ، كما أن الكاب الحمراء والمقص لم يعنيا لديه سوى أن صاحبهما ضابط . ولذا فانه هتف باللواء « ادخل يا عدو الله » ، ودخل الرجل والشرر يتطاير من عينيه ، فانتفض الضباط واقفين ووقعت الطبنجة على الأرض فالتقطها صاحبها واخفاها في سرعة البرق .

واختار اللواء مقعدا في الصف الأمامي بجوار القائد وجلس عليه بعد أن صاح في الضباط « اشتغل » . ثم التفت الى القائد الى القائد مستفسرا « ايه ده ؟ ؟ » ! ! فهمس القائد « دا يوسف وهبي » .. ، فغضب اللواء وصرخ في همس « أمال حايكون وهبي يوسف ! ! قوللي هي دي فرقة تعليم واللا فرقة رمسيس ؟ ! » فأجابه « دي محاضرة في فن الالقاء » . ومع أن يوسف وهبي لم يسمع شيئا من ذلك الحوار الهامس فانه كان قد اشتم في الموقف رائحة الخطر فتابع المحاضرة مرددا « ادخل يا عدو الله » باعتبارها جزءا من موقف تمثيلي . وشيئا فشيئا راح اللواء ينسجم مع المحاضر ، وأخيرا لم يتمالك نفسه فصفق في نهاية المحاضرة وتقدم ليصافح يوسف وهبي في اعجاب وتقدير شديدين .

ووصل المحاضر التالي في نفس اللحظة التي كان فيها يوسف وهبي يغادر القاعة مودعا بالتصفيق الشديد . وكان ذلك المحاضر هو « زكي طليمات » . ولقد أبدع الأخير في محاضرته بالدرجة التي اصبح اللواء معها اكبر مؤيد « لأساليب التعليم الحديثة » .. بعد ان كان منذ لحظات « عدو الله » .

وسارت الفرقة على ذلك النمط الجديد الطريف ، ما بين

محاضرات للمتخصصين من العلماء والفنانين ، وما بين ندوات كان من نجومها ـ على سبيل المثال ـ الفنان أحمد بدرخان (١) والاستاذة كريمة السعيد والدكتور أمير بقطر والأستاذ حافظ محمود(٢) ،ومابين زيارات للمعاهد التربوية . . (وقد انتهت زيارة معهد التربية الفنية بالروضة بزيجة سعيدة بين عفريت رائد وبين حسناء من الطالبات) .

وكان ختام الفرقة هو بيان عملي ، سوف تبقى تفاصيله المهولة محفورة في ذاكرة القائد والضباط الى امد طويل . فقد أجرى ذلك البيان خلف القلعة ، وأباح القائد للجمهور مشاهدته . . وكان بيانا عمليا ـ بالذخيرة الحية ـ عن اقتحام موقع حصين .

وبدأ البيان على خير . . بالشرح المسهب أولا ثم بتحريك القوة المهاجمة الى نقطة مختارة من حـــول الموقع . ثم راحت النيران التمهيدية تنصب على الموقع بغــزارة ، وكان الرصــاص يتطاير في سيول منهمرة .

وبينما كان الضرب على أشده والجمهور يهتف في حماسة « تحيا مصر » ، والقوة المهاجمة نصب كل ما لديها من الذخيرة الحية على الدشم حدث مشـــهد لا يمكن لهوليوود أن تخرج أشـــد منه روعة ولا أكثر منه واقعية ولا أبعث منه على التصفيق والهتاف .

فقد ظهر في وسط الموقع تماما ، وفي مواجهة عشرات الآلاف من الطلقات النارية . . قميص وبنطلون ، وبداخلهما انســـــان في غاية النحافة . وكان الثلاثة ـ القميص والبنطلون والانسان ـ يتحركون معا في هدوء مهيب وسط ذلك الجحيم المشتعل . وتماما ، كما يفعل

---

(١) اعترف بدرخان للعفاريت بانه هو مؤلف تمثيلية « اثر الطماطم في اخلاق الامم » . وهي تمثيلية هردبيسية كانت لفرق التمثيل في المدارس والجامعات تمثلها بغير انقطاع ، وكان كل المشرفين على تلك الفرق يتنازعون شرف تأليفها ، بينما كان أساطين الفكاهة في مصر يبحثون عبثا عن مرتكب هذه التمثيلية .

(٢) يدين عفريت معين للأستاذ الكبير حافظ محمود بالكثير من الافضال . لقد تبنى الأســـتاذ مواهب العفريت ، وتابعه بالرعاية والتوجيـــه حتى نضجت طاقاته الصحفية . وكذلك فعل الأستاذ الكبير مع الكثير من الشباب .

الفنان الاصيل ، كان ذلك الانسان يحمل كاميرا ويصوبها ذات اليمين وذات اليسار ، ويواجه بها أفواه البنادق والرشاشات الثائرة ، ويلتقط عشرات الصور ، وهو يحسب أن المسألة تمثيل فى تمثيل .

وفى صوت واحد صرخ القائد والضباط « أبطل الضرب .. أوقف الضرب » فسكت بعض البنادق والرشاشات ، ولكن البعض الآخر استمر فى الضرب ، فجرى بعض الضباط نحو القوة المهاجمة واستطاعوا بعد لأى أن يوقفوا كل النيران .

وكان ذلك يحدث فى الوقت الذى كان فيه ذلك المصور المتجول مندمجا فى دوره الفنى المهول ، بينما كان الجمهور منقسما على نفسه .. البعض تبين المأساة التى تجرى امامه ، والبعض لم ير فيما كان يحدث امامه سوى جانبه الهزلى فاستمر فى التصفيق والهتاف .

اما كيف نجا المصور من الرصاص الذى كان جديرا بأن يحول جسده النحيل الى غربال نموذجى ، فان ذلك أمر لا يمكن تفسيره بأى قانون علمى .

واخيرا توقفت النيران وساد المكان سكون رهيب .. ثم قطعت السكون صيحة فزع عالية من المصور . وكان ذلك حين شم رائحة شياط من ياقة قميصه .. وهناك رأى ثقبا لا يمكن أن ينتسب لأقل من رصاصة حارقة .. ولو كانت تلك الرصاصة قد انحرفت بمقدار ملليمترات لكانت قد ذبحته ذبحا شرعيا ، ولكان قد بات ليلتها فى ثلاجة زينهم .

وعلى ضوء تلك الحقيقة ، تبين المصور حقيقة الهول الذى كان يعيش فيه من لحظات .. فسقط للتو مغشيا عليه .

وكان فى اغماءه الخير من حيث لا يدرى ..

فبعد ان كان اقرب الاحتمالات هو قيام القائد والعفاريت بتمزيقه اربا .. جزاءا وفاقا على الانهيار العصبى الذى كاد أن يدفع بهم اليه ، راح القائد والعفاريت يعالجونه من اغماءته ويزودونه بما تيسر من « الفكة » تعويضا له عن تلف قميصه . ورب ضارة نافعة .

وعلى نفس الطرافة والعفرتة سارت الفرقة باسم الله مجراها ومرساها حتى انتهت بدرجة الامتياز لكل العفاريت .

ابو العيون السود فى ستوكهلم

اهل السويد ناس طيبون ، والعفاريت خير من يشهد على هذه الحقيقة ولسبب لا يعرفه الكاتب ـ أو هو يعرفه ولكنه لا يريد أن يفصح عنه ـ فان هؤلاء الناس الكرام يفضلون المصريين على سائر الأصناف الأنثروبولوجية .

وقد تكون للعلاقات بين مصر والسويد أسباب تتراوح ما بين التجارة والسياسة والسياحة . ولكن العلاقات التى سوف نتحدث الآن عنها لا تنتسب فى كثير او قليل الى تلك الأسباب ، وانما يرجع بعضها الى « العيون السود » ويرجع البعض الآخر الى « الليمون البنزهير » . وننتقل الى التفاصيل .

فعن العيون السود ، نقول ان سلاحنا البحرى كان ـ وما يزال ـ يرسل بعفاريته (من الطلبة والضباط) فى رحلات تدريبية ، يدورون فيها بسفن التدريب من حول العالم . وفى خلال تلك الرحلات ينزل العفاريت فى الموانى ويشاهدون الآثار ويزورون المتاحف ويستمتعون بالملاهى .. مثلهم فى ذلك مثل اى قادم الى بلد غريب . أما فى ميناء ستوكهلم فان الأمر يختلف تماما . فما تكاد السفينة تقترب من ذلك الميناء حتى يعلن القبطان والضباط حالة الطوارىء ثم يجهزون

عددا طيبا من القمرات لكى تعمل بصفة زنزانات ، ويعدون بعد ذلك قوة مشتركة من الضباط والطلبة لكى تقوم بدور البوليس الحربى.

أما الطلبة فانهم ينظرون باستسلام الى تلك الاجراءات ، بصفتها شرا لابد منه من ناحية ، وان كان لا تأثير له على ما سوف يكون من الناحية الأخرى .

ثم هم من بعد ذلك لا يقومون بأى ترتيبات معينة ولا يفكرون فى تدبير أى شىء ، اللهم الا اذا كانت عمليات تنعيم الذقون تعد ترتيبا أو تدبيرا لمواجهة ذلك الذى سوف يكون . اما على البر ، فى ستوكهلم ، فان مقدمات ما سوف يكون ، تكون دائرة على قدم وساق .

فما تكاد أخبار سفينة التدريب تظهر فى الصحف حتى تدب الحياة فى تليفونات الصحف ، ويروح عدد مهول من الأصوات الناعمة يسأل عن موعد الوصول .

وما أن تظهر السفينة فى أفق الميناء حتى يشتعل الرصيف بقفزات الابتهاج وصيحات الفرح . ثم يدور صراع من اجل احتلال أقرب الأماكن لسلم النزول .

وفى أكثر من مناسبة انتهت بعض جولات ذلك الصراع باصابات ناتجة عن تخميش الأظافر فى الوجوه الناعمة أو عن « شك القالب » بضربةمقص من كعب عالى ، مصحوبة بجذبة شديدة لخصلات الشعر الأشقر . وكل ذلك يحدث على سبيل السعى للاستيلاء على واحد أو أكثر من آباء العيون السود . وما أن ترسو السفينة على الرصيف حتى يسود الهرج والمرج وتتطاير النداءات والهتافات « من فوج لتحت ومن تحت لفوج » ، فتصيح غزالات ستوكهولم مناديات « اشرف .. جزيرى . رجائى .. اهمد . هاسان . ماجد » . ويزعق العفاريت من فوق الصوارى والمداخن والحواجز « كاتى .. كارولين .. كريستينا .. ميريام » . وفى دقائق يكون الحابل قد

اختلط بالنابل (١) وفقد القائد والضباط وسلطات الميناء سيطرتهم على كل من الغزالات والعفاريت .

وعلى ظهر السفينة يكون سرب الغزالات قد استولى على مقاليدها واحتل كل اركانها واستولى على كل عفاريتها . وبعد مقاومة شكلية يعلن الضباط يأسهم ثم ينزل العفاريت من بعد ذلك وفي يد كل منهم غزالة لا تقل عن انجريد برجمان ــ عندما كانت بنت ١٦ سنة ــ .

ولم يحدث ابدا أن اضطر العفاريت للدخول مع بعضهم فى أى صراع من أجل الغزالات لأن « الخير كتير والحمد لله » . ونقدم هنا صورة « اول سايز » عن عفريت وغزالة .

فقد وقع « اهمد » ما فى يد « انجريدة » ما . وطارت الانجريدة باهمد فى سيارتها الى اقرب مبنى الشرطة وهناك أوقفت السيارة ودعته للنزول ..

وساعتها فتح اهمد الباب وراح يستعد للجرى ولكن الانجريدة ناولته ابتسامة مطمئنة . فهدات مخاوفه ، ونزل وهو يعـــدل كرافتته فى تعاظم . وفى مركز الشرطة راحت تقدمه الى ضابط عملاق وهى تقول « أعرفك بشقيقى » . ولما كانت تلك هى أول زيارة يقوم بها أهمد لستوكهولم ، فانه لم ير فى عملية التعارف هذه الا الخطر ولذا فانه راح يستعد لتبادل كمية معتبرة من اللكاكيم مع شقيق الانجريدة . ولكن الشقيق العملاق تناول يده وراح يهزها فى حرارة ويعبر عن أسفه لارتباطه بنوبتجية وعن تمنياته له ولانجريدة بنزهة سعيدة . وفى السيارة فسرت الانجريدة تصرفها بأن شقيقها كان قد طلب منها أن تريه واحد من العفاريت لأنه يحب المصريين موت .

---

(١) « النابل » هو المقاتل الرامى بالقوس . اما « الحابل » فهو لفظ يمكن ان يكون ذا معنيين ، وكل منهما موافق لمقتضى الحال هنا .

وقد ارعبت هذه البداية اهمد بما كان فيه الكفاية لأن يجعله يطلب منها ان يعود به الى الميناء « وكفاية كده يا جميل » . ولكنها ضحكت واتجهت به نحو أحد المطاعم وهناك تناولا غذاءا طيبا ، ثم دفعت الانجريدة حسابها بعد أن رفضت رفضا مطلقا أن يدفع اهمد سوى حسابه فقط .

اما اين ذهبت به بعد الغذاء فان ذلك ليس من شأننا .

وننتقل الى الليمون البنزهير لأن حكايته أطرف .

فقد كان عفريت بكباشي (من المشـــــاة) يقيم فى مستشفى « سيرافيمار لاساريتت » للعلاج من « انزلاق غضروفى » . وبعد العملية والذى منه ، ظل العفريت مقيدا فى الفراش لاكثر من عشرة أيام ، قاسى فيها الأمرين من الجبس والحقن والأكل المسلوق . ومن بعدها بدأت تمرينات الحركة ، على صور « تاتة خطى العتبة » . وهى تمرينات ليس فيها ما يروق لعفريت لم يتعود على السكون من قبل . وحتى من قبل أن يلتحق بالكلية الحربية ، فانه كان يتضى وقته ما بين المظاهرات والسجون حتى تخلص منه أهله بالحاقــه بالكلية ، وبذلك وضعوا الرجل المناسب فى المكان المناسب ، ثم جاء الانزلاق الغضروفى كنتيجة طبيعية لنشاطه الزائد .

ولكنه وجد فى تمرينات « تاته » من المتعة ما جعله يتشبث بها ويطيل مدتها ، عن طريق البطء المتعمد والتأوه المفتعل . فقد كان يقوم بهذه التمرينات متوكئا على ذراع انجريدة حنون .. ولنفس الأسباب التى تفسر حسن العلاقة بين الانجريدات وعفاريت البحرية كانت الانجريدة الممرضة تشارك العفريت البكباشى فى الاستمتاع بالتمرينات ولا تجد بأسا فى اطالة مدتها .

ومن ثم فقد راحت خطابات العفريت تترى على صديق له ــ كان عفريتا بدوره ــ وفى كل خطاب كان يحكى له بالتفصيل عن التمارين

وعما يجــرى بين سطورها . وراحت تلك الخطابات تثير أعصاب الصديق حتى كاد أن يقع فريسة لانزلاق عصبى فبدأ يفكر فى الانتقام. وكان انتقامه رهيبا ...

فقد طلب منه العفريت ــ ذات خطاب ــ ان يسعفه بأكبر كمية ممكنة من الليمون البنزهير والليمون المخلل . وكان الليمون الأول هو مطلب الانجريدة (١) اما الليمون الثانى فكان لزوم العفريت . وفى آخر الخطاب حكى له سرا خطيرا .. فقد كانت الانجريدة من فئــة المحافظين ، بمعنى انها كانت تؤمن بقدسية الزواج وتحترم روابطه. ولذا فان العفريت كان قد بادر بنزع دبلة الزواج من اصبعه وراح يزعم لها انه عازب « أبا عن جد » . وبذلك وحده (مضافا الى العيون السود) استحوذ على حنانها كله .

وجن الصديق فرحا بذلك السر الرهيب، فطار الى بيت العفريت والتقط فيلما ملونا لزوجته ولطفله الجميل .

وفى اليوم التالى كان قد أتم تحميض الفيلم واستخرج منه صورا شفافة « سلايدز » . وفى مطار القاهرة راح الصديق يلاغى سويديا ظريفا ويرجوه أن يتكرم بتوصــيل خطــاب الى مدير مستشفى « سيرافيمارالخ » ثم انتقل الى مصرى كان مسافرا الى ستوكهولم ورجاه فى توصيل كيس للعفريت وكان الكيس يحتوى على برطمان مفعم بالليمون المخلل «بالعصفر» ثم على خمسمائة ليمونة من خالص البنزهير ...

ولسبب ما وصل الخطاب أولا . وما كاد مدير المستشفى يقرأه حتى تحرك فورا ومعه كل اطباء وممرضات قسم الجراحة . وذعر

---

(١) كان ســعر الليمونة البنزهير الواحــدة يبلغ وقتها (عام ١٩٥٧) ثلاثة كرونات = ٢١ قرش .

العفريت حين اقتحم المدير وشلته الحجرة فى نفس اللحظة التى كان يتوكأ فيها توكؤا تكتيكيا معينا على ذراعى الانجريدة .. على سبيل التدريب على الحركة طبعا ..

ومن بعد المدير والشلة دخلت ممرضتان وراحتا تعيدان العفريت الى الفراش ، ثم تفردان شاشة كبيرة وتوجهان نحوها فانوسا سحريا وتسدلان الستائر على النوافذ . واطفئت الأنوار وانطلقت أشعة الفانوس الى الشاشة .. وهناك ظهرت صور الزوجة والطفل ، ومعها راحت صرخات الاستنكار تعلو من الانجريدة ، مختلطة بهتافات الاعجاب من المدير والأطباء والممرضات . أما العفريت فقد راح ينكمش ويعرق شيئا فشيئا حتى كاد أن يتبخر من الحجرة .

وواضح هنا أن خطاب الصديق كان يشتمل على الصور ومعها رجاء انسانى الى المدير بأن يرفه عن العفريت فى غربته بعرض صور زوجته وطفله عليه بالفانوس السحرى .

وبصرف النظر عن المقالب التى راح العفريت يرد بها ـ بعد عودته ـ على ذلك العطف المهبب الذى اطار الايجريدة من يده الى الأبد ، فانه فى الواقع لم يخسر كل شيء لأن الليمون البنزهير جاءه فى اليوم التالى بالتعويض من حيث لايحتسب ، كما ان الليمون المخلل تسبب بدوره فى تعطيل قسم الجراحة لمدة يوم كامل .

ففى بادىء الأمر راحت وفود الأطباء تتجمع من حول فراش العفريت مستجدية بعض ما أعطاه الله اياه من الليمون البنزهير . ويقسم العفريت ان البعض راح يسأله عن مدى قرابته لآغا خان ، على اعتبار انه ما من أحد يستطيع أن يستحوذ على مثل ذلك القدر من البنزهير سوى أغا خان .

ولم يتوان العفريت عن استغلال الليمون البنزهير خير استغلال فاستعاض عن الانجريدة بعشرات غيرها . وعلى حد قوله « كانت دية الواحدة لمونة .. واحيانا فصين » . أما عن الليمون المخلل فان العفريت راح يفتح برطمانه فى لهفة اثارت فضول انجريدة هيفاء

فراحت تسأله عن تلك الكور الداكنة المحشوة بالنثار الأحمر .

ولم يكن محصول العفريت من اللغة السويدية من الكفاية بحيث يتيح له أن يشرح لها التفاصيل فاكتفى بالانعام عليها بربع ليمونة فأكلتها ثم طلبت منه ربعا ثانيا فثالثا . ثم خرجت الى زميلاتها وعادت بهن ، وطلبت منه أن يمتعهن بذلك « البكلز » العظيم . وكان العفريت جوادا فلم يضن عليهن بالليمــون ربعا وراء ربع ، وراح يزيدهن كلما استزدن حتى اكتفين .

وفى اليوم التالى فوجىء بممرض ينتزعه من الفراش ويقوم له بتمرين الحركة . وحين سأله عن الانجريدات ، أجابه بانهن قـد أصبن بوباء مفاجىء سبب لهن ارتيكاريا . ومن بعد الممرض جاء مدير المستشفى ، وراح يستجوبه عن ذلك « البكلز » المسـموم الذى اعطاه للممرضات . فأقسم العفريت له بأن الليمون المخلل لا شـأن له بمـا حـدث لهن ودلل على ذلك بأن تنـاول امامه ليمونتين معا . ورأى المدير ان الدليل صحيح ، فتناول ربعا ومضغه فاستطابه ، فطلب ليمونة كاملة . وفى اليوم التالى كان المدير طريح الفراش ، بعد ان أحالت الارتيكاريا جلده الأملس الى جلد «ليزيريه»

وحين عادت الممرضات الى العمل راح الليمون البنزهير يؤدى دوره فى توثيق العلاقات بين مصر والسويد بالدرجة التى تضاعف معها بعد ذلك عدد عمليات الانزلاق الغضروفى فى مستشفيات السويد وخصوصا فى مستشفى « سيرآفيمار لاساريتت » .

عبوهاب على كف عفريت

تمشيا مع سياسة هذا الكتاب فى عرض انسانيات الحياة العسكرية ، من خلال طرافاتها . فان الكاتب يود ان يعرض هنا صورة من راى أحد العفاريت فى أغنية أثارت الكثير من الجدل والطرب معا فى مجتمعنا .

فقد خرج المطرب والملحن الكبير محمد عبد الوهاب على الجمهور بقصيدتين من روائع الشاعر على محمود طه ، وصاغهما فى لحنين متطورين ، ثم تغنى بهما ، فأثار الكثير من الاعجاب والتصفيق . ولكن الأمر لم يخل من ارتياع بعض القوم ، فتناولوا الأغنيتين بالنقد من حيث الصياغة أو التلحين .

وكان للعفاريت أيضا رأيهم .. فالبعض منهم رفع عبد الوهاب الى السماء ، والبعض نزل به الى سابع أرض . وحول هذا البعض الأخير نتحدث فنقول أن الكثير من الأحاديث فى الميسات كان يمثل معاركا تكتيكية رهيبة بين أنصار عبد الوهاب وبين شانئيه ، ولكن الكفة كانت تميل فى الغالب لصالح الانصار . وقد امتدت تلك المعارك لسنوات عديدة ، وكانت لا تهدأ الا لتثور . ومن هنا فقد لجأ واحد من العفاريت الى تناول أغنية « الجندول » بالتحليل من زاوية لم يسبقه

اليها احد ، فقد راح يتتبع اخطاء عبد الوهاب فى النطق . ثم قدم هذه الاخطاء من خلال تحليل سرى فى الميسات سريان النار فى الهشيم وكان ذلك لانه استطاع أن يضبط عبدالوهاب متلبسا بارتكاب جريمة نحوية لا ريب فيها (١) .

وقد حصل ذلك التحليل على تأييد عظيم .. متمثل فى شخص شقيق الشاعر على محمود طه . وكان ذلك الشقيق هو « الضبع الأسود » . والضبع الأسود هو المرحوم اللواء السيدطه بطل الفالوجة، الذى صمد للحصار اليهودى عدة أشهر ، واستطاع ان يحطم كل الهجمات التى كان اليهود يهدفون منها الى سحق قواته . ثم عاد بعد الحرب بقواته ، رافع الراس موفور الكرامة .

ومع أن الضبع الأسود كان متحمسا لعبد الوهاب فانه لم يتردد فى الاعتراف بصحة التحليل ،وفى القهقهة بصوته الداوى على اسلوبه الفكه .

وليس يفوتنا أن نشير الى أن عبد الوهاب كان يقدم ــ فى الأربعينيات ــ حفلات فى نادى الضباط بالزمالك ، وكذلك كانت تفعل أم كلثوم . ولعل السر فى توقف عبد الوهاب عن الغناء فى الحفلات العامة يرجع الى ما كان يعانيه من العفاريت ، الذين كانوا يفرضون عليه الاستمرار فى الغناء حتى الفجر . الأمر الذى كان يخرج معه مضعضعا وهو يلف الكوفية حول رقبته باحكام .

وكانت ظاهرة التعبير عن الاعجاب بقذف الطرابيش فى الهواء تسود تلك الحفلات . وكم من مرة أصيب فيها عبد الوهاب بطربوش محكم التسديد . أما أم كلثوم فيبدو انها كانت محجبة ضد الطرابيش .. التى كانت تتطاير من حولها بغير أن تمسها بسوء .

---

(١) الواقع هو أن أخطاء عبد الوهاب النحوية كثيرة فقد أخطأ فى تشكيل « الحقب » فى أغنية « أعجبت بى » ، ثم قلب كيان « كليوباترة » وجعلها « كيلوباطرة » . والمتتبع لاخطاء عبد الوهاب النحوية سوف يجدها كثيرة فعلا .

وفى اليوم التالى لكل حفـــلة كانت عربات الجيش تدور بين الوحدات لاستعادة الطرابيش الفاقدة والمغلوطة . وكم من ملازم فاز ـ من تلك الحفلات ـ بطربوش لوائى مفتخر . ولذا فان عددا من الضباط الكبار كان يحرص على حضـــور تلك الحفلات بأقـــدم طرابيشه .. وحين كان يغلبه الطرب فانه كان يقذف به فى الهواء ويستعوض الله فيه ..

والآن الى التحليل نقدمه ، مع الاعتذار لمحمد عبد الوهاب .. دكتورا كان أم مطربا أم ملحنا أم لاحنا ..

« بحث فى الشعر المعدنى »

اى فن هذا ، الذى يتحول فيه الشعر الرقيق الى معدن جلمد لا نبض فيه ولا خيال ؟ ! . وكيف يصح لحبيب « شرقى السمات » ان يكون « ذهبى الشعر » بكسر الشين ؟ ! ! وحتى لو كان غربى السمات ، فان السؤال يبقى كما هو . ولو كان تفسير تلك الصفة المعدنية للشعر هو أن « عبوهاب » قد قصد أن يخدم الحبيب ، عن طريق تحويل اشعاره الى ذهب بندقى ، لكى يضفى عليه من الثروة ما يجعله اهلا لأن يكون « حبيب الروح وأنس الحياة » ، فان ذلك التفسير يمكن ان يوقع بالحياة الفنية كوارثا تودى أول ما تودى بذلك الحبيب وتدمر مستقبله فى عالم الشعر والغناء معا .

ولنلق الآن بنظرة على الشعر والغناء فى ظل ذلك الانقـــلاب العبوهابى .. ان أقرب الاحتمالات هو أن الحكومــــة سوف تبادر بفرض رسم دمغة على قصيدة الجندول ، ومن بعدها على سائر القصائدوالموشحات . وعندئذ فان كل شاعر سوف يضطر الى عرض انتاجه على مصلحة الدمغة والموازين ، فتقوم تلك المصلحة بدمغ قصيدة بعيار ٢١ وأخرى بعيار ١٨ وهكذا .

أما اذا اكتشفت المصلحة قصيدة من الذهب القشرة فانهـــا سوف تقدم الشاعر فورا الى محكمة الجنايات ويكون نصيبه هـــو الأشغال الشاقة المؤبدة .. ويكون عبوهاب هو السبب .

وقد يدخل الشعر بعد ذلك فى سوق المعادن فيكون هناك شعر فضى وشعر نحاسى وشعر من خالص الالمونيوم . وعندئذ فانك قد تجد نفسك تأكل الأرز بملعقة من نظم البحترى ! . وقد تجد المدام نفسها مضطرة لتصبيع الكفتة وشيها على أسياخ من انتاج أمرىء القيس ! . واعجب من ذلك وأغرب أن يتكأكأ المقاولون وان يتضاربوا على باب صالح جودت .. طلبا لأبيات من حديد التسليح .

وليت كوارث تلك الكسرة الهوجاء « التى مسخ بها عبوهاب الشعر المجدول وأحاله الى شعر مصقول » نقف عند هذا الحد . فأقرب الاحتمالات هو أنها سوف تسرى كالوباء فى تفعيلات الشعر فتجعل من بعضها يورانيوما ومن بعضها بلوتونيوما . وساعتها فان علماء الذرة سوف يحيطونها بالماء الثقيل ويصنعون منها قنابلا هيدروجينية رهيبة .

ولنتصور كيف أنه سوف يكون من السهل جدا ـ عندئذ ـ أن تنسف مدينة فى ضخامة نيويورك ببيت واحد يقول :

قفى يا أخت يوشع خبرينا   أحاديث القرون الغابرينا

واذا حدث المستحيل بعد ذلك وأجدبت قرائح الشعراء وجفت أقلامهم ، من فرط الانهاك فى انتاج الشعر اليورانيومى ، فان علماء الذرة قد يستغيثون بالزجالين فيهب الكثيرون منهم لانتاج أزجال توفر الطاقة للمحركات الذرية . فنرى محركا منها يدور بموال اخضر مثل :

اسمر حليوة ابات الليل اناديله
من بعد طول الجفا هلت قناديله
شكيت له من قسوته وفضلت أبكى له
مسح دموعى بمنديله وصبرنى
من فرحتى رحت بايس طرف منديله .

وقد يحتاج محرك آخر الى موال أحمر مثل :

الحب ده للنسا ، والحرب للأحرار
والكحل للست والراجل لضرب النار
والحلو موش فى اللمى لكن ف أخد التار
روميو انا انما ما تهمنى جوليا
وهمى اعمل عدوى كفته أو ممبار
يا ليـــل ى ى يا عينى ى ى ..

وقسما عظما فان ذلك الموال الأخير قد يحرق موتور المحرك الذرى فيضطر العلماء الى تخفيف تركيزه ببيت يقول :

واشكى لمين الهوى والكل جوا البار ...!!

وبعـــد

فان هذا البحث العميق فى موضوع « الشعر المعدنى » يستحق منا وقفة أخيرة ، نستمتع فيها بفن أم كلثوم الرفيع .

وسوف نرى المسرح حفلتئذ وقد احتشد فيه الأوركستر ، وراح فيه العازفون يضبطون آلات الموسيقى ، ويستعدون لظهور كوكب الشرق . وسوف نلاحظ من الوهلة الأولى أن ضابط الايقاع يمسك بيده قرص رادار هائل ، أما السوليست « احمد الحفناوى » فانه سوف يلعب بقوس من الفولاذ على أوتار كمنجة من طراز « القلاع الطائرة » . وعن عازف القانون فانه سوف يفاجئنا باخراج مفاعل ذرى رهيب من مخلاته ، ثم يروح يلعب عليه بأصابعه ، ونحن نتهامس بالدعاء لله بأن يوفقه الى تقاسيم غير انشطارية .

وسوف نشاهد من بعدها العواد وهو يحتضن عودا لا يقل حجمه عن « دبابة شيرمان » أما لاعب التشيلو فاننا سوف نجده شديد الشبه بالعلامة أينشتين .

ثم تظهر سومه وتلوح لنا بمنديل لا تقل مساحته عن باراشوت كامل ... ومن بعدها فانها سوف تشدو باغنيتها الخالدة :

اهل الهـوى يا ليل   مصـــوا صوابعهم
واتفرقعوا يا ليـل   بومبـه وأنا معهم
عبد الوهاب يا ليل   هوه اللى خادعهم

وخلى شعر الهوى يبقى دهب قشرة
وتوبة ان كنت اغنى أو أطـــاوعهم

وهذه مجرد عينة من جنايات عبد الوهاب على الشعر والشعراء وعلى الطرب والغناء ...

بين فريد شوقى وسلة الأرواح ..

أنيس منصور كاتب ولا كل الكتاب ، فهو « بتاع كله » .. يكتب فى كل شيء وعن أى شيء ، بطرافة وذكاء . وذلك لأن ثقافته متسعة ولأنه فيلسوف . ولذا فانه يستطيع أن يقنعك بأن المكرونة تنمو بكثافة فى وديان القمر وبأن الحبر الذى يستخدم فى تصحيح أوراق الامتحانات يجيء راسا من البحر الأحمر وبأن قدماء المصريين كانوا يستخدمون عسل النحل فى التحنيط ، وبأن الأرواح تتخذ من السلة محلا مختارا ... وكذلك كان عفريت معين .

وكان ذلك العفريت (١) فى رتبة المقدم ، وكان كاتبا وشاعرا وناثرا وزجالا وفيلسوفا ومؤرخا وصحفيا ومحاميا وقاضيا (عسكريا) وعازفا للبيانو ورساما ، وكان من أقانيم رقصة التانجو ، وكان حاجا .. وكان مربيا للدواجن ، وكان زارعا للطماطم (زرعها فى أصص بشرفة بيته وجنى منها بضعة كيلو جرامات) ، ولم يكن ينقصه سوى ان يستحضر الأرواح ... وقد فعل .

---

(١) ليس هو عفريت « الزواج من بنات الجان »

فقد استهوته دعوة أنيس منصور الى استخدام السلة ، بصفتها أسرع وسائل الاتصال بالعالم الآخر . ومع أن أنيس منصـور كان يهزل بلا شك فى تلك الدعوة ، ومع أن العفريت كان قد تبين عنصر الهزل فيها بدوره ، فانه لم ير بأسا فى مشاركة الأسرة والأصدقاء فى جلسات السلة التى غمرت مجتمعنا وقتئذ .

وفى ذات جلسة طبت حسناء كانت هى وغصن البان ســواء بسواء . وفى لهفة وجهت الحسناء الى السلة سؤالا عن مصـــير والدها ، الذى كان واقعا فى قضية رهيبة . وكان العفريت يمسك عندئذ بطرف السلة ، فلم يتمالك نفسه أمام سحر غصن البـان ودفع بالســلة قسرا نحو الورق ، فراح القلم المطل منهــا يكتب .. « الوالد سيحكم عليه ، ولكنه مع ذلك سوف يعود الى البيت قريبا بغير أن يمسه ضرر » . ومع أن تلك النبـــوءة كانت من السفنجورية بحيث لا تجوز على طفل ، الا أن العفريت كان مطلعا على تفاصيل القضية وكان يتوقع ادانة والد غصن البان ، ولكنـه أيضا ــ لأسباب معينة ــ كان لا يستبعد حصـــول الرجل على العفـــو .

وبالحرف الواحد تحققت النبوءة ... فأدين الرجل ، ثم حصل على عفو ، وعاد الى بيته مطلق السراح . وكان ذلك النصر دعاية هائلة للعفريت فراحت تتقاطر عليه وفود ذوى الحاجات والقضايا . ولولا انه استمسك بعلمه ورفض أن يتابع مسيرة السلة لكان الآن من أساطين علم الميانجة ، ولكان قد حقق أحلامه فى امتلاك مائة عمارة وخمسين عزبة فقط لا غير .

المهم ، هو أنه استمر فى السلك العسكرى وراح يتابع هواياته ودراساته ويرفض أن يقترب من السلة ، الى أن فوجىء ذات ليلة بدعوة لم يستطع لها رفضا . فقد كانت صاحبة الدعوة هى الزوجة الثانية لقريب له ، وكان ذلك القريب من كبار المنتجين السينمائيين .

وكانت السيدة من شهود النبوءة السفنجورية ، ولذا فانهـا دخلت فى معركة حامية ضد فريد شوقى ، عندما راح الأخير يحلف « بشرف أمه » بأن السلة عبارة عن « بكش فى بكش » .

وفى ايمان مطلق هجمت السيدة على التليفون ودعت العفريت الى الحضور لكى يدافع عن سمعته الروحانية . وسـاعتها كان العفريت قد انتابه الملل من المذاكرة (كان يستعد لامتحان ليسانس جامعى) فرأى أن يرفه عن نفسه بمعركة يفرج فيها فريد شـوقى على « نجوم الضهر » .

وانطلق العفريت بعربته الى العنوان الذى زودته به السـيدة ــ وكان شقة فى عمارة بحرى ، بميدان التحرير ــ وقبل أن يضغط على الجرس سمع فى الشقة ضجة هائلة ، وكان « شرف أم فريد شوقى » على رأس تلك الضجة . . . فلعب الفأر فى عب العفـريت وراح يفكر فى الهرب . ولكنه فوجىء بالسيدة وهى تفتح الباب وتدعوه الى الدخول . . فقد كانت تنتظره على نار .

وفى الصالة وجد الآتين بعد : سعيد أبو بكر (وكان هو صاحب الشقة) وزينب صدقى وفطين عبد الوهاب وجمال الليثى وفريد شوقى وليلى مراد ومن حولهم ممثلون وممثلات كثر . .

وكان العفريت لا يعرف منهم أحدا الا عن طريق الصحف فقط ، لأنه كان ــ ولا يزال ــ من هواة الأفلام الأجنبية . وفى أقصى الصالة كان يربض مصور صحفى ومعه مندوب لمجلة « الجيل الجـديد » . وساعتهـا قال العفريت لنفسـه أن الليلة « موش حاتفوت على خير » . ثم راح يسير مع السيدة ، التى راحت تعرفه بالنجـوم والنجمات وتقدمه لهن ولهم فى زهو شديد . أما هو فانه كان يتشدد ويتجلد فزعا من شماتة فريد شوقى . ولقد عرض عليه البعض كأسا من الشراب الذى قال فيه الشاعر :

وكأس شربت على لذة　　واخرى تداويت منهـا بها
لكى يعلم الناس انى امرؤ　　اتيت الفتوة من بابها

ولكن العفريت آثر ان يدخر طاقته لمعركة السلة و « يا قاتل يا مقتول » .

وبدا العفريت كلامه مع اهل الفن قائلا « اولا ما فيش داعي للريبورتاج ، واذا كان ولا بد فانا اشترط الا يذكر اسمى فيه » ، فقال الجميع ـ باستثناء فريد شوقى ـ « ماشى » . وبكل بساطة جلس العفريت وتصدر المائدة ثم اختار السيدة ليلى مراد والسيدة زوجة قريبه واسبغ عليهما شرف الامساك بالسلة . ثم راح يتمتم ببعض الأدعية ، على سبيل تهيئة الجو للروح المرتقبة ، وان كان فى الواقع قد راح يستغيث بالأولياء ضد فريد شوقى .

وبكل عظمة سأل الحاضرين « عاوزين روح مين ؟ » فكان الاجماع هو « روح سليمان به » . وذعر العفريت فقد كان لا يعرف من البهوات السليمانيين غير مستشار كان صديقا لوالده ...

وراح يعصر ذاكرته بحثا عن سليمان يشترط فيه ان يكون بيكا وان يكون فنانا وان يكون ميتا . وجاءته النجدة على لسان فريد شوقى . فقد لاحظ ربكته فصاح به « ما تخلصنا بقى يا بو عرب » ومع ان العفريت لم يكن أبا عرب . فانه تذكر للنو بيتا كان يقول :

الجوع والفقر والافلاس والجرب　　ولا يكون رئيسى مصطفى العرب

وكان قائل هذا البيت هو مصطفى نجيب وكان ابن مصطفى نجيب هو سليمان نجيب . وللتو صفق العفريت بيديه وصاح مخاطبا السقف « سليمان بك نجيب ييجى حالا » فتحركت السلة وراح القلم يكتب « عاوزين ايه منى يا ولاد الـ ... » ودوت صرخات الفزع من الفنانات وتراجع الفنانون فى انبهار ، بينما تكتكت بعض

الأسنان ، واصفر الكثير من الوجوه ... وكان ذلك لأن تلك العبارة ظهرت على الورق وهى مكتوبة بالحروف اللاتينيـــة ... كما أن ما اشتملت عليه من سباب كان من لوازم سليمان نجيب المرحة .
وبكل ذهول راحت ليلى مراد تصيح بأن السلة تتحرك قهرا عنهـا وأنها لا تستطيع السيطرة عليها ، وكذلك كانت تهتف شريكتها .
وراح سعيد أبو بكر يخبط كفا بكف وهو يقول « عشنا وشفنا » .
أما فريد شوقى فانه احتمى بشرف أمه وراح يكذب ما يراه رأى العين .
وتراوح الباقون بين التكذيب والتصديق حتى صاحت واحـدة من الصبايا « يا جماعة سليمان بيه كان يكتب انجليزى لبلب ... دا حتى كل تمثيلياته كانت مقتبسة من المسرح الانجليزى » . وتقـدم عندئذ جمال الليثى والقى بسؤال رهيب « اذا كنت انت سـليمان بيه فتقدر تقوللى ايه اسم أول فيلم عملناه ســوا ؟ » . وتلجلج العفريت للمرة الثانية .. فاذا كان قد أفلت بمعجزة ــ سـيأتى شرحها ــ من المأزق الأول ، فان ضياعه كان مؤكدا مع الســؤال الثانى لأنه لم يكن قد شاهد اى فيلم لسليمان نجيب كما انه لم يكن يعرف هل جمال الليثى ممثل أم مخرج أم مصور ؟ (علم فيما بعد أنه منتج كبير) . ورأى العفريت أن يأخذ لنفسه هدنة ، فلعـل وعسى . فهتف « السلة مضطربة جدا .. الفاتحة الفاتحة .. » فرفع الجميع أيديهم وراحوا يقرأون الفاتحة فى خشـــوع وما أن وصلوا الى خاتمتها حتى تحركت السلة وراح القلم يكتب ــ بنفس الحروف اللاتينية ــ « فيلم الآنسة حنفى » .

ودوى التصفيق عاليا وراحت الأكف تصافح العفريت وتهنئه على قدراته الروحانية المهولة . وكانت الوحيدة التى حافظت على هدوئها هى زينب صدقى . أما فريد شوقى فيبدو أن البعض نبهه الى صفة العفريت العسكرية فآثر أن يكتفى بالتعبير عن رأيه فى السلة بلسانه ، بعد أن كان قد شمر عن ذراعيه فى بادىء الأمر . وللحقيقة والتاريخ فان فريدا استطاع أن يضم الى رأيه أكثـــر من ثلث

المدعويين بينما نجحت السيدة فى الحصول على اغلبية الأصـــوات لصالح العفريت . وبين تحيات الاكبار والاعجاب (والوجل أيضا) خرج العفريت مرفوع الراس موفور الكرامة . وســـجلت مجلة الجيل الجديد تلك الجلسة فى ريبورتاج ممتع .

ويجىء الآن الاوان لتفسير تلك المهزلة التى اشترك فيها انيس منصور محرضا .. والعفريت .. فاعلا أصليا .. والسيدة قريبته والسيدة ليلى مراد شريكتين (بكل حسن نية) . فقد كانت السيدة تركية ، وتركيا ـ منذ عهد كمال أتاتورك ـ تكتب وتقرأ بالحروف اللاتينية . ومن هنا جاءت كتابة السلة بتلك الحروف . فقـد كان ايمان السيدة بالعفريت يمثل دافعا لا شعوريا ، جعلها تبادر بدفع السلة الى الورق وتكتب ذلك الكلام على لسان سـليمان نجيب ، وكانت تعرف ـ بحكم كونها زوجة منتج ـ كل شىء عنه . وكانت حقيقة تعودها على الكتابة بالحروف اللاتينية (وحتى حقيقة كونها تركية) مجهولة تماما من الحاضرين . وقد تبين العفريت ذلك من الوهلة الأولى . اما عن ليلى مراد فانها كانت قد تلبشت بما كان فيه الكفاية لأن تنسـب حـركة السـلة لروح سليمان نجيب ، الذى كان بطبيعته شخصية آمرة مسيطرة .

وبتلك الحقائق البسيطة استطاع العفريت ان ينتصر فى معركة السلة ، وأن يكسب تلك المباراة السفنجورية من فريد شـــوقى بالنقط .

ولسوف يقسم فريد شوقى ـ عندما يقرأ هذه الذكرى ـ بشرف أمه بأنه كان على حق . وسوف يسعد العفريت بذلك لأنه أصبح يحب فريد شوقى ويستمتع بأفلامه .

شهر مع الشياطين

يتشرف اتحاد العفاريت بدعوة الآنسات والسيدات والسادة من قراء هذا الكتاب لمشاهدة عـرض خاص لستمائة شيطان مفترس وذلك فى تمام شهر أغسطس سنة ١٩٦٤ بمعسكر التربية الرياضية بابى قير .

الرجا ارتداء الدروع والتسلح بالمسدسات .

وهذه الدعوة هى المقدمة الصحيحة لذكريات استغرقت الشهر المذكور من السنة المشار اليها بعاليه . ولكن وقائعها كانت أقـرب ما تكون الى وقائع العصر الحجرى القديم . وليس يستبعد الكاتب أن يهب علماء الانثروبولوجى ويطالبون بالحصـــول على الشياطين الستمائة باعتبار أنهم يمثلون الحلقة المفقودة بين العصر الكمبرى وبين الحقب الأركى ، أو أنهم قد يكون هم النسخ الأصلية لانسان هايدلبرج أو نياندرتال ...

وتبدأ هذه الذكرى بتلغراف تلقاه عفريت عقيد ، كان يصيف في بور سعيد . وكان التلغراف يطلب منه العودة فورا الى مقر عمله بقيادة التربية العسكرية (فى ادارة الحرس الوطنى) . ولم ير العفريت ولا أسرته اى غرابة فى ذلك . فمنذ تعفرت برتبة الملازم ثانى حتى وقتها لم تخل أجازة واحدة من استدعاء تلغرافى (للحرب أو للطوارىء أو لمأمورية ـ وحتى لمراجعة حسابات البوفيه .. تلقى تلغراف استدعاء ... ـ) وكان أول ما تفعله زوجة العفريت بمجرد الوصول الى المصيف هو اعداد حقيبته مع تجهيز ساندويتشات طوارىء لزوم السفر الفورى . ولا يحسبن القارىء أن عفريتنا هذا كان مصابا بجاذبية تلغرافية خاصة فذلك هو حال العفاريت فيما مضى وفيما هو آت .

وعاد العفريت الى القاهرة ، وهناك فجع حين تبين أن ثقافته المتعددة الجوانب (كان يعد رسالة الماجستير ، بالاضافة الى بكالوريوس وليسانس وحفنة دبلومات) قد تسربت انباؤها الى الادارة فرأت فيها خير حل لمشكلة كانت تؤرقها وتحرمها من لذيذ المنام .

فقد كانت الادارة تقيم عددا من المعسكرات الصيفية للمعاهد والكليات وكان بعض تلك المعسكرات يتشكل من الحور العين (أى من الطالبات ، بلغة وزارة التعليم العالى) . وتلك كانت معسكرات لطيفة المعنى والمبنى ، وكانت مشاكلها تقع على عاتق مدرسات التربية العسكرية . أما دور العفاريت فيها فكان قاصرا على الاشراف على الشئون الادارية وبرامج التدريب . أما البعض الآخر من المعسكرات فكان هو جهنم الحمراء التى يفر فيها المرء من أمه وابيه وصاحبته التى تأويه .. لأنه كان يتشكل من الطلبة الشياطين . وكان من بين تلك المعسكرات معسكر طلبة التربية الرياضية فى أبى قير . وهنا تقف جهنم الحمراء فى تواضع أمام ذلك المعسكر الرهيب الذى استطاع أن يدفع ـ فى سنته الأولى ـ بقائدة الى حافة

المحاكمة العسكرية ، ثم استطاع ــ فى سنه الثانية ــ أن يدخـــل قائده فى انهيار عصبى متكامل . وفى السنة الثالثة (١٩٦٤) راح القادة المرشحون لقيادة ذلك المعسكر يتسابقــون الى « كشف المرضى » والى « الأجازة السنوية » . ومن لم يســـتطع منهم ان يتحصن بهذا أو بتلك لم يتردد فى تقديم استقالته .. ووقع عفريت من الادارة على الحل المنقذ حين رشح العفريت المثقف ، وقال عنه انه خير من يستطيع التعامل مع شياطين التربية الرياضية .

وأبى العفريت المثقف على نفسه أن ينهزم امام ذلك التحدى فقبل المهمــة وتوجه الى الاسكندرية (بعــد أن زار مقام الحسين وقدم بعض الابتهالات الضرورية ، ثم تزود بمصحف كريم ونسخه من كتاب « الحصن الحصين ») .

وقبل ان ندخل مع العفريت من بوابة المعسكر ، نقـــول ان المعسكر كان مخصصا لطلبة المعهد العالى للتربية الرياضية فى الهرم وطلبة المعهد المماثل له فى أبى قير ، وكان عددهم ستمائة لا ينقصون واحـــدا .

وليتصور القارىء شبابا فى مثل تلك الســـن الشيطانية التى تزخر بالطاقة وتتفجر بالحيوية .. شبابا يدرس ويمارس ــ ليل نهار ــ الملاكمة والمصارعة والسباحة ورفع الأثقال وقــذف الرمح ورمى الجلة والقفز العالى والنط فوق الحصان واللعب على المتوازيين والشقلبة على العقلة ، الى آخر الأفانين البهلوانية (لدرجـــة أن بعضهـــم كان يمشى على الحبـــل ــ مع أن ذلك غــير مقـــرر فى الدراسة) .

ليتصور القارىء مثل هذا الشباب كيف يكون وكيف يفعل وهو فى معسكر اجبارى لا بد له أن يجتازه بنجاح (فقد كانت مادة التربية العسكرية من مواد الرسوب) والا تعطل حصوله على البكالوريوس .

ونقطع الحديث لنقدم طريفة تناسب الأوصاف السابقة ، من حيث دلالتها على الديناميت الذى يجرى فى شباب التربية الرياضية مجرى الدماء . فقد حدث أن التقى عفريتنا المثقف على طالبـــات

المعهد العالى للتربية الرياضية (بالجزيرة) محاضرة فى التـاريخ الفرعونى . وقد شرح فى المحاضرة مدى اهتمام الشابات فى مصـر القديمة بالرياضة ومدى تفوقهن فى أداء الحركات الصعبة والرقص التوقيعى . ولم يفته أن يحشو المحاضرة بالبهارات ، مثـل توافق الكثير من الألفاظ بين اللغة الفرعونية وبين اللغة العربية (ست ـ قمح ـ سوسن .. الخ) ومثل وفاء الزوج المصرى القديم لزوجته ومثل مقالب الحريم فى قصور الفراعنة . وبدلا من أن يتلقى التصفيق المعتاد فى خلال المحاضرة فانه كان يتلقى من الطالبات هتافات كانت تتخللها قفزات أوليمبية ، كان بعضها ينتقل بصاحبته من الصف الأخير الى الصف الأول وبالعكس .

وندخل الآن مع عفريتنا الى المعسكر ، حيث استقبله العفاريت الضباط فى لهفة شديدة . وفى اقل من نصف ساعة كانوا قد حكوا له ما يكفى لتلوين شعره بلون الثلج الناصع . ففى خلال الساعات السابقة على افتتاح المعسكر كان الشياطين الطلبـة قـد افترسوا وهم فى طريقهم الى المعسكر :

عـدد

٣ كمسارى فى قطار ابى قير .
١ كمسارى فى الأتوبيس .
٢ قهوة يراودها فى أبى قير .
١ تاكسى (بسائقه) .

أما فى الساعات الثلاث السابقة على وصول العفريت القائد فقد فتك الشياطين بكل محتويات المطبخ وهى نصف مطهوة . ثم راحوا يهددون العفاريت الضباط بأنهم سوف « يخلوها ضلمة » ان لم يحصلوا على الغذاء فى موعده المرسوم .

وبادر العفريت القائد بسد الذرائع على الشـياطين ، فأمر بصرف كمية مضاعفة من الأرز والبهارات وطهيها على الفور ، كمـا

انه استطاع ان يحصل من مزرعة قريبة على كمية ضـــخمة من الجوافة . وبذلك استطاع ان يعرض هدنة استمرت الى قــرب المغـــرب .

وتفاديا من ان تؤدى الصورة الشيطانية السابقة ـ وما سوف يليها من صور ـ الى تهرب العائلات من تزويج بناتها لخـــريجى المعهدين . فاننا نبادر هنا بتقديم تفسير له قيمته . من حيث أنه صدر عن نفس العفريت القائد . فهو يقول انهم أبناء طيبون ولكن شيطنتهم ترجع الى ظاهرة فــيولوجية تسمى « هايبر اكتفيتى » (الحركة الزائدة) وهى تنتج عن وفرة الطاقه فى سن الطفـــولة والشباب بحيث لا يكون هناك بد من اطلاق هذه الطاقة باى شكل، ومنها الشكل العدوانى ، ثم يقول انه لو أحسن توجيه هذه الطاقة لحققت « الجروث والديفيلوبمنت » (اى النمو والتكاثر) . ويحسن بنا أن نقف عند هذا الحد والا دخلنا مع العفريت فى الغميق من أغوار علم النفس ، وقد يتركنا هناك فلا نستطيع العودة .

المهم هو أنه دخل مع الشياطين فى مباراة سيكو بدنية .. هم يأكلون أضعاف التعيينات المقررة بغير أن يجد الشبع سبيلا اليهم .. وهو يلعب بكل أوراقه فى ســبيل اشـباعهم . فآنا يقترض التعيينات من معسكر آخر وآنا يشترى لهم الفاكهة من المزادات وأحيانا يحول بعض بنود الميزانية الى الأكل . وبهذه الطريقـــة استطاع أن يحصل على قدر كبير من حبهم وولائهم ، فكانوا ـ فيما عدا احترافهم لتحطيم زجاجات اللبن (بعد شربه) ـ يؤدون دورهم فى التدريب والدراسة على أحسن ما يكون .

ومن الجانب الآخر فانه من الانصاف القول بأن العفـــاريت الضباط ، كانوا ـ بحكم تعودهم على قيادة الجنود فى ظل النظـام العسكرى الصارم ـ يضيقون بالشــــياطين ذرعا ، وكان العكس صحيحا بطبيعة الحال . ولكن العفريت القائد داب عــلى محاضرة ضباطه فى فن القيادة وعلم النفس ، كما انه بادر بتنظيم العــلاقة

بينهم وبين الشياطين على اسس نصف عسكرية ونصف مدنية . وبذلك استطاع أن يصلح ذات البين بين الطرفين ، فصار الشياطين - للمرة الأولى فى تاريخ المعسكرات - يؤدون التحية القانونية للعفاريت . ولما كانت احذية الشياطين - فى طوابير البيادة - طرز خدمة عمومية . فان تلك التعظيمات الشيطانية تسببت فى بعض الأحيان فى تحطيم الأرضيات الخشبية التى تكتظ بها قاعات وملاعب المعهد .. الامر الذى كاد معه عميد المعهد (عندما تسلمه فى نهاية الصيف) أن يرفع على العفريت قضية « رد خشب » . وفى الأسبوع قبل الاخير أقام العفريت حفلا استعراضيا كبيرا ودعا اليه كل قيادات الاسكندرية العسكرية والمدنية . وقد صمم الشياطين على أن يبيضوا وجهه ، فرسموا هم فقرات البرنامج ونفذوها كما لو كانوا من الأبالسة . وبمناسبة تبييض الوجه نقول أن واحدا منهم كان اسمه فعلا هو الابيض (عبد الرحمن الأبيض) ، وكان متخصصا فى السياحة الكعابى .. اذ دار حول العالم عدة مرات بهذه الطريقة (وقد تزوج بعد تخرجه وراح يمارس نفس الهواية ومعه زوجته .. وان الكاتب ليحيى فيهما هذه الروح الرياضية المشرفة) . وقد ساهم الأبيض فى الحفل بطابور اختراق ضاحية من رشيد لأبى قير ، وقطع المسافة فى وقت قياسى .

أما عن فقرات البرنامج فكانت العابا يعجز أجدع سيرك عن تقديمها . فقد راح أحد الشياطين يتشقلب على العقلة ، وراح المتفرجون يصفقون له . فاذا به يستحلى التصفيق فيندمج فى الشقلبة ويظل يدور ويدور على العقلة حتى كلت الأيدى من التصفيق أما هو فلم يبد عليه أقل شعور بالتعب وظل يتشقلب كما لو كان جسده يعمل بزمبلك سرمدى . ومن بعده تناول شيطان أسمر عقلة المرجيحة ثم استوى فوقها واقفا وراح يتأرجح كما لو كان بندولا كهربائيا لا تقل قوته عن مليون ميجاوات . وكان يندفع بالمرجيحة فيبلغ عنان السماء ثم يعود بها فيبلغ نفس العنان من

الناحية الأخرى . وبينما كانت الأكف تلتهب بالتصـــفيق لذلك « الترابيز » الألكترونى اذ به ينقذف الى الفضاء فى سرعة قريبة من سرعة الضوء . ولولا رحمة الله لكان قد عبر حـــزام فان الن وخرج عن نطاق الجاذبية الأرضية . ويعلم الله وحـــده أين كان سيحط رحاله لو كان قد بلغ « طريق التبانة » . ومن يدرى .. فلعله كان يمكن أن يجد هناك كائنات تحتاج الى دروس فى التربيــة الرياضـــية .

ونعـــود اليه وهو منطلق فى الفضـــاء فنجد انه بسط ذراعيه ثم دار حول نفســـه ثم مد ذراعيه الى اســـفل ثم نزل فى غطســة انتحارية نحو منصة كبار الزائرين فهب هؤلاء وقوفا وتراجعوا الى الخلف وهم يتكأكأون . ولم تنس قرينة موظف كبير أن تطلق صيحة « يادهوتى » التقليدية وهى تتشبث بذراع زوجها ، الذى كان فى مرمى الشيطان الهابط مباشرة .

أما الطالبات المتفرجات فقد انتفضن كالسوست (بفتح السين الثانية) وصحن فى نفس واحـــد « يا مامى » ، وذلك باســـتثناء واحدة منهن كانت صيحتها هى « يامه » . وفى نفس اللحظة التى توقع فيها الجميع أن يروا الشيطان وقد حفـــر براسه فى الأرض نفقا أو تفكك فوقها الى « ستميت حتة » اذ به يضرب فرملة هائلة وهو على ارتفاع بضعة أمتار ثم ينقلب عقبا على راس ويقف كالطود أمام اللـــواء « ضيف الشرف » ويتنـــاوله تعظيما كأحسن ما يكون التعظيم . وفى بديهة حاضرة ناول احـــد العفاريت العمـــداء قبعته للواء ــ الذى كانت التكأكؤات قد انتقلت بقبعته الى كرسى بعيد ــ فلبسها الأخير ورد على تعظيم الشيطان بتعظيم لوائى متين .

ومن بعد الشيطان الفضائى ظهر عـــدد من الشياطين وراحوا يستعرضون عضلات الفك فقط لا غير ... فقد جلسوا على الأرض واوقدوا نارا ، وراحوا يشوون عليها عددا من هوام الأرض (ضفادع

ـ ثعابين ـ سحالى) ثم يأكلونها متلذذين (١) . ثم ظهر اثنان من الشياطين ومعهما مقلاة واستادنا آكلى الهوام فى استخدام الموقد فأذنوا لهم . وبعد قليل فاحت من المقلاة رائحة عبقة ، فتناول كل من الشياطين ملعقته وراح يغترف من المقلاه ويأكل فى فجعنة شديدة . وشاءت فتاة ـ يبدو انها كانت خطيبة واحد منهما ـ أن تستطلع كنه ذلك المأكول . فاقتربت منهما وراحت تمعن النظر فى المقلاه . وللتو أغمى عليها . . . فقد كانت المقلاه ممتلئه حتى حافتها بالنمل المقلى ، من طراز « حرامى الحلة » .

وتتالت الفقرات الشيطانيه من بعد ذلك . . . فهذا شيطان يظهر من الفراغ وهو يمتطى دراجة بغير جادون (ذراع قيادة) وبغير مقعد وبغير اى شىء سوى بدالين واطار غير منفوخ ، وذاك شيطان دخل بموتوسيكل وراح ينشقلب عليه . ثم كان يتركه ثم يعود اليه ثم يركب عليه بالمقلوب حتى ضاق به الموتوسيكل درعا ، فانتهز فرصة تخلى الشيطان عنه ـ فى ذات حركة ـ فنقل من نفسه الى « السرعة الثالثة » وانطلق فى خط مستقيم حتى تعانق هو وجدار الملعب عناقا شديدا .

ثم تناول شيطان جديد أحد « المتوازيين » وراح يلعب عليه لعبا انتهى بدخول ذراعه الأيمن فى الجبس لمدة شهر بعدها .

ولم يترك الشياطين فى تلك الحفلة فنا من فنون الشيطنة الا واستعرضوا عضلاتهم فيه . . . حتى السباحة « فبركوا » لها فقرة كاد المتفرجون أن يموتوا من فرط الضحك عليها . فقد راح فريق منهم يتبارى فى السباحة الكرول على النجيلة .. ثم خرجوا من حمام النجيلة وقد اصطبغوا باللون الأخضر البهيج .. ويقال ان زهور البسلة البرية قد نبتت على صدر واحد منهم فى الربيع التالى . وسارت بقية فقرات على نفس ذلك النمط الشيطانى وانتهى الحفل بنجاح كبير . وننتقل الى الذكرى الختامية ، فنقول ان

---

(١) تلك هى الاكلة المفضلة لرجال الصاعقة .

العفريت القائد خرج منها بعقدة نفسية من « البينج بونج » . وهو ما يزال حتى الآن ينطقها « كنج كونج » ... وهو اسم يذكره رواد السينما فى الثلاثينيات بقشعريرة ، سببها هو ذلك الفوريلا الهائل الذى كان بطل الفيلم ، والذى بلغ من عتوه انه كان يتسلق ناطحة السحاب « امبايرستيت » كما يتسلق الأطفال شجرة الجميز .

فبعد الحفل الرياضي سارت الأمور بين العفاريت والشياطين على احسن ما يرام وصار الجميع « سمن على عسل » .

وأقبل الشياطين على المرحلة الختامية من التدريب بكل الرغبة والاخلاص حتى بلغوا أعلى مستوى ممكن . وراح العفريت القائد يفرك يديه ـ ذات ليلة ـ ارتياحا ورضاءا بما حققه المعسكر من نجاح . وذكرته عملية فرك اليدين بهوايته المفضلة وكانت هى عزف البيانو . وهناك ، فى اقصى صالة الجيمنازيوم رأى ضالته « البيانو » ، فاتجه اليه وضغط على دواسة تخفيض الصوت ثم راح يعزف قطعة كانت اثيرة لديه ثم انتقل الى غيرها ثم اندمج فى العزف ونسى نفسه تماما وعاش ساعة كاملة مع الألحان . ثم وقع اختياره على لحن « والله زمان يا سلاحى » لكى يكون مسك الختام لذلك الحفل الموسيقى ، الذى كان يحسب انه هو مستمعه الوحيد . واذ بالجيمنازيوم يتجاوب مع اللحن بزئير ستمائة حنجرة شابة .

« والله زمان يا سلاحى   اشتقت لك فى كفاحى
انطق وقول انا صاحى   يا حرب والله زمان »

فقد كان الشياطين والعفاريت قد تسللوا آحادا وزرافات وافترشوا أرض الجيمنازيوم وراحوا يستمتعون بالألحان فى ادب أوبرالى ، ثم اشتعلوا مرة واحدة بنشيد « والله زمان يا سلاحى » فراحوا يزأرون ويجأرون ويصاحبون العزف بالدق باقدامهم والتصفيق بأيديهم .

وانتهى النشيد فهجم الشياطين على القائد العازف وانتزعوه من بين اصابع البيانو وحملوه على الأعناق ، وداروا به وهم يهتفون ويهللون . وراح العفريت يحييهم بكلتى يديه ويشكر حفاوتهم ويحاول ان يهبط على الأرض بسلام ، ولكنهم لم يتركوه الا بعد أن خطب فيهم مبتدئا ببيت يقول :

يوم أغر وليلة غراء
نعم الصباح وحبذا الامساء

ومختتما ببيت يقول :

شكرا على ما بدا من صدق ودكموا
فانني من صميم القلب ممنون (١)

فردوا عليه بالهتاف ثلاثا « يا .. يعيش » . واتجه العفريت الى مكتبه لكى يعد التقرير الختامى عن الدورة التدريبية ، وهو يحسب ان الأيام القليلة الباقية سوف تمر بنفس اللطافة التى مرت به تلك الأمسية الموسيقية . ولو كان يعلم الغيب لاختار أن يختم الدورة ويصرف الشياطين الى بلادهم فى اللحظة التالية على نزوله من فوق أعناقهم .

فبينما كان يكتب التقرير ، وهو يدندن فى سعادة ، اذ به يسمع زئيرا شديدا الشبه بزئير البخار وهو ينطلق من مداخن ستمائة باخرة « كارجو » . ومن أول لحظة لم يخدع العفريت نفسه ولم يحاول أن ينسب ذلك الزئير لأسباب حسنة .. فقد كان قد سمعه فى أيام المعسكر الأولى مرات ومرات ، عندما كانت العلاقات بين الشياطين والعفاريت متأزمة .

وخرج من مكتبه وهو يسأل خفى الألطاف ان ينجيه مما يخاف .

وهناك ، وفى وسط ارض المعهد ، وفى تمام الساعة الحادية عشر

---

(١) البيت الاول اقتبسه العفريت من شاعر مجهول ، والثانى اقتبسه من الشاعر اسماعيل باشا صبرى .. ولكنه لم ير بأسا فى تجاهل تلك الحقيقة يومها .

مســاء (بتوقيت أبو قير) وفى معسكر للتربية العسكرية لا يضــم سوى الذكور فقط ، كانت تقف عشرون آنسة من ســلالة هاروت وماروت ، و هن يرتدين جوبات رمادية وجاكتات رياضية مرسوم عليها شعار اتحاد « كرة الطاولة » . وامامهن كان يقف صف من جنود المعسكر ويشكلون سدا منيعا يحول بين الشياطين الصارخين وبين الوصول اليهن . وكان نجاح ذلك السد نسبيا .. لأن أكثر من شيطان كان قد اجتازه بطريقة الوثب العالى ، كما قفز واحد منهم بالزانة وسقط فى وسط كتلة الصبايا بالضبط . أما الشــياطين الذين كانوا فى عنابر النوم (وكانت تقع كلها فى الطابق الثانى) فان نظرة واحدة من النوافذ أقنعتهم بأن الوقت اثمن من أن يضيعوه فى النزول على السلالم ، فانطلقوا من النوافذ فى قفزات فضائية كادت معها سماء المعسكر أن تتحول الى ميدان لمعركة جوية حاشدة . وكم من شيطان اصطدم بآخر وهما فى الجو . وكم من ثالث وصل الى الأرض وهــو مســتقر على كتف رابع . وكم من خامس تكوم على الأرض فوق سادس وسابع وهكذا ...

وجرى العفــريت القــائد وهو يفرك عينيه كمــا لو كان يرى كنج كونج بمخالبه وانيابه وليس البنج بونج بأوانسه والعابه . وبين الزئير والجعير من الشياطين وبين الولولة من ذوات السحر المبين ، تقدم وخاض فى بحر الظلمات حتى رسى على بر البنج بونج .

وهنــاك تقــدم اليه ســيد مهيب ، كان يرتدى نفس الجاكت الرياضية ، واعطاه خطابا كان موجها من الوزارة الى عميد المعهد ، وفيه تقول انه تقرر عقــد دورة كذا وكيت للبنج بونج فى معهــده العتيد ، كما تقــرر أن يقيم فريق اللاعبات المصريات فى المعهد طيلة أيام الدورة . ورد العفريت على السيد المهيب بأن تنفيذ ذلك القرار قد يكون ممكنا فى معهد التربية الرياضية بكوبنهاجن أو فى « جزيرة السبع بنات » أما فى أبى قير و « سيادتك كلك نظر .. ولا أراكم الله مكروها فى بنج بونجات لديكم » ، ثم أشار نحو الشياطين المتواثبين

اشارة تغنى عن كل مقال . ولكن السيد ــ ومعه السادة أعضاء لجنته الادارية ــ اجاب العفريت بما مفاده « اخنا فى عز الصيف ولن نجد من الدخيلة الى ابو قير اى مكان للانسات سواء فى فندق او بنسيون ، والآن منتصف الليل ، وربنا يجعل معسكرات المحسنين عمار » . وللتو ارتفعت أصوات الشياطين بالموافقة على ذلك الدعاء الأخير ودخلوا فى الرجاء والتوسل من أوسع الأبواب ــ بعد أن راحوا يشيرون لبعضهم (من تحت لتحت) بالتزام الحشمة والوقار ــ ولكن العفريت أصم اذنيه عن توسلات الجانبين وامر العفاريت الجنود بتركيب السناكى على سبيل التأكيد .

ودوت قعقعة السناكى مصحوبة بصيحة « هوب » المرعبة (١) ، فتراجع السادة البونجيون وانضموا الى كتلة الصبايا البنجيات وراحوا يتبادلون الرأى . وكاد رأيهم أن يجتمع على المبيت فى الشارع ، بعد أن راوا انه لا سبيل لهم الى المبيت فى المعهد الا على اسنة السلاح .. ولكن الصبايا كان لهن رأى آخر ... وهو رأى لا يستخدم الكلمات للتعبير عن نفسه ، وانما هو يستخدم سلاح الدموع استخداما مباشرا ... وكم من معارك كسبها ذلك السلاح الحاد منذ دخلت به حواء فى معركة التفاح التاريخية المشهورة .

وبذلك السلاح .. سلاح الدموع اللؤلؤية .. كسبت الصبايا المعركة من الطلقة الأولى . فقد كان العفريت رقيق القلب ــ ولا يصدقن أحد أن الرداء العسكرى يلغى أو يضعف من العواطف الانسانية ، بل ان العكس هو الصحيح ــ ولذا فانه ما كاد يلمح أول دمعة ويسمع أول نهنهة حتى رفع الراية البيضاء ، فانقطع سيل الدموع وهلل الشياطين وراحوا يزفون اللجنة والصبايا الى عنابر كانت تقع فى متناول عنابرهم .

---

(١) لعلم القارىء فان السونكى (شكلا وفعلا وتركيا) اكثر من مرعب . وقد فعل الافاعيل ببنى اسرائيل فى كل معركة وقعوا فيها فى متناول العفاريت .

وبادر العفريت بتشكيل لجنة « امن ووقاية » من أركان حربه والسـيد المهيب وبعض العفـاريت وبعض الشياطين (اللذين يمكن الركون الى ضمائرهم) . وقامت اللجنة بتخصيص العنابر المحصنة للمحصنات ذوات الصـون والعفـاف ، وبتخصيص عنبر للجنتهن الادارية ، ثم أنها ـ وهو الأهم ـ قامت بتشكيل داوريات حراسة مسلحة بالبنادق والرشاشات (المعمرة) ، ورسمت بعد ذلك خط الحدود الدولية . ثم اصدر القائد الأمر باطلاق النار فى « المليان » على كل من يعبر خط الحدود بغير تصريح كتابى .

ومن عجب أن أيام دورة البنج بونج مضت بغير حادث يذكر . وكاد العفـريت ان يتهم فرويد بأنه كان على خطأ مبين فى اتهاماته لـلاد ID (النفس السفلى) .. وهى اتهامات اشهر من ان نحتاج لذكرها هنا . فقد كان الشياطين يروحون ويجيئون ويزاولون نشاطهم العادى بكل هدوء ، وكان الواحد منهم يمر بالصبايا وبخط الحدود وبراءة الأطفال فى عينيه !! ..

وكم كان فخر العفريت واعجابه بالشياطين حين علم ـ بعد جلاء البنج بونجيات ـ ان الشياطين كانوا قد شكلوا محكمة عسكرية رياضية ، وان هذه المحكمة قد تولت النظر فى خمس قضايا ... كان المتهمون فيها قد ارتكبوا جنـاية « المعاكسة » . وقد أصدرت تلك المحكمة الشريفة أحكاما رهيبة ضد الخمسة ، فقد تم « عزق » أحدهم بالبونيات ، واستهلك جسد ثانيهم عـددا طيبا من فـروع الشجر ، وحرم الثالث والرابع من الأكل تماما لمدة ٣٦ ساعة . أما الخامس فقد « اخذها من قصيرها » وهرب من المعسكر .

ولا شك فى ان القارىء يتفق مع العفريت فى ان وقوف المعاكسات عند نسبة تقـل عن ١ ٪ ، لهو حقيقة بالغـة الدلالة على مجـدعة الشياطين و « كفى المرء نبلا أن تعد معايبه » .

وانفض المعسكر على خير ، وعاد العفريت الى القاهرة ، مزودا بعقدة الكنج كونج ، وبصداقات عديدة مع الشياطين .

يا مواكب العصافير

انى لتطربنى الخلال كريمة   طرب الغريب بأوبة وتلاق
ويهزنى ذكر المروءة والندى   بين الشـــمائل هزة المشتاق

بهذين البيتين لحافظ ابراهيم ، نفتتح الحديث عن ذكرى جمعت بين الطرافة والمروءة ، كما انها تجربة انسانية ، يهديها الكاتب الى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

فقد تلقى عفريت عقيد امرا بتسلم قيادة الحرس الوطنى فى احدى مدن القنال . ومن طبيعة الحرس الوطنى أنه كان يختلف كثيرا عن الجيش فى نظمه وفى تشكيلاته وفى واجباته . ومصدر ذلك الاختلاف هو ان مقاتليه كانوا من المـــدنيين الذين لا تنطبق عليهم شروط الخدمة العسكرية ، كما أن تشكيلاته كانت تخضع ــ من حيث الادارة ــ للمحافظين ، وكانت تخضع ــ من حيث التدريب والعمليات ــ للقوات المسلحة .

وبديهى أن الضباط والصف ضباط والجنود كانوا من القوات المسلحة . وبذلك يكون هؤلاء الأخيرون قد وقعوا بين شقى الرحى ،

أو بتعبير أقرب الى مزاج المجمع اللغــوى ، يكون الحرس الوطنى مشكلا من شاطر ومشطور وبينهما طازج (١)

وذلك كله كان من طبيعة الأمور ، وليس هناك كبيرا اختلاف بين الحرس الوطنى فى مصر والحرس الوطنى فى غيرها من البلاد .

وبين متطلبات الضبط والربط العسكرى وبين ضرورة مراعاة المزاج المدنى المتحرر للتطوعين ، كان العفاريت يعيشــون فى حــيرة نسبية . وكان بعضهم يتشبث بتطبيق القيـــود العسكرية على المتطوعين . وكان بعضهم يؤثر ان يريح نفسه من « وجع الدماغ » فيترك المتطوعين على «حل شعرهم» . وكان البعض يحاول ان يمشى على الحبل بين الطرفين .

وتلك ديباجة لا ترتبط كثيرا بأحداث هذه الذكرى ، وانما هى تصور الاطار العام الذى جرت بداخله تلك الأحداث . ولقد فرضت طبيعة تشكيل الحرس الوطنى بعض المتاعب على العفاريت . وكان اقسى تلك المتاعب هو مشكلة « اليمك » فقد كان عدد الجنود والصف ضباط فى كل معســكر أقل من ان يسمح باقامة مطبخ اميرى . وكان الحل هو صرف « بدل تعيين » لهم . وهو حل أشبه ما يكون بأن يقوم رب الأسرة بتقسيم ميزانية الطعام على « الجماعة » والاولاد ثم يطلب من كل واحد منهم أن يأكل على كيفه . فتكون النتيجة هى أن يتحول أحد الأبناء من تدخين السجائر الفرط الى تدخين السجائر « السوبر كنج سايز » ، وأن يتجه ابن آخر الى ريون الحراير فى « الصالون الأخضر » ، ويضع يده على قميص من فاخر الحــرير « ٥٥.. » ، وان تدور الابنة الكبرى على المكتبات لتجمع روايات « روميو وجوليت » و « مجنون ليلى » و « تحت ظلال الزيزفون » و« الوسادة الخالية » ، ثم تقضى الليل وهى تقرأ وتنشج وتذرف العبرات ... ، أما « الجماعة » فان قراطيس « الجاوى » و « عين

(١) يعنى ساندوتش ٥٥

العفريت » و « المخشبان الهنـــدى » و « الكلخ » و « العكنـــة » و « الحنتيت » سوف تكون هي مشترواتها المفضلة . أما عن مطالب المعدة فانها تقع فورا تحت بند « صوموا تصحوا » . وفى قول آخر ، فانها تقع بين اقنومين لا ثالث لهما .. الفول والطعمية .

وكان ذلك هو ـ مع اختلاف طفيف فى التفاصيل ـ نفس حال جنود الحرس الوطنى .

ولذا فان العفريت العقيد ، لم يتمالك نفســـه من الفزع حين استعرض الجنود . فقد كان كل منهم يلبس ساعة يد من أفخر ما يكون (وارد البمبوطية طبعا) ، وكانت جيوبهم تزدحم بدائرة سجائر كاملة (من افخم الاصناف العالمية) ، بل ان واحدا منهم بالذات كانت تستقر فى مخلته علبة من سيجار تشرشل المفضـــل « كورونا كورونا » .. ولكن التناقض كان صارخا بين هاتيك المفاخر وبين ضلوعهم التى كانت لا تكاد تربطها بأجسادهم غير سواتر من الجلد الرقيق .

وعاد العفريت الى مكتبه وعقد مؤتمرا من الضباط لدراسة ذلك الحال الرهيب ثم خرج من المؤتمر بهم أكثر وغم أفدح . فقد كان انشاء المطبخ مستحيلا ، وكان « بدل التعيين » يحتاج الى أستاذ فى الاقتصاد لكى يستخرج منه طعاما مشابها « لليمك الميرى » (١) . وكانت السيطرة على أهواء الجنود أكثر صعوبة واستحالة . أما عن مرتباتهم « فكل سنة وانت طيب » لانها كانت تتوزع (فى تمام الدقيقة التالية لقبضها) بين قمطر صاحب مطعم الفول وبين كيس ذلك النصاب الذى كان يمتلك كوزا من الصفيح الصدىء وموقد كيروسين ويصنع للجنود مخلوطا رهيبا من نقيع نشـــارة الخشب واقراص السكارين ، ثم يزعم لهم ان هذا هو الشاى ! وبين حوالات البريد

(١) بكل التأكيد ، فان الطعام الذى يصرف لجنود القوات المسلحة ، يبلغ من الجودة والوفرة حدا يستحق لتسجيل والتقدير .

المرسلة الى الزوجات فى النجوع والكفور . ولم يستطع العفريت يومها ان يسيغ للاكل ولا للنوم طعما .

وفى اليوم التالى طلب العفريت من مدير شهم لاحدى الشركات ان يبعث الى المعسكر بحمولة لورى من « السبلة » وجاءت الحمولة فأمر بتفريغها وتوزيعها على ارض المعسكر ، ثم راح ينشىء حديقة جميلة . وعلى « السبلة » راحت تحط اسراب العصافير وهى تزقزق وتتبادل صفافير الفرح والابتهاج .

وعندما اطمأن العفريت الى ان الموجات الأولى من العصافير بدات تستقر فى الحديقة الناشئة راح يتحفها بكميات كبيرة من أردأ أنواع الشعير . وللتو انطلق أكثر من فيج (١) من العصافير ، ثم عاد كل منهم وهو يقود أسرابا متلتلة .

وفى خلال أيام قليلة كانت الجالية العصافيرية قد تضخمت الى الحد الذى صارت تمثل فيه جيش احتلال رهيب . وكان ذلك هو ما يبتغيه العفريت . فأصدر اوامره بخروج جميع بنادق الرش من المخازن ، ثم صرف بندقية وعلبة رش لكل جندى . ثم أمر باطلاق الرش فى « المليان » على العصافير . وسقطت الأخيرة بالعشرات ثم بالمئات، وللتو أقيمت عشرات المواقد وفاحت فى الجو رائحةالعصافير المسلوقة . وتناول كل جندى يومها مالا يقل عن نصف كيلو من لحم العصافير الشهى .

وفى الأيام التالية ، كنت لا ترى فى المعسكر الا بنادقا مصوبة ، ورشا منطلقا ، وعصافيرا صرعى و « جفنات غر يلمعن بالضحى » . وفى أقل من شهر كانت الضلوع قد بدات تختفى تحت كساء من اللحم . وظهرت آثار البروتين العصافيرى على الوجوه السمراء فراحت تتحول الى اللون الوردى البهيج .

---

(١) الفيج : هو حامل الرسائل (فارسية معربة) .

اما بائع نقيع نشارة الخشب فقد اضطر الى استبدال النشارة بالشاى والى بيع ما لديه من أقراص السكارين لاقرب شربتلى ، ثم بدأ ـ للمرة الأولى فى تاريخه النقيعى ـ يضيف السكر السنترفيش الى الشاى . ومن الضرورى أن نقرر هنا أن ذلك التطور العظيم فى صناعة الشاى لم يحدث فجأة وانما هو بدأ بشلوت رهيب ، أنعم به العفريت على بائع النقيع . وقد أثمر ذلك الشلوت تحولا مباشرا من النشارة الى الشاى . أما استبدال السكارين بالسكر ، فقط تطلب عددا محترما من الشلاليت التى كان القائد الثانى يجيـــد تصويبها ، بحيث انها كانت تقع دائما فوق الكثيب الأيسر من مؤخرة البائع .

أما خسائر صاحب مطعم الفول فقد كانت نسبية بحتة ، لأن الجنود رفضوا باباء وشمم أن يتنازلوا عن تناول الفول والطعمية فى وجبة الافطار . وكان بعضهم يدفع ثمن افطاره عصافيرا . .

وشيئا فشيئا راح الحال يتغير فى المعسكر . فقد دب النشاط فى الفتيان الجنود ، وصار التدريب جـــديا ، وأصبح المتطوعون يضطرون الى الجرى فى طابور الصباح . الأمر الذى اضطر معـه معظمهم الى الحضـــور ومعهم الوقود اللازم من الســاندوتشات والفطائر .

ومن بعدها أثمرت «مواكب العصافير» سوقا رائجة «للفجافيجو» وكان ذلك السوق يقع وراء المعسكر مباشرة . .

وذات صباح استدعى العفريت صول التعليم وامره بان يجمع الجنود ويتوجه بهم الى المستشفى الأميرى . وهناك طلب من طبيبة وحدة نقل الدم أن تستصفى نصف لتر من كل جندى .

وحسب الصول (وكان سمينا مربربا) أن الأمر خاص بالجنود وحدهم ، فراح يدور عليهم ويجهزهم لعملية الاستصفاء ، شاخطا

هنا ، وناظرا هناك . أما الجنود فكانت ردود فعلهم شتى . فالبعض منهم تحمس وكشف عن ذراعه وراح يتقدم الصفوف ، والبعض وقف مشدوها وهو يحسب أن سحب الدم منه سوف يتم عن طريق الطعن بالسونكى . أما الأقلية ، فقد تجمع جنودها حول بعضهم كالبنيان المرصوص ، وأعلنوا بأنهم سوف يدافعون عن دمائهم الغالية بالأرواح والدماء ! ولتفعل القوة ما تشاء .. ولكن حدث ما جعلهم يتدافعون الى المقدمة ، ويتنافسون على المركز الأول . فقد رأوا العفريت العقيد وهو يكشف عن ذراعه ويسخو بدمه . ثم سمعوه وهو يزجر الصول ويدفع به نحو الابرة ذات الخرطوم . وتم سحب دماء الجميع على خير . وكان زهو الجنود يومها كبيرا . فقد شعر كل منهم بأنه قادر على العطاء ، واستعاد ثقته بنفسه كاملة . وكان ذلك هو قصد العفريت .

وبعد شهور نقل الى قيادة أخرى وودعته على محطة الاوتوبيس جموع العفاريت الجنود والضباط فى أسى كبير ، بينما راحت مواكب العصافير تزقزق وهى تحسب أن محنتها قد انتهت .

ولم يكد الأوتوبيس يقطع المائتى متر الأولى حتى دوت أصوات بنادق الرش فى المعسكر . وابتسم العفريت فى ارتياح كبير .

بركات مبروك

يدين الكاتب بشكر شخصي لعفاريت اكتوبر ، فلولاهم لكان من المحتمل ان يقضي ـ هو وكل صاحب سيف أو قلم ـ بقية عمره وهو يترافع امام محكمة التاريخ ، مؤكدا أن جيش مصر برىء من نكسة سنة ١٩٦٧ ، وان الجيش الاسرائيلي كان قد تلقى على وجهه الصفعة تلو الصفحة منذ صباح ٥ يونيو حتى مساء ٧ يونيو حيث صدر أمر الانسحاب الذي لا يمكن تفسيره بأي منطق تكتيكي معقول ، ومنذ تلك اللحظة انفتحت ابواب سيناء على مصاريعها لجيش اسرائيل .

وابتداء من مساء ٧ يونيو راح ذلك الجيش يهاجم المواقع الخالية بكل بسالة ومهارة ... وراح يضارب التلال ، ويقاتل الصخور ، ويصارع الوديان ، بكل ما لديه من أسلحة متطورة تكاد أن « تلعب لوحدها » ... وكم من معركة رسمها الكواهين والشواليم ، من كل جنرال وجنرال ، توردت خدوده بخيرات الاستعمار والصهيونية ... من كل ما يشرح القلب من بان كيك وآبل باي وفراخ (بلا جمعية) وويسكي دمبل ودراي جن .. وكانت تلك المعارك تنتهي دائما بالنصر المؤزر على التلال والوهاد ، وبأسر كل ما بها من حصى وأحجار ورمال .

أما ضربة الطيران فانها تمت بعد أن جرى تكتيف القيادة المصرية بالخديعة التى دبرت بليل ، والتى تمثلت فى تبليغات وتأكيدات دبلوماسية ــ خادعة ومخدوعة ــ بأن اسرائيل لن تكون البادئة بالهجوم .. وكان الهجوم الاسرائيلى الغادر .. وكان أمر الانسحاب الخاطىء .. وكانت النكسة .

وهكذا شرب عفاريتنا مرارة هزيمة لم تكن لهم فيها يد . ولكنهم لم يستكينوا ابدا ، بل راحوا يعدون ويستعدون لجلسة الاستئناف التى عقدتها محكمة التاريخ فى ساحة سيناء فى تمام الساعة ١٤٠٥ من يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، والتى حصل فيها العفاريت على حكم باعدام أسطورة الجيش الاسرائيلى الذى لا يقهر .. تلك الأسطورة التى صنعتها معامل الحرب الصهيونية النفسية بغير أن يكون لها ظل من الحقيقة .

ويود الكاتب ان يسجل هنا لقطة لعفاريت ١٩٦٧ ، تغنى عن كل تعليق .

فحتى غروب شمس ٧ يونيو كان أحد العفاريت المقدمين مشتبكا بكل قوته مع قوة اسرائيلية مدرعة (عند أم اكتاف) .

وكان العفريت مضيافا ، فلم يبخل على المهاجمين بشىء من الذخيرة وراح يعطيهم بسخاء مما أعطاه الله ... من كل قنبلة حارقة أو دانة خارقة . ورأى قائد القوة الاسرائيلية أن بطون مدرعاته قد أتخمت بتلك الوجبة الثقيلة ، فأبلغ قيادته بأن غالبية المدرعات قد ماتت بالتخمة ، وان الباقيات منها تعانى من عسر الهضم .. و « ياتلحقونا يامتلحقوناش » . وكانت قيادته فى منتهى الشهامة ، فقرات أن تلحقه بثلاث من الموجات المدرعة ... من باب « لعل وعسى » . ولم تأخذ كل من تلك الموجات « أكثر من غلوة » فى يد العفريت ، فقد كان « الخير كثير والحمد لله » . ومن الدشم والخنادق راحت قوات العفريت تتحف موجات الضيوف باطباق

فاخرة من القذائف المحمرة ومن الرصاص بالكارى . ولقد فاتنا أن نذكر ان عفريتنا كان مشهورا باجادة اعداد صنف معين ، هو طبق « اللغم بالبشامل » ، وانه كان قد فرش الأرض (حول مواقعه) بكميات مهولة من ذلك الصنف . الأمر الذى احال عدد محترما من دبابات الضيوف الى « بسيسة » ... وقد انتهت تلك الوليمة العفاريتية على غير ما كان الضيوف يشتهون ... فبدلا من أن يعودوا الى بيوتهم راقصين على أنغام الفرح ولعلعة الزغاريد ، فانهم عادوا راقدين فى صناديق مستطيلة ، كانت تسير « بطيئا مارش » بين هتافات « ماكانش يومك يا سبعى » . أما الأقلية الساحقة من الضيوف فقد ظهر أفرادها بعد شهور وقد استبدل كل منهم ساقا او ذراعا بأخرى مصنوعة من أفخر أنواع الخشب والبلاستيك .

وفى نهاية الوليمة بعث العفريت « بتقرير نجاح » الى قيادته ثم راح يمشى بين العفاريت الضباط والجنود ويتبادل معهم التهانى على نجاح الوليمة ..

وبعد قليل دق جرس تليفون الميدان ، فتناول العفريت السماعة وهو يفرك يديه ابتهاجا بما سوف يسمعه من تبريكات ومعها « على الأقل كام ترقية استثنائية ، محبشبين بشوية نياشين ، لزوم الجدعان » . ومن السماعة جاءه النبأ اليقين « كل القوات تنسحب الى غرب القنال » ، فقهقه العفريت وهو يقول « بايخة » ، فكرر المتحدث النبأ وهو يكاد يبكى ، فصاح به « دا موش وقت هزار يا جدع أنت » ، فأجابه المتحدث « الأوامر كده » ثم أنهى المحادثة . وبينما كان العفريت يضرب يدا بيد (وهو أقرب الى الظن بأن محدثه ـ وكان من أعز أصدقائه ـ قد أصيب بجنون مفاجىء ، أو انه « بيلعب لعبة بايخة ») دخل عليه ضابط الاشارة وقدم اليه ورقة وهو يقول فى لهجة مأتمية « اشارة يافندم » ، فتناول الاشارة ليجد فيها نفس الأمر التليفونى « كل القوات غرب القنال .. أفد بالتنفيذ » .

وما من تعبير يكفى لتصوير حال الرجل وضباطه وجنوده ساعتها فقد راح معظمهم يشد فى شعره وتجاوبت الخنادق والدشم بصيحات « ليه ؟ . . علشان ايه !! حصل ايه ؟ . . دحنا مبهدلينهم ! اذا كان على الطيران يتعوض . . الخطوط سليمة يا عالم . . دافلان ورجالته جوه خطوطهم ب ١٢ كيلو » . على أن الرجل لم يجد بدا من الطاعة على اعتبار ان القيادة لديها ما يبرر أوامرها ، وانها هى الأدرى بالموقف الكلى فى الميدان .

وهنا يود الكاتب أن يقرر أن عددا من العفاريت الآخرين قد رفض اطاعة امر الانسحاب هذا ، وقاتل حتى آخر طلقة .

المهم هو أن العفريت اطاع الأمر واخلى الموقع ، وتحرك برجاله فى اتجاه الاسماعيلية . بعد ان دمروا كل الأسلحة الثقيلة ، ولم يحملوا معهم سوى البنادق والرشاشات .

وجاء الصباح ومعه مئات الطائرات الاسرائيلية ، التى راحت تجرف الطريق وتهاجم العربات واحدة بعد أخرى من سماء مفتوحة تماما ــ ومن ارتفاعات تتجاوز مدى طلقات البنادق والرشاشات ــ وقرب الظهر كان العفريت قد خسر كل عرباته ، بكل ما كانت تحمله من ذخائر ومهمات وتعيينات ، وراح ساعتها ينظر فى أسى الى الحطام ، ثم ينظر فى اعجاب الى رجاله وهم يطلقون نيران البنادق والرشاشات على طائرات الميراج . ولكنه تنبه الى عدم فاعلية تلك النيران ، فصاح « ابطل الضرب » ، فسكتت البنادق والرشاشات . ثم انصرفت الطائرات بعد أن استنفذت ذخيرتها ، فضرب العفريت يده فى جيبه سعيا وراء سيجارة فلم يجد فى الجيب علبة سجائره الفضية ، فالتفت نحو أقرب جندى ــ وكان اسمه مبروك ــ وطلب منه سيجارة .

وفى تعاظم ضرب مبروك يده فى عبه وأخرج العلبة الفضية بعينها

وراح يعزم على العفريت بسيجارة منها فسأله الأخير « جبت العلبة دى منين يا واد ؟ » فأجاب الواد فى تعاظم « اشتريتها من شاويش خواجه » (يعنى شاويش من البوليس الدولى) ، فزعق فيه « هاتها يا حرامى » ، فهتف مبروك فى ذعر « على الطلاج أنا شاريها » . فقال العفريت ــ وكان يعرفه جيدا ــ « أولا دى علبتى أنا ، وثانيا إنت مش متجوز !! » ، فسقط فى يد مبروك وقدم العلبة للعفريت فى خضوع . وساعتها دوت قهقهة عالية من عفريت ملازم ، تبين ما فى الموقف من طرافة ، فجاوبته قهقهة من عفريت ثالث . فلم يتمالك عفريتنا من الضحك وعندئذ ضحك مبروك بدوره .. واذا بالصحراء تدوى بالضحكات .. فقد راح شهود الموقف يضحكون ، ثم رأى العفاريت الآخرون أن يجاملوهم فراحوا يتضامنون معهم فى الضحك قبل أن يعرفوا السبب ، حتى جاءهم التفسير « الواد مبروك كان مهلب علبة سيجارة القائد » . وبسرعة أمسك العفاريت بالفرصة وراحوا ينفسون عما لقوه من الميراج « الواد ده لازم من كفر أبيب » ، « دى العلبة هى اللى نطت فى جيبه » ، « دا القائد كان مدخن قوى » ، « اذا كان العلبة من فضة فالتهليب من دهب » ، « يكونشى الدخان ده ذاتى الحركة ؟! » .

وبعد قليل القى العفريت بعقب السيجارة ، ثم نهض لكى يستأنف الرحلة ، ولكنه عاد الى العقب والتقطه ثم أطفأه ووضعه فى العلبة وهو يقول « مين عارف .. يمكن نحتاج له » . ثم أمر الرجال بالانتشار على جانبى الطريق ، وراح يسير بهم الى الاسماعيلية ، وقد استعاد الكثير من مرحه وحيويته .

ولاحقتهم الميراج طول الطريق ، وكان بعض طياريها ينتابه الطمع فينزل الى ارتفاعات واطئة لكى يجرف العفاريت بالرشاشات ، فكان العفاريت يتغدون به قبل أن يتعشى بهم . وقد استطاع العفريت ورجاله أن يسقطوا أكثر من طائرة قبل أن نفدت منهم معظم الذخيرة . ومن بعدها رأى العفريت انه سوف يصبح هو ورجاله

أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وأن نيران الميراج سوف تنهال عليهم بعد ذلك « مثلما الرز » ، فرأى أن يلجأ الى الحيلة ، فأمر بفرز الذخيرة المتبقية ، واستخرج منها الطلقات الملونة والطلقات المضيئة ، ووزعها على العفاريت وأمرهم بأن يطلقوا منها بحساب على الميراج .

ونجحت اللعبة وصارت الميراج تنحرف بعيدا كلما لمح طياروها تلك الطلقات وهى تحدث خيوطا دخانية متشابكة فى السماء .. فقد ظن الكثيرون منهم أنها صواريخ أرض/جو .

وما كادت الرحلة المضنية تقترب من نهايتها ـ صباح يوم ١٠ يونيو ـ ، حتى فوجىء العفريت ورجاله بسرب من الميراج وهو يهاجمهم وكأنه مصر على الا يدعهم يصلون الى القنال .وكان قائد السرب ، كما يقول العفريت « فى غاية اللماضة » ، لأنه راح يدور بطائراته من فوقهم ثم يهاجمهم المرة تلو المرة بقنابل لا حصر لها ، حتى حسب العفريت أنه يصطحب معه « نزلا » كاملا للذخيرة . وشعر العفريت بأن ذلك الضرب المتدارك قد بدأ يؤثر فى معنويات رجاله ، ولاحظ أن تصويب الطلقات لم يعد بنفس الدقة والاجادة السابقتين . وتذكر حكمة معنوية تقول « ليس الرجل بالسلاح وانما السلاح بالرجل » . وساعتها لمح مبروك وزميلين معه ، وهم ينظرون اليه فى أمل وثقة ، فأومأ اليهم مشجعا . وكأنما كان مبروك ينتظر تلك الايماءة ، لكى ينفذ فكرة كانت تدور فى خلده فقد انتفض واقفا وراح يشير الى أقرب ميراج وهو يهتف « ادعواله ادعوا له .. » !! فجاوبه زميلاه « يخرب بيت .. » !!

واتجهت ساعتئذ انظار كل العفاريت الى مبروك ، فعاد يشير الى الطائرة ويهتف « ادعوا له ادعوله .. » فجاوبه القائد وكل العفاربت فى ابتهاج » « يخرب بيت ... » ثم راحت قهقهاتهم

تدوى بتلك الضحكات التى لا يجيدها غير أبناء شعب طالما دوخ الغزاة وهزم الطغاة ، شعب لا يبطره النصر ولا تخضعه الهزيمة، ولا يفقد ابتسامته فى الحالتين . .

وحين لمس العفريت ذلك الأثر المعنوى الساحر ، الذى أحدثته دعوات مبروك رأى ان يكافئه ، ففتح علبته الفضية وسحب منها عقب السيجارة اليتيم ، الذى لم يكن قد بقى فيها سواه ، ثم قدم العلبة هدية خالصة اليه . وفى فرحة طاغية ضرب مبروك العلبة فى عبه ، ثم راح ينظر بشىء من الحسد الى العفريت وهو يشعل العقب . فضحك العفريت وناول العقب لمبروك وهو يقول « تخمس » ؟!

ومنذ فترة التقى الكاتب بالعفريت وراحا يستعيدان الذكريات ، ويتبادلان أخبار ابنائهما من عفاريت اكتوبر . وقال الكاتب « شفت فلان وفلان والعمايل اللى عملوها فى بنى صهيون . . دول خربوا بيتهم » ، فقال العفريت ـ فى تواضع ـ «دى من بركات مبروك» فسأله الكاتب مندهشا « ازاى ؟ » فقال « مبروك حارب بشجاعة فى ٦٧ ، وبعدها كان تعليمجى ممتاز ، وجدد خدمته مرتين ، وكان بطل فى اكتوبر واخذ بتاره من بنى صهيون ، ثم ماتنساش انه كمان دعا عليهم . . »

((تم الكتاب))

كتب للمؤلف

مؤلفـــات :

* ❋ اضواء على الحرب النفسية . (المكتبة الثقافية ـ الهيئة العامة للكتاب) .
* ❋ قضية عمان . (مكتبة الأنجلو المصرية) .
* ❋ الارهاب الصهيونى . (كتب قومية ـ الدار القومية للطباعة والنشر) .
* ❋ ليالى الخير . (الدار القومية للطباعة والنشر) .
* ❋ دعـــاء . (الشركة المصرية للطباعة والنشر) .
* ❋ دعاء الأولياء .
* ❋ الغواصة .. تاريخ .. ومغامرات .. ومستقبل .
* ❋ ذكريات العفاريت . (دار الشعب) .
* ❋ اضواءعلى الهرم الأكبر .
* ❋ الدكتور ابليس . مسرحية .

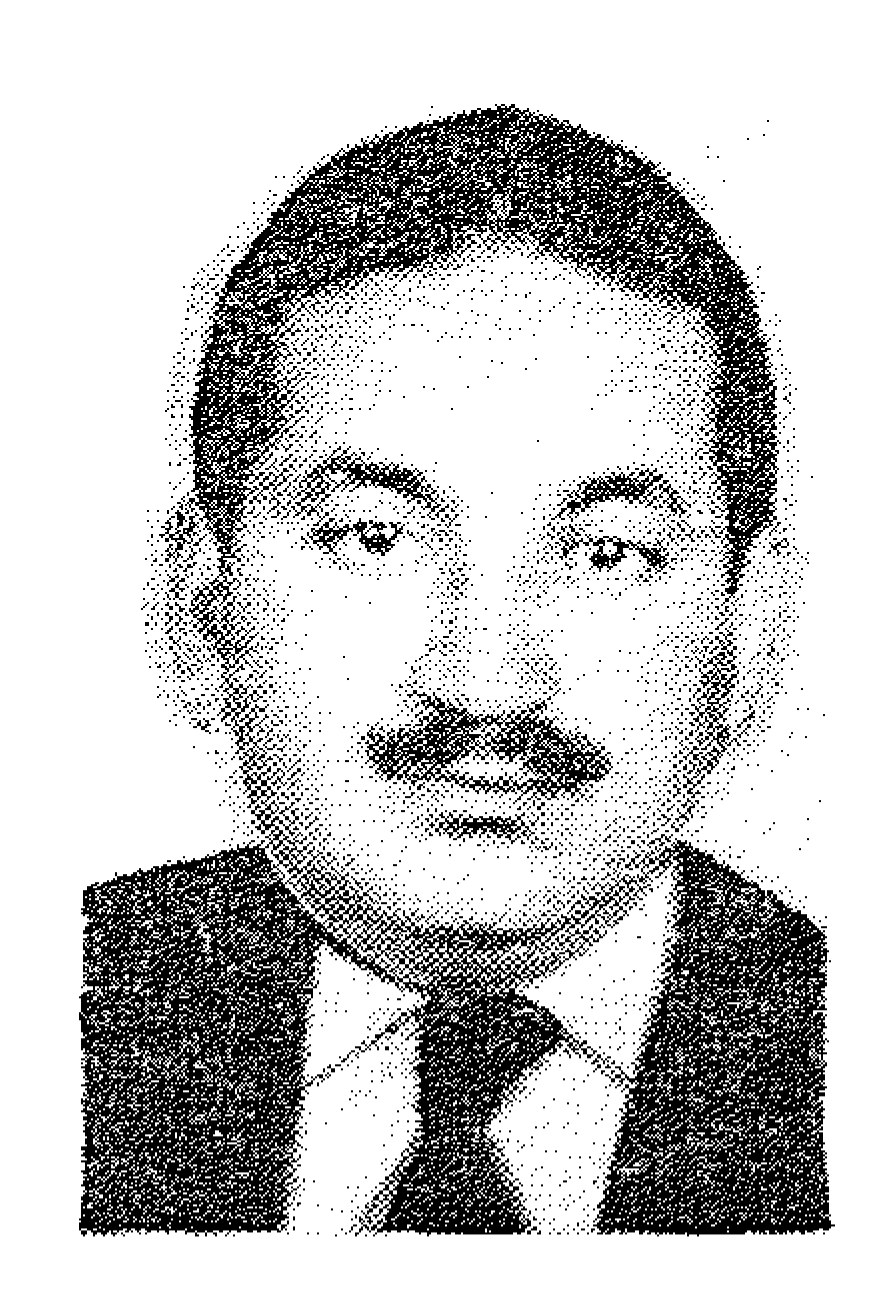
كتب معربة :

* ❋ صراع فى البحر . (مكتبة الانجلو المصرية) .
* ❋ الفدائى العجيب . (مكتبة الانجلو المصرية) .
* ❋ الموت فى الملاعب الرومانية . (كتاب الهلال) . تحت الطبع .
* ❋ الامبراطور الرهيب .

ثبت الذكريات

يشكر الكاتب للاخوة العـــاملين فى مؤسسة دار الشعب
جهودهم الرائعة فى انتاج هذا الكتاب . كما أنه يود أن يقرر أن
الأخطاء المطبعية الطفيفة لا تنتقص من شكره وتقديره لهم شيئا .
ومن كان بلا خطأ فليرمهم بحجر ....

رقم الايداع بدار الكتب [illegible]



□ جمال السيد □

قالوا
عن
الكتاب

□□ كتاب قرأته باستمتاع متزايد وأثر فى وجدانى بجوانبه الانسانية التى تكشف عن صفحات ناصعة من حياة الضباط ، أما ميزته الأولى ففى أسلوبه المرن وطاقاته الفكاهية الممتازة .

((نجيب محفوظ))

□□ لون رائع فريد من ألوان الأدب الواقعى ، الذى تميزه النكتة والأحداث الانسانية المؤثرة .

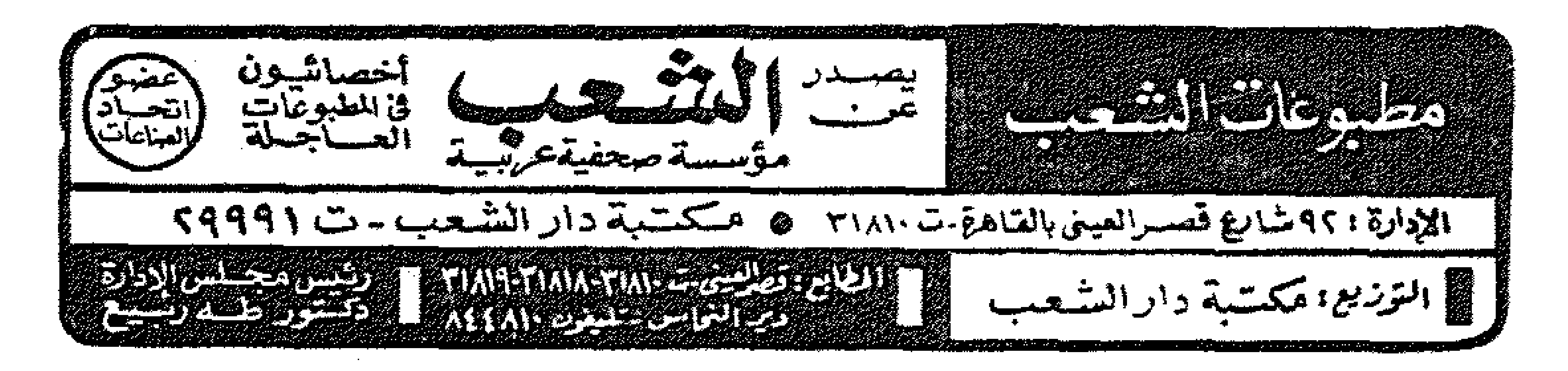
((د . حسين فوزى النجار))

□□ كتاب ممتع ، أستطاع مؤلفه أن يقدم ذكرياته فى تشويق وقدرة فائقة وبراعة من السرد .

((ثروت اباظة))

□□ الأديب المؤلف قصاص واقعى ساخر ظريف ، قدم فى الكتاب قصصا تمتع القارىء أيما امتاع وتفيد وتنفع المحاربين .

((حافظ محمود))



(الطبعة الثانية)

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م